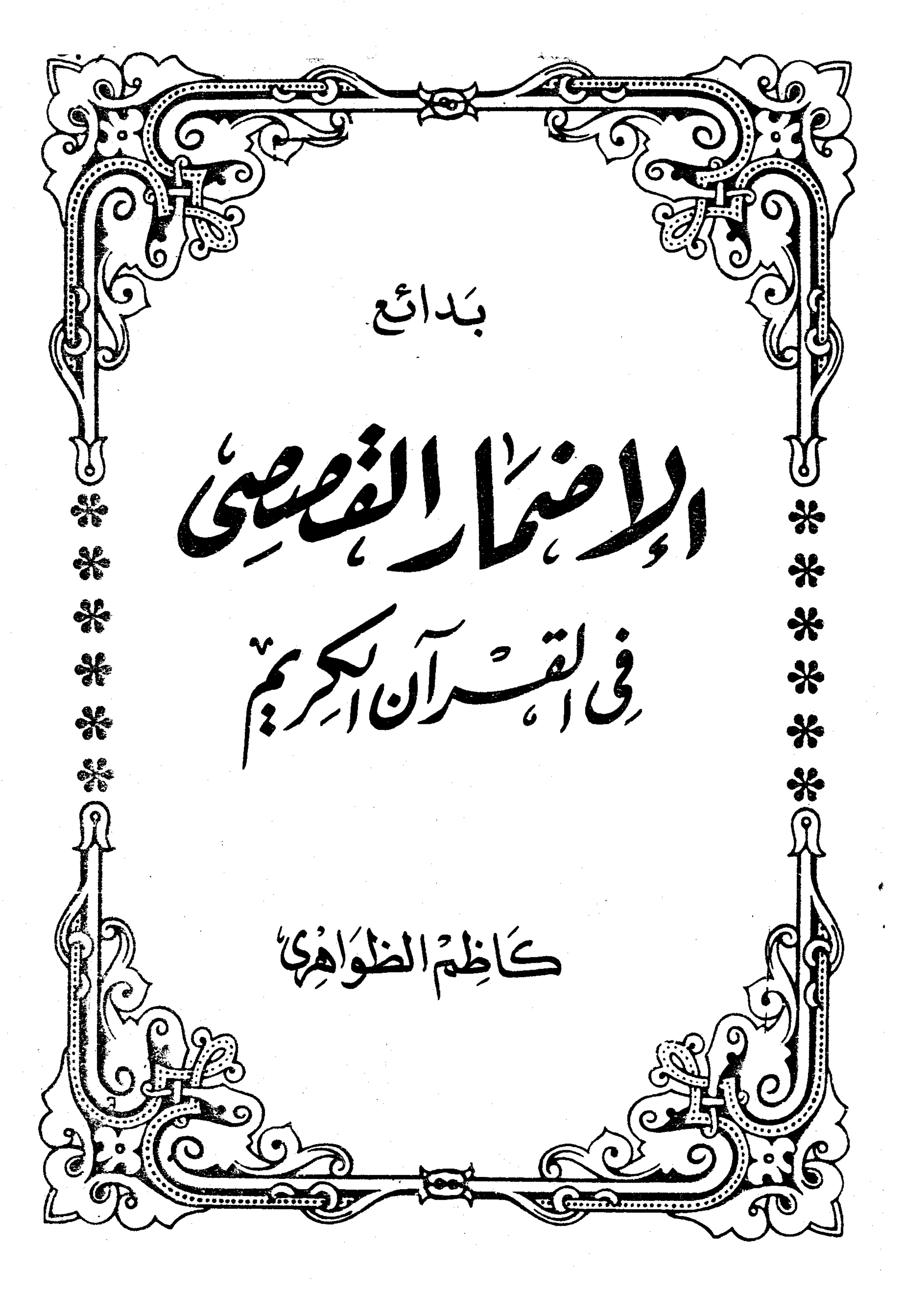

بدائع

الإضمار القصصي

في القرآن الكريم

كاظم الظواهري

الطبعة الأولى

١٩٩١ / ١٤١٢ هـ

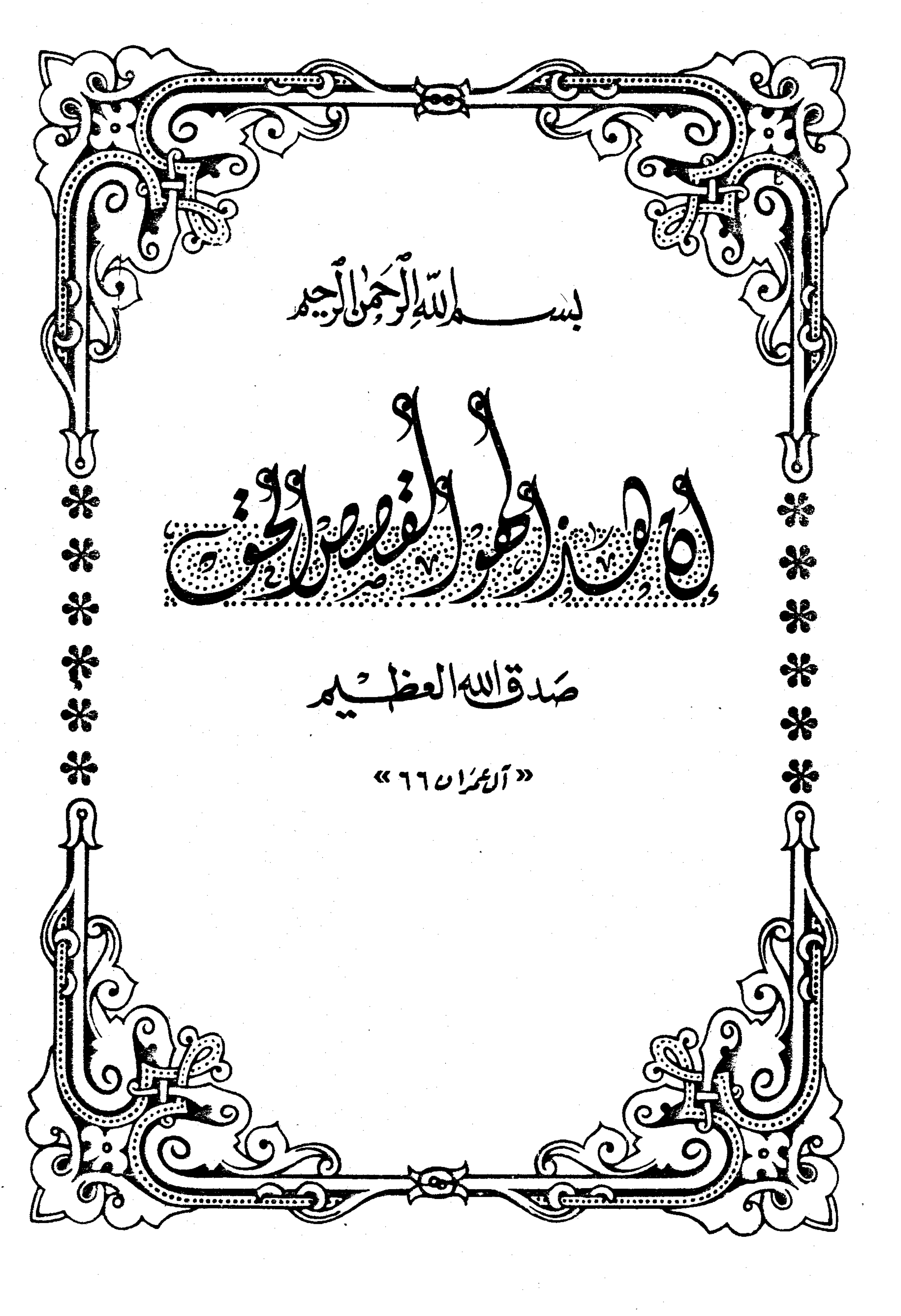

بسم الله الرحمن الرحيم

إن هذا لهو القصص الحق

صدق الله العظيم

« آل عمران ٦٦ »

المقدمة

لم يزل القرآن الكريم جديدًا قديمًا ، يطلع علينا كل يوم بِبِكْرٍ من وجوه إعجازه ، وما زال أرباب العلوم فى كل باب ، يجدون فيه من الأدلة ما يقنع أرباب صناعتهم أن هذا الكتاب لا ينبغى له أن يكون من عند بشر .

وأهل العلم عندنا يرون إعجازه فى بلاغته ، وينقسمون بعد ذلك إلى متشددين لا يرون له إعجازا فى غير ذلك وأن كل ما يأتى به غيرهم هراء وافتراء ، ومعتدلين يرون البلاغة أم الاعجاز ، ولا ضير أن يكون ثمة وجوه أخرى من الإعجاز ، وإن كانت دون ذلك لأن هذه الوجوه لا يتوافر لها شرط الشمول الذى ينبغى أن يعم الكتاب من أوله إلى أخره ، وينطبق على كل كلمة فيه ، ليجوز التحدى بأقصر سورة منه ، حيث قال تعالى « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار » ، والسورة من مثله يمكن أن تكون كالبقرة وآل عمران وسائر الطوال ، ويمكن أن تكون أيضا كالفيل وقريش والكوثر والإخلاص وسائر القصار ، كما يمكن أن تكون كمثل ما بينهما ، فلئن أتى أحد بسورة من مثل أىٍّ من ذلك سقط التحدى وسقط معه كل ما يترتب عليه من نبوة ووحدانية وبعث وجنة ونار ، وما وراء ذلك ؟ ومثل هذا النوع من الإعجاز لا يصدق بحذافيره إلا مع البلاغة .

ولقد أُعْجبَ بعضَ القدماء ما انطبع عليه العرب وتفردت به لغتهم من الاختصار فى الكلام ، وتأدية كثير المعانى بقليل الكلام فعندما سئلوا عن البلاغة ما هى ؟قالوا : البلاغة الإيجاز . لا ينكرون بذلك سائر وجوهها ،

وإنما يجعلون ذلك الإيجاز رأس البلاغة ، ويرون أن أكثر وجوه البلاغة يؤدى إليه ويحققه ، وهذه الوجوه جميعا مع الإيجاز تؤدى إلى الوضوح والظهور والبيان والجمال وتبليغ المعنى على أتم وجه وأحسنه .

ونحن نرى القرآن الكريم يعضد هذا المفهوم ويؤكده بكل آية من آياته ، غير مدعين أن بلاغته مقتصرة على إيجازه ، وإنما الايجاز صفة عامة من صفات بلاغته ، وعليه فهو من صفات إعجازه .

والإيجاز كما نعلم أقسام وأبواب ، وكلها مبثوث فى القرآن متمثل فيه ، والحذف من بينها له فيه محل رفيع ، وعمل عظيم ، وشأن لا يخفى على من يتصفح هذا الكتاب أو يتلوه أو يسمعه أو يدرسه .

وأظهر ما يكون الحذف فى القرآن فى قصصه ، ثم فى مشاهده التى تجرى مجرى القصة ، إما بسرد أحداثها وإما باستعمال المحاورة فيها . والسبب فى ذلك أن هذا القصص تترتب أحداثه وتتعاقب بحسب ترتب وقوع أحداثها موضوعيا على وجه الضرورة ، أو زمانيا ، أو مكانيا ، فيسهل إدراك ما طوى من أحداثها من أفعال أو أقوال ، وهذا ما سماه البلاغيون حذفا مساوين بين ما يقع فى القصة منه وما يقع فى غيرها من الأساليب .

وقد رأينا بعض السابقين يسمون ذلك إضمارًا ، وقد جمع محمد عبد الخالق عضيمة فى موضع واحد من كتابه « دراسات لأسلوب القران الكريم » عدة شواهد لعلماء ذكروا هذا المصطلح يعنون به الحذف ، وكذلك ذكره الرازى والزمخشرى وغيرهما فى تفسيرهم ، وكذلك فعل بعض البلاغيين كعبد القاهر وابن الأثير ، وبدر الدين الزركشى فى البرهان ، حيث فرق بين الإضمار والحذف على النحو المبين فى الفصل الأخير من الباب الأول من دراستنا هذه .

ومن المحدثين من قرن الحذف بالإضمار كعبد الفتاح بحيرى وتبع

الزركشى فى التفريق بينهما ، وهؤلاء جميعا كانوا يعنون به نوعًا من الحذف المخصوص ، فى دراساتهم المتنوعة ، من لغوية وبلاغية ، وتفسير للقرآن ، وغير ذلك . .أما محمد غنيمى هلال فقد تصيد المصطلح وجعله دليلًا على نوع من الحذف ، وطىِّ الأحداث فى القصة يسهم فى بنائها وحبكتها ، ووصَف التصوير الإضمارى لأحداث القصة فى مراحلها المختلفة عند بعض المذاهب ، كالوجودية ، وبيَّن أن الإضمار النفسى يعد من أسس التصوير الفنى عند بعض القصاصين المعاصرين ، وقد أفدنا من هذه المفاهيم جميعا ليتسنى لنا الربط بين ما أطلقه القدماء لا يعنون به إلا نوعا من أنواع الحذف فى القرآن الكريم وغيره ، وما أطلقه غنيمى هلال يخص به القصة الفنية وحدها ، ثم لنرتاح إلى مصطلح « الإضمار القصصى » واصفين به هذا النوع من الحذف الذى يؤدى إلى تدعيم البناء القصصى على نحو من الحرفة البديعة التى تشبه السحر ، « ترى بها تركَ الذِّكرِ أفصحَ مِن الذِّكرِ ، والصمتَ عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتَجدكَ أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تُبِنْ » كما قال عبد القاهر ، « الدلائل : ١١١ » .

وهذه الدراسة تؤكد على معنى جديد للحذف الكثير الذى يشمل القصص القرآنى من أوله إلى أخره ، وهو أنُ - الحذف فيه ليس للإيجاز ، أو أنه إن كان للإيجاز فليس للإيجاز فقط ، بل إنه إن كان للإيجاز فليس الإيجاز غايته وإنما الإيجاز نفسه موظَف لتحقيق هذا المعنى الذى سعت هذه الدراسة جاهدة فى سبيل إثباته وهو ببساطة شديدة تدعيم التصوير الفنى للقصة ، وخلق جوِّ العرض فيها بتكثيف احداثها ، وإبراز رءوسها ، والإبانة عن دقائقها التى تؤدى إلى التحول والتصاعد فى حبكتها ، وتكريس السياق للألفاظ والأساليب المؤدية إلى تفاعل المتلقى مع القصة لضمان أكبر قدر من الإثارة والتأثير فى هذا المتلقى قارئًا كان أو سامعا ، ليتحقق فى النهاية الهدف الذى سيقت من أجله هذه القصة ، وهو بالقطع هدف يتفق مع أهداف الدين .

وقد وضحت الدراسة ، ببحث فعل الحذف فى جزئيات القصة وفى بنائها ، أن تدعيم التصوير القصصى هو الغاية من الحذف ، ومن الايجاز معًا ، وأن ثمة صورًا متطابقة فى المعنى وفى الموقف القصصى ، وفى أكثر جزيئات السياق ، ولكن القرآن يحذف فى بعضها ولا يحذف فى بعضها الآخر ، فكان بيان العلة فى الحذف والترك دليلا واضحا ، ودامغا ، وليس مجرد قرينة ، على انه لو كان الهدف من الحذف الإيجاز لحذف فى كلٍّ ، وما ترك فى بعض وحذف فى بعض كما فعل ، كما أن ثمة مواضع نراه يحذف فيها كلمة ، ويزيد بجوارها جملًا كثيرة ، ويكرر فى بعض ، فيدع البلاغيون تعليل ذلك ويقفون أمام الكلمة المحذوفة ويقولون : إيجاز ! نعم هو إيجاز ، ولكن لا نقول : وكفى ! فقد بقى الشوط أمامنا طويلا لم نقطع منه إلا خطوة ، فلقد جررنا على أنفسنا وبالًا من أسهم المغرضين بهذا التوقف ، حيث تركنا ما يظهر للمغرض أنه تناقض فى كلامنا ، وفرضنا على القرآن شيئا هو منه براء ، إذ أوحينا لهم أن يقولوا فيه : يوجز فى كلمة ويأتى بأسطر من لغو الكلام (فى نظرهم) ! تعالى الله وكتابه عن ذلك علوا كبيرا .

ولهذا كان لزاما علينا أن نخوض هذه القضية وأنْ نبحث فيما خلفه لنا القدماء عن كل قبس نُذكى به جذوتنا ، وما وجدنا إلا قليلا ، بل وجدنا أن ظاهرة الحذف فى القصص القرآنى قد فتحت الباب على مصراعيه لخيالات الشاطحين ، وأوهام المفسرين وخلط الخالطين ، وإسرائيليات الكافرين وانحرافات أديانهم وافتراءاتها ، سيقت كلها لمحاولة مل ء الفراغات التى عمرت بها قصص الأمم السابقة فى القرآن الكريم ، بل إن كثيرًا من تأويلات أهل العلم لم تسلم من ذلك ، مما دعا الإمام الشوكانى إلى التنبيه على ذلك حيث يقول : (الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ص ٣١٦) : ومن جملة التفاسير التى لا يوثق بها تفسير ابن عباس فإنه مروى من طرق الكذابين كالكلبى والسدى ومقاتل ، ذكر معنى ذلك السيوطى ، وقد سبقه إلى معناه

ابن تيمية ، ومن كان من المفسرين تنفق عليه الأحاديث الموضوعة كالثعلبى والواحدى والزمخشرى ، فلا يحل الوثوق بما يروونه عن السلف فى التفسير ، لأنه إذا لم يفهم الكذب على رسول الله ﷺ لم يفهم الكذب على غيره » وقد نبهت فى هذه الدراسة على بعض ذلك وما أحطنا بأقطاره ، ولا نستطيع ، بل ولا ينبغى لنا أن ننفرد بمثل هذا العمل من دون جمهرة المفسرين والمحدثين والمؤرخين والمحققين من أهل العلم ، وإن كنا نرجو أن نكون قد وضعنا لبنة فى أساس بناء جديد لمفهوم القصة القرآنية .

لقد أضرب كثير من المتقدمين عن كثير من المسائل فى القرآن ، وقد لاحظ سيد قطب رحمه الله ذلك ، حيث قال (التصوير الفنى فى القرآن ٢٣ -٢٤) : ثم أخذ التفسير ينمو ويتضخم ابتداء من أواخر القرن الثانى . ولكن بدلا من أن يبحث عن الجمال الفنى فى القرآن أخذ يغرق فى مباحث فقهية وجدلية ونحوية وصرفية وخلقية وفلسفية وتاريخية وأسطورية ، وبذلك ضاعت الفرصة التى كانت مهيأة للمفسرين لرسم صورة واضحة للجمال الفنى فى القرآن » .

وبهذا أيضا أخطأ المشتغلون بعلوم القرآن الطريق الصحيح لبيان إعجاز القرآن الذى يكمن سره الأعظم فى الجمال الفنى .

وكان من بين ما أضرب عنه المتقدمون مسائل الحذف فيه ، وقد تعقبت عشرات من المواضع فى كثير من كتب التفسير فما وجدتهم يتوقفون عندها أو يعيرونها ادنى اهتمام ، هناك مواضع تعرضوا لها ، وهى ليست بالقليلة ، ولكنهم كانوا يكتفون بأدنى إشارة إلى هذا الحذف ، ونادرًا ما يقدرون المحذوف ، ولا يتخطون هذه الخطوة قيد أنملة ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ **فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا** ﴾ ، قال فيه ابن الأثير (المثل السائر ٢ /٢٧٥) : « أى فضرب فانفجرت ، فاكتفى

بالمسبب . الذى هو الانفجار عن السبب الذى هو الضرب » وقال الزمخشرى : « الفاء متعلقة بمحذوف أى فضرب فانفجرت ، أو لأن ضربت فقد انفجرت » وقال البيضاوى : « فانفجرت » متعلقة بمحذوف تقديره (فإن ضربت فقد انفجرت) أو فضرب فانفجرت .

وقوله تعالى ﴿ **قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم ، وجاء السحرة فرعون** ﴾ الاعراف ١١٢ ،١١٣ – قال فيه البيضاوى بعد ما أضرب عنه الزمخشرى وغيره : وجاء السحرة فرعون بعد ما أرسل الشرط في طلبهم .

وقوله تعالى ﴿ **قال موسى اتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا** ﴾ – يونس ٧٧ – قال فيه أكثر المفسرين الذين قالوا بالحذف إنه قد حذف مفعول « اتقولون » لدلالة كلامهم السابق عليه .

وقوله تعالى﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحيناإليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا اباهم عشاء يبكون . قالوا يا ابانا** ﴾ – يوسف ١٥ –١٧ قال الزمخشرى فيه : جواب لما محذوف ومعناه فعلوا به ما فعلوا من الأذى . وعلى هذا اكثر المفسرين .

وقوله تعالى ﴿ **أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا** ﴾ . قال الزمخشرى : المعنى فأرسلوه إلى يوسف ، .وقال الطبرى : « وفى الكلام محذوف قد ترك ذكره استغناء بما ظهر عما ترك ، وذلك فأرسلوه فأتى يوسف فقال له يا يوسف يا أيها الصديق » . وقال البيضاوى : فأرسلون أى إلى من عنده علمه أو إلى السجن ، يوسف أيها الصديق ، أى فأرسل إلى يوسف فجاء فقال يا يوسف . وقال ابن الأثير (٢ / ٢٩٠) جواب الأمر محذوف تقديره ، فأرسلوه إلى يوسف فأتاه فقال له : يوسف أيها الصديق .

وقوله تعالى﴿ **وقال الملك ائتونى به فلما كلمه قال . .** ﴾ أورد الزمخشرى فيه مقالة تشير إلى ما فعل يوسف ما بين مجىءالرسول بالإذن بالخروج من السجن والوفود على الملك . وقال البيضاوى : فلما كلمه اى فلما اتوا به فكلمه وشاهد منه الرشد والدهاء قال إنك لدينا اليوم مكين امين . وقال ابن الأثير (٢ /٢٩١) : وقد حذف جواب الأمر هاهنا وتقديره : « فأتوه به فلما كلمه . . . » ثم قال : وفى سورة يوسف – عليه السلام – محذوفات كثيرة من أولها إلى آخرها .

وقوله تعالى ﴿ **فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا . يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ مريم ١١ –١٢ – قال فيه الرازى : قوله ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب** ﴾ يدل على أن الله تعالى بلغ بيحيى المبلغ الذى يجوز ان يخاطبه بذلك ، فحذف ذكره لدلالة الكلام عليه . (الرازى ٢١ /١٩٢) .

أما ابن الأثير (٢ /٢٨٠) فعلل للحذف بأن الجملة غير مفيدة .

وقوله تعالى﴿ **فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل . قال ألم نربك فينا وليدا** ﴾ الشعراء ١٦ –١٨ – قال فيه الزمخشرى : ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب إن ههنا إنسانا يزعم انه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك منه ، فأديا إليه الرسالة ، فعرف موسى فقال له(ألم نربك) حذف : فأتيا فرعون فقالا له ذلك . لأنه معلوم لا يشتبه ، وهذا النوع من الاختصار كثير فى التنزيل . وقال البيضاوى : قال أى فرعون لموسى بعد ما أتياه فقالا له ذلك : ألم نربك . . . إلخ .

وقوله تعالى ﴿ **يغشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾ الدخان ١١ –١٢ قال فيه الزمخشرى : و﴿ **هذا عذاب** ﴾

إلى قوله ﴿ **مؤمنون** ﴾ منصوب المحل بفعل مضمر ، وهو (يقولون) و(يقولون) منصوب على الحال أى قائلين ذلك .

من هذا يتبين لنا أن المفسرين اجتهدوا فى بيان الحذف فى بعض المواضع لا كل المواضع ، ومنهم من كان يبين موضعا ويترك غيره ، وبيانهم يقتصر عادة على مجرد التنبيه على أن ثمة حذفا فى موضع ، فإن زادوا على ذلك فلتقدير المحذوف أو لبيان الموقع الإعرابى له أو لما بعده إذا تعلق به ، أو عمل فيه ذلك المحذوف ، وقد يخطىءبعضهم فى تقدير المحذوف فى بعض المواضع وقد نبهنا على شيءمن ذلك فى مواضعه من الدراسة . وقد يملأون الفراغ بأخبار صحيحة أو معتلة ، أو حتى فاسدة ، وقلما يتنبه الواحد منهم إلى ما فى الأسلوب من جمال سببه هذا الحذف ، كأن يقول : لله در هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه وما أبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف وكان طالبا للحق . (الزمخشرى فى تفسير ﴿ **قال ربنا الذى اعطى كل شيءخلقه ثم هدى** ﴾ طه ٥٠ - ٣ /٦٧ .) أو يقول : هذه المفاجأة بالاحتجاج والالزام حسنة رائعة ، وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول . (الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى ﴿ **فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا** ﴾ الفرقان ١٩ -٣ /٢٧٠ -٢٧١) وهى من اللفتات التى تفرد بها الزمخشرى دون سائر المفسرين ، الذين كانوا يأخذون منه ، ولا يزيدون على ذلك .

وهكذا كانت طريقة القدماء فى الإشارة إلى الظاهرة الأسلوبية ، وتحليلها ، وتعقبها ، ولكن دون بيان ما لهذه الظاهرة من أثر فائق فى البناء الفنى للقصة ، والفرق بين هذه الأساليب وأساليب البشر ، وما إذا كان الفضل والمزية راجعين إلى مجرد السبق ، أو تمام الاستقلال بها ، أو الكثرة والاطراد .

لقد كان الواحد منهم يستشعر فعل الحذف فى السياق وفى بناء القصة وحبكتها ولكنه يفتقر إلى ثقافة وعلم بهذا الضرب من التصوير لكى يتمكن من التعليل للظاهرة الأسلوبية مسترشدا بها ، كما أنهم كثيرا ما كانوا يقتصرون على الإشارة إلى ما حذف من اللفظ فقط فى السياق أما إذا حذف من المعنى والحدث شيءواستقام الأسلوب بعده ، فإنهم يَغْفَلُونَ عنه أو يُغْفِلونه ، كأنْ لم يكن . وذلك أن مثل هذه المحذوفات يستدل عليها بتدرج الحوادث وترتبها على نحو من الإدراك لكيفية تركيب الحبكة فى فن القصة أو فن المسرحية أو ما يتفرع عليهما من الفنون ، وأنّى لأسلافنا أن يعرفوا ذلك ، ولهم فى هذا عذرهم .

وإن التماس العذر لهم فى هذا لا يكفى ، ولكنى أحب أن أضيف إليه شيئا استشعرته من بعض ملاحظاتهم على القصص القرآنى والقصص عموما ، فكنت أشعر أحيانا أنهم يعدون هذه الأمور من قبيل المسلمات والبدهيات التى لا ينبغى التوقف عندها والانشغال بها عن المسائل الدقيقة فى الأساليب والتصوير ، ويؤكد على ذلك ما أُثِرَ عن عدم احتفال العرب بالقصص والسير ، وإضرابهم عن تسجيلها ودرسها . وللحق ، إننا إذا قسنا عظمة البلاغة العربية وعلومها ومسائلها الدقيقة ، على القواعد الفنية للقصة والمسرحية أدركنا مدى الهزال الذى تعانيه قواعد هذين الفنين اللذين يتوفر نقادهما على درس مسائل من الفن توسم بالتفاهة إذا ما لاحت مسائل البلاغة العربية فى الآفاق . ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نسعى جاهدين إلى إكمال البلاغة العربية ومحاولة تقنين علم رابع نضيفه إلى علومها الثلاثة ؛ ليتم بهذا بناء يتقاصر دونه كل بناء لأية لغة من اللغات ، أو ادب من الآداب أو أمة من الأمم .

ولا شك لدينا فى أن العصر الحديث قد شهد تطورًا فى الدراسات البلاغية والنقدية ، وفى الدراسات القرآنية ، وأن هذه الدراسات قد قطعت شوطا

لا بأس به ، ولكنها مع هذا لا تزال بعيدة عن الغاية التى نصبو إليها ، من إكمال للبلاغة العربية ، والتأليف بينها وبين النقد ، وتوسيع نطاق الدرس القرآنى لنستقى من الكتاب العزيز ما غفلنا عنه من أساليب العرض فيه ، ولهذا فإننا نجد من بين عشرات الدراسات التى انقطعت للقصة القرآنية وتوفرت عليها ، أقل القليل الذى يشفى علة أو ينقع غلة من الدارس المتعطش لتبين أسرار هذا القصص واستجلاء غوامضه ، ودفع ما ألصق به من الشبهات .

ومن بين هذه الدراسات دراسة عبد الكريم الخطيب « القصصى القرآنى فى منطوقه ومفهومه » وهى دراسة ممتازة ، مستقصية ، متعمقة حاولت تحليل طرائق عرض القصص القرآنى ودرس قضاياه . ومنها دراسة صدرت فى الاسكندرية منذ عشر سنوات ، بعنوان الإعجاز اللغوى فى القصة القرآنية : محمود السيد حسن مصطفى سنة ١٩٨١م ، وأعيد طبعها فى السنة التالية تحت عنوان : روائع الإعجاز فى القصصى القرآنى . وهى دراسة تقليدية لم تتناول من فوائد الحذف وأسبابه إلا ما تطرق اليه الأقدمون ولم تلتفت إلى إشارات سيد قطب فى الظلال وفى التصوير الفنى ، التى تفرد بها هذا العلامة الذى خسرته أمته ، ولم تع قدره إلا بعد فوات الأوان . وقد حاولت أن أفيد من لمحاته الثاقبة فكانت منارًا هاديًا لى إلى كثير من مرافئ القرآن الكريم .

وإنى لآمل بهذه الدراسة أن نتمكن من استنباط قواعد أصيلة للفنون القصصية التى ازدهرت فى العربية حديثا نلقنها للقصاصين والروائيين والمسرحيين ، ليتتلمذوا على أحسن القصص كمثل أعلى لهم ، ويدعوا البضائع المستوردة من شرق أو من غرب . ويدركوا الفرق بين القصص الحق ، وأساطير الأولين التى يتعبدونها فى محاريب اليونان والرومان والأوربيين .

ومن أجل هذه الغاية لم تتوقف هذه الدراسة عند ظاهرة الحذف وحدها مع أنها محورها ، وإنما درست جوانب كثيرة اثيرت من قبل فى درس القصص القرآنى ، ورأينا أن ندلى فيها بدلونا من وجهة نظر أوتيت بعض المقدرة فى الالمام بقواعد هذه الفنون الحديثة ، فخصصنا لها الباب الأول من الدراسة . ولم نكتف بذلك بل إننا رأينا أن دراسة الحذف جزئيا لا تحقق الهدف الذى نسعى إليه ، فدرسناه مع ما يتعلق به من مسائل البلاغة كظاهرة التكرار وظاهرة الإطناب ما أمكن وكلما وجدت المناسبة لذلك ، لنتمكن من الإدراك الصحيح والفهم الواعى لأساليب القرآن ومراميه ، وادراكَ ما فيه من إعجاز بالتوصل إلى تعليل لا يرده راد لهذه الظواهر جميعا ، فلا يرد بعضها بعضا ، ولا نناقض أنفسنا فيما نسوق من علل ، وأيضا اجتهدنا قدر الإمكان فى ربط الظاهرة بمشاهد القصة وبنائها الكلى وموضوعها وترتب أحداثها المتعاقبة ، وربط كل ذلك بموضوع السورة والغاية من إيراد القصة فيها ، وبيان مقاصد الشارع فى ذلك إذا تعلقت من موضوعنا بطرف ، وما أحسب أنه كان من الممكن أن أتناول بالدرس مواضع الحذف فى سورة طه مثلًا دون التعرض لمواطن الإطناب فيها ، ولقد وجدنا بعد الدراسة أن هذا المنهج قد ألغى كثيرًا من العلل التى ساقها المفسرون والدارسون .

إن الجمع بين هذه الظواهر القرآنية فى إطار دراسة واحدة هو الطريقة المثلى لإدراك العلل الأصلية لصياغة الأساليب القرآنية والتوصل إلى أسرار النظم القرآنى . لهذا نرانا حاولنا التوفيق بين وجهتين : ألا نقصر البحث على موضوعه الأصلى فنحرم من فضيلة الإشارة الى الظواهر المتجاورة فى القصة الواجدة ، فى حدود ما يسمح به الموضوع ، وألا نبالغ فى التعميم والتشتيت والخروج على الهدف الأصلى من الدراسة وإدخال القارىءفى متاهة تضيع الموضوع الأصلى وتطغى عليه .

أما أقتصارنا على الحذف من بين ضروب الإيجاز فلعلة تتعلق بفن القصة

وتركيبية فن الحكاية فيه ، كما قدمنا ، وكما سيتبين من الدراسة نفسها . الأمر الذى نراه مفتاح الوجه الأصلى للإعجاز فى هذا القصص الكثير فى القرآن ، بعد أن كان من قبلنا يرون أن وجه الإعجاز فى القصص القرآنى هو أنه إخبار بقصص الأمم الماضية المندثرة على لسان النبى الأمى الذى لم يتعلم شيئا من هذا ولم يطلع عليه ، وهذا ما رد عليه الكفار فى زمانه بقولهم : « درست » ، و« إنما يعلمه بشر » ، وأثار فيه الشبهات الدساسون من المستشرقين وأتباعهم ، ولا ضير فقد أحسنوا إلينا بهذا لأنهم ردونا إلى الوجه الأصلى للإعجاز القرآنى وهو بيانه ، وما طريقة العرض هذه الا من بيانه ، وإنها ليعجز عن مجاراتها فى فنيتها ودقتها وحرفيتها وتنويع طرائق الأداء فيها ، أعاظم فن القصة وأكابر كاتبيها .

وليس من أهداف هذه الدراسة إسقاط بعض النظريات الفنية ، أو البلاغية أو التوفيق بينها وبين نظريات جديدة ، أو التسلق على بعض إلى بعض ، وإنما هدفها محاولة التوصل إلى مقاييس جمالية لأنواع من الفنون كنا عنها غافلين ، على الرغم من أن القرآن الكريم حافل بكثير منها ، ولها نظائر فى كلام النبى ﷺ منها حديث أبى هريرة ، الذى ذكره مسلم فى صحيحه وأحمد بن حنبل فى مسنده والترمذى والدارمىّ ايضا ، قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب ! يا رب !** ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له .

ففى هذا الحديث حذف لفظ القول قبل الدعاء ، فجعل الرجل الموصوف كأنه ماثل امامنا على حاله هذه وهو ينادى ربه : يا رب يا رب ! .

ومنها حديث أبى هريرة – صحيح مسلم – قال : قال رسول الله ﷺ :

مثلى كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التى فى النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه ويتقحمن فيها . قال : فذلكم مثلى ومثلكم **وأنا آخذ بحجزكم : هَلُمَّ عن النار ! هلم عن النار !** ، فتغلبونى وتقحمون فيها .

وهذا مثل سابقه فى الحذف لتحقيق الحضور لمشهد القائل وهو ينطق مقالته .

ومنها حديث أبى هريرة أيضا – متفق عليه – قال : قال رسول الله ﷺ :« انتدب الله لمن خرج فى سبيله **لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة** . ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل »فهذا الحديث النبوى تخلله حديث قدسى (التصوير الفنى فى الحديث النبوى ص ٣٦٩) وطريقة حكاية كلام الله تعالى فى أثناء حديث الرسول أشبه ما تكون بطريقة حكاية رسالة سليمان فى كلام ملكة سبأ ، وهى طريقة الانتقال بالحذف .

ومن هذا القبيل وهو أوضح مما سبق ، وأكثر تركيبًا ، تلك العبارات التى تقال فى صدر التشهد ، وهو ما يطلق عليه « التحيات » فهذه العبارات تمثل حديثًا موجهًا إلى أطراف عدة يتنقل المتكلم بينهم دون إشارة إلى هذا التحول ، وحذف هذه الإشارات يساعد على تحقيق الحضور الذى يستشعره المصلى الخاشع فى صلاته .

غير أن هذه الظاهرة خافتة جدًا فى الحديث النبوى ، ويكاد يخلو منها الأدب النبوى المشتمل على القصص ، وهذا دليل على اختلاف المصدر ، حيث يدرك كل ذى عقل أن قائل القرآن ليس هو المتكلم بهذه الأحاديث كما أن هذه الظاهرة خافتة فى الشعر العربى ، ولا عجب ، فهو فن مختلف

عن الفنون التى تلزمها تلك الأنواع من الحذف ، ولعل من يتعقبها يمكنه الظفر بأشياء لها دلالتها فيه ، ومن هذا القبيل قول الحماسى – الشنفرى أو تأبط شرا :

فلا تدفنونى إن دفنى محرم عليكم ولكن خامرى أم عامر

حيث جعل المقالة التى تقال للضبع ، قائمة فى الكلام فى محل لا يتأتى إلا بتقدير محذوف ، فكأنما أحضر مشهد الضبع وهو يستعد لعمله الكريه فى نهش جثمانه !

وفى القصص العربى القديم أثر لهذه الظاهرة ، كما فى مقامات البديع ، الذى يبدو أنه قد أفاد من الفن القرآنى فى صناعة مقاماته التى كالقصص – وهى رائدة المقامات كما نعلم – وذلك فى المقامة البغدادية حيث قال فى أولها على لسان راويه عيسى بن هشام : « اشتهيت الإزاذ وأنا ببغداذ وليس معى عقد على نقد . فخرجت انتهز محاله حتى أحلنى الكرخ . فإذا أنا بسوادى يسوق بالجهد حماره ويطرف بالعقد إزاره . **فقلت ظفرنا والله بصيد . وحياك الله أبا زيد من أين أقبلت ؟ وأين نزلت ؟ ومتى وافيت . . . إلخ** » فنراه يضم كلامه الثانى الموجه إلى السوادى (الفلاح) إلى كلامه الأول الذى قاله فى نفسه ولا يعقل أنه قد واجه ضحيته به ، وذلك لينقلنا من التقديم بالرواية على لسان الراوية إلى مسرح الأحداث المعروضة وكأننا نشاهدها رأى العين ونسمع اطرافها وهم يتحاورون امامنا . وهذه حرفة عالية لابد أنه استمدها من القرآن كما سنرى عندما نستعرض نظائرها فى الكتاب الكريم فيما يصف انتقال المتكلم من الإسرار إلى الجهر دون قطع الكلام بسرد ما يوضح هذا الانتقال على لسان الراوى أو وصف القاص . ومن البيِّن أن ذلك من عمل الحذف فى الكلام . وهذا وذاك مما نريد أن نضع أيدينا عليه فى عملنا هذا متخذين القرآن الكريم مثلا أعلى .

ومن جهة أخرى فإننا نطمع فى أن نضع هذه الظواهر بين أيدى المشتغلين

بعلوم القرآن ليستعينوا بها على استنباط تأويلات لكثير مما عجز السابقون عن تأويله ، وبيان غموضه وحل الغازه ، ولتصحيح ما اخطأوا فى تفسيره أو استعانوا فيه بروايات مشبوهة لا سند لها ، كما تبين من درسنا لقوله تعالى فى سورة يوسف ﴿ **ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم** ﴾ وقوله تعالى فى سورة النمل ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين** ﴾ أنهما لا يمكن أن يكونا من قول يوسف وسليمان عليهما السلام ، كما شاع بين كثير من العوام والخواص ، وجرى مجرى المثل على ألسنة الناس ﴿ **وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾ منسوبا إلى يوسف ، فطبيعة المشهد تأباه ، إذ ثبت أنه لم يرد فى القرآن قول نُسب إلى غائب عن المشهد وحُذف لفظ القول من صدره ، بل لابد من إثباته ، لئلا يلتبس ، وهذه من الفوائد الجليلة التى عادت بها علينا هذه الدراسة . وأحسب بعد هذه السياحة أن كثيرًا من أساليب القرآن وظواهره اللغوية ما زالت فى حاجة إلى عمل دائب لتحقيق كثير مما عجز من قبلنا عن تحقيقه .

ولست أدعى بحال أننى راض عن هذه الدراسة أو أننى قد وفيتها حقها ، كيف وما زال أكثر ما جمعت من مادتها عندى بكرًا لم تمسسه يدى ولم يدخل هذه الدراسة ، ولكنى اجتهدت قدر طاقتى فى ابراز فكرتها وتقديم نماذج لها ، ولو توفرت على ما بين يدى من نماذج الحذف فى السرد القصصى والوصف فى القرآن لتضاعفت الدراسة ، وتأخر ظهورها عدة سنوات ، فنسأل الله تعالى أن يعيننا على إخراجها ، أو يعين غيرنا على إخراجها بأفضل مما نستطيع .

ولا يسعنا فى هذا المجال إلا أن نذكر بالخير جهود من سبقونا من العلماء وأن نترحم عليهم سائلين الله تعالى أن يجعلها فى ميزان حسناتهم ولا سيما

سيد قطب الذى ما طلبت شيئا يتعلق بأساليب القرآن الكريم ، وطرائقه فى التصوير والتعبير إلا وجدت عنده مثل ما حاك فى نفسى وأحسن تفسيرا ، وأكثر كثيرا مما أجد عند غيره ممن كان قبلنا ، فاللهم ارحمه رحمة واسعة واجعل ثأره على من ظلمه ، وثأرنا على من ظلمنا يا أرحم الراحمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،

كاظم الظواهرى

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

مناقشات كاشفة

عن جوانب معجبة من خصائص القصص القرآنى

- تمهيد

١ – تناسب القصص القرآنى وغايات التنزيل

٢ – انتقاء الأحداث فى القصة

٣ – التكـرار

٤ – حركة الحدث فى المحاورة والسرد

٥ – التفصيل والإجمال

٦ – الطى فى الحوار والحدث

القصة وسيلة من وسائل القرآن الكريم الكثيرة التى ساقها رب العزة لتحقيق الغاية التى أنزله من أجلها ، وهذه الغاية تنتظم كل السور القرآنية على اختلاف أغراضها الظاهرة ، وموضوعاتها لتشكل فى النهاية هدفًا أصليًا نزل من أجله القرآن الكريم بأسره ، وتتلخص هذه الغاية فى ثلاثة أمور تترتب منطقيًا وتتعاقب كما يلى :

أولًا : إثبات أن القرآن الكريم معجزة ، لا يتأتى لبشر الإتيان بمثلها ، ويترتب على ذلك ألا يكون منشئه من البشر .

ثانيها : بعد ثبوت الأول : يترتب عليه ثبوت صدق الرسول الذى جاء به فيما أخبر به من أنه نبى مرسل من عند مُرْسِل من غير البشر ، وصدق كل ما يجيىء به ، حيث إنه قدم الدليل على ذلك : معجزة القرآن .

ثالثها : وأهمها ، وهو هدف الرسالة نفسها ، أنه بثبوت الأمر الثانى بدليل الأول ، يثبت صدق ما أتى به هذا الرسول ، وهو جوهر هذا الدين[1] ، وهو وحدانية آلله تعالى خالق كل شىء ، وخالق هذا الرسول ، ومنزل هذا القرآن .

وهو واجب الاتّباع ، فيما يأمر به وفيما يشرّع وفيما ينهى عنه .

وعلى هذه المحاور الثلاثة ينبنى القرآن الكريم ، ويدور ، وإن اختلفت الأساليب وطرائق التصوير والتعبير ، ووسائل الإثبات وأنواع الاستشهاد على صدق واحد من هذه الأمور ، أو كلها .

ويأتى قصص القرآن فى ثنايا سوره ليحقق الغاية نفسها التى أنزل من

---

(١) انظر : إعجاز القرآن للباقلانى ص ٨ – ٣٢ .

أجلها القرآن الكريم ، بالإضافة إلى بعض الغايات الفرعية التى تتعلق بالقصة ذاتها والسورة التى تذكر فيها ، وتلتقى فى النهاية مع الغايات العظمى للكتاب الحكيم . فهذا القصص القرآنى يأتى دليلًا على إعجاز القرآن بموضوعه الذى لا يتأتى لعربى معرفته ، ولا سيما من كان أميًا ، ففيه أخبار أمم لا علم لمحمد بهم . ولا علم للعرب بكثير منهم ، وفيه فصل الخلاف بين أهل الكتاب فيما اختلفوا فيه من أمور دينهم وقصص أنبيائهم ، وفيه بشارة الأنبياء السابقين بهذا النبى ، وإخبار بغيوب تتعلق بالرسالات ومخلفات الأنبياء والأمم لم يكشف عنها بعد ، كما أن فيه – أى فى القصص – تصديق ماجاء به القرآن ، وفيه أخبار توحيد الله وأن دين الله واحد وأن كل أنبياء الله مسلمون . وفيه نذير ووعيد للمكذبين من مصير مثل ماصار إليه المكذبون من الأمم الغابرة ، وفيه تثبيت وتعزية للنبى صلى الله عليه وسلم ، ببيان نصر الله تعالى لمن سبقوه من الأنبياء والمرسلين ، ونجد قصص القرآن مناسبًا لموضوع السورة التى يرد فيها ولذا نجد أحداثًا من القصة تعرض فى سورة ، ولا ترد فى أخرى مع القصة نفسها ويرد غيرها ، وهكذا .

وأخيرًا يأتى التركيب الفنى والأسلوبى للقصة ليحقق كل هذه الأهداف مجتمعة ليمثل صورة من الإعجاز تضاف إلى ما سبق للبلاغيين بيانه من ضروب الإعجاز البيانى للقرآن ، وبعض هذه الخصائص يأتى بيانه فى هذه الدراسة ، وهو موضوعها .

الفصل الأول

تناسب القصص القرآنى
وغايات التنزيل

تمتزج القصة فى القرآن الكريم بموضوعاته امتزاجا عضويا لا يدع مجالا للفصل بينها وبين غيرها من موضوعات السورة ، بل إن هذه القصة تجىء أبدًا فى معرض الاستشهاد على الأمر الذى تعرض له السورة ، فى العقيدة أو فى التشريع أو غير ذلك . وتتعدد أساليب القرآن فى التخلص إلى القصة والخروج منها ، وطريقة عرضها فى ثنايا الموضوع ، غير أن القصص جميعه لا يخرج عن الغاية المرسومة وتلك هى الخصيصة الكبرى البارزة فيه : التناسب وغايات التنزيل .

فكما أن أكثر سور التنزيل تبدأ بذكر (الكتاب) وتصفه وتتحدث عنه ، يكاد قصص القرآن كذلك لا يدع ذكر الكتب السماوية ويصفها وما جاء فيها من الحكمة ، ثم ما أحاط بنزولها من أحوال المكذبين والمصدقين ، وما آل إليه أمر كل من الفريقين . يستوى فى هذا أن تكون القصة فى صورتها المجردة ، أو المفصلة ، فالمجردة التى لا تحدد أحداثا أو أشخاصا تعددت فى مواطن لزم ذكرها فيها . وقد يكتفى بذكرها ولا يأتى بعدها تفصيل ، وقد يأتى بعدها تفصيل كقصص بعض الأنبياء أو الأمم .

قال تعالى ﴿ **المص . كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون** ﴾[1] فذكر الكتاب الذى أنزل إلى نبيه محمد ﷺ ودعاه إلى الصبر والثبات على الدعوة إليه بهذا الكتاب . مذكرًا إياه بما يجب عليه من الإنذار به والتذكير ، ثم توجه بالخطاب إلى عباده آمرًا إياهم ومحذرًا من داء بنى آدم الذين كلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم ،

---

(١) سورة الأعراف : ١ – ٣ .

ونسوا ما ذكروا به ، وهنا مقام التذكير بمصاير الأمم السابقة على سبيل العموم والتجريد الذى يأتى بعده التخصيص والتفصيل ، فقال تعالى : ﴿ **وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بيتا أوهم قائلون . فما كان دعوهم إذا جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين . فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** [١] ﴾ . ليصل بذلك إلى غاية ما يراد بالقصص فى القرآن ﴿ **فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين** ﴾[٢] .

وذلك ليكون هذا القصص عبرة لمن بعدهم ، وهم أمة القرآن الذين تتلى عليهم آياته هذه ، ولتكون نذيرًا بين يدى عذاب أليم للمكذبين ، وبشيرًا للمصدقين به والمؤمنين ﴿ **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾[٣] وهكذا تجىء القصة المجردة نموذجًا عامًا يتصدر السورة من القرآن ليبين الغرض الذى من أجله يساق القصص عموما ، وقصص السورة نفسها على وجه الخصوص لتؤكد على أن القصص فى هذا الكتاب يساق تحقيقا لغايته الكبرى وهى بيان معجزة نبى مرسل من عند الله ليدعو الناس إلى توحيده وعبادته اعترافا بفضله على الناس بخلقهم واستخلافهم فى الأرض ﴿ **ولقد مكنكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون . ولقد خلقنكم ثم صورنكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ...** ﴾[٤] وهكذا تمضى السورة بعد ذلك فى سرد قصص عدة من الأمم والأنبياء من لدن آدم عليه السلام ، يتخللها من آلاء الله تعالى ، وأوامره ونواهيه ما يستدعى ذكر كل قصة وتتناسب معه أحداثها

---

(١) سورة الأعراف : ٤ - ٦ .

(٢) سورة الأعراف : ٧ .

(٣) سورة الأعراف : ٨ - ٩ .

(٤) سورة الأعراف : ١٠ - ١١ .

ومناط الشاهد والعبرة فيها . ولذا نجد فى ثنايا القصص ما يتوازى مع موقف نبينا عليه الصلاة والسلام مع قومه الذين أنكروا عليه الرسالة ، فنرى نوحا يخاطب قومه قائلا : ﴿ **أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم** ﴾ (١) ونرى كذلك هودًا يخاطب قومه قائلا : ﴿ **أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم** ﴾(٢) بل إننا نراه يقوم بالعمل نفسه ويؤدى الوظيفة التى يقوم بها قصص القرآن لأمة محمد ﷺ ، فنراه أى (هود) يقص على عاد – مذكرًا إياهم – قصة نوح مع قومه ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** ﴾ (٢) ومن بعده صالح يذكر قومه بقصص من كان قبلهم قائلا : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد** ﴾ (٣) ولما أصابهم العذاب تولى عنهم ﴿ **وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ (٤) ثم جاءت نهاية قوم لوط لتضاف إلى ما سبقها ويتوجه الله تعالى بالخطاب إلى رسوله الخاتم قائلا : ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ (٥) ليذكر رسوله بأن من غايات سوق هذا القصص طمأنته إلى أنَّ الله تعالى يملى للظالمين ليعذر إليهم ثم إذا أخذهم لم يمهلهم . ولهذا يسوق الله تعالى حديثا تجريديا آخر فى ثنايا السورة قبل أن يستأنف قصص بقية الأنبياء ، فيبين مدى ما يمن الله به على الأمم من الإمهال ، والصبر عليهم ومداومة الغفران ومنح الفرصة تلو الفرصة ، وموالاة البأساء والضراء عليهم لعلهم يرجعون إلى الله(٦) ، وهو

---

(١) سورة الأعراف : ٦٣ .
(٢) سورة الأعراف : ٦٩ .
(٣) سورة الأعراف : ٧٤ .
(٤) سورة الأعراف : ٧٩ .
(٥) سورة الأعراف : ٨٤ .
(٦) سورة الأعراف : ٩٤ – ١٠٠

حديث شجى مؤثر يهز المطَّلِعَ عليه من أعماقه هزا عنيفا بما فيه من ضروب التأثير المعنوى والبيانى المعجز ، ثم يعقب عليه مؤكدا الغاية التى من اجلها يسوق هذا القصص ، فخاطب النبى ﷺ بقوله تعالى : ﴿ **تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكفرين** ﴾ (١) وتأتى بعد ذلك قصة موسى عليه السلام مع قومه لتستغرق أكثر ما بقى من السورة الكريمة ، ويجيء فى ختام هذه القصة الأخيرة من السورة مثل لأحد علماء بنى اسرائيل علم كتاب الله وكفر به – على اختلاف فى خبره – ثم يعقب الله تعالى على القصص متوجها إلى نبيه بقوله ﴿ **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾ (٢) .

وهكذا نجد أن القصة فى القرآن جزء من نسيجه القوى لا تساق تسلية أو حديث خرافة وتلهية للناس ، وإنما هى جزء من موضوعه الذى يركز عليه منزله ليسوق كل حجة ، ويقدم كل دليل على صدق هذا النبى ، وليدحض كل حجة يأتى بها خصومه ، محذرا فى جميع الأحوال من مغبة التكذيب بهذا الكتاب والذى جاء بين يديه ، ولهذا نجد هذا الحديث المجرد يتوسع بعض الشيء ليشكل حوارًا بين نبيٍّ لم يسمه ، وخصومه ، يقارع بعض الفريقين بعضا الحجة بالحجة والدليل بالدليل ، متوصلا فى نهاية الحديث إلى ما انتهى إليه أمر المكذبين مع الحرص على أن يختم الحديث فى النهاية متوجها به أيضا إلى النبى ﷺ واصفًا له عاقبة المكذبين ، يقول تعالى : ﴿ **وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم**

---

(١) سورة الأعراف : ١٠١ .

(٢) سورة الأعراف : ١٧٦ .

عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [1] وهذه الصور المجردة من قصص الأنبياء تدلنا على أن هذا القصص لا يساق ليجعل من القرآن كتاب تاريخ أو سير ، ولا ليكون هذا الكتاب مشتملا على فنون القول المختلفة بما فيها القصة الفنية نحتج بها على من يدعى خلو الأدب العربى من فن القصة وأشباهه [2] ، فما لهذا أنزل القرآن وما لهذا جاء ما فيه من القصص ، ولا ينبغى لنا أن نستدرج إلى مثل هذه الترهات . ولا يتنافى هذا مع ما فى قصص القرآن من حكمة وبيان وضروب من فنون الحبكة القصصية المعجزة لأنها جاءت على نحو لا يتأتى لبشر أن يأتى به كما سنرى .

ومن وجوه تناسب القصص مع غايات التنزيل أيضا بيان قدرة الله تعالى كما فى قصة إبراهيم عندما قال : ﴿ **رب أرنى كيف تحيى الموتى** ﴾ [3] وقصة الرجل الذى مر على القرية وسأل ﴿ **أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه** ﴾ [4] وقصة أهل الكهف[5] ، وغيرها من القصص التى تساق فى مواطن معينة يستدعى المقام فيها التذكير بقدرة الله تعالى على أمر معين فى عالم الغيب أو فى عالم الشهادة .

ومن هذا القصص ما يجيء قصدًا إليه بعينه وتفصل فيه أشخاصه وأحداثه لاقتضاء المقام ذلك سواء أكان المقام ماثلًا فى السورة نفسها ، أم متواريا وراء سبب التنزيل ، أم فيهما معا كما فى سورة يوسف وسورة الكهف ،

---

(١) سورة الزخرف : ٢٣ - ٢٥ .

(٢) هذا ما صنعه بعض الأغرار فى معرض ردهم على الاتهام الموجه إلى الأدب العربى بالقصور . انظر دراستنا « قضايا النص المسرحى المعاصر ١٩٨٢م » وأيضا « قضية الفن الأول بين الشعر العربى والمسرح ١٩٨٨م » .

(٣) سورة البقرة : ٢٦٠ .　　　　(٤) سورة البقرة : ٢٥٩ .

(٥) سورة الكهف : ٩ - ٢٦ .

فينبه الله تعالى فى صدر القصة على هذا قائلا : ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾ (١) ويقول : ﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق** ﴾ (٢) وهناك قصص آخر يجىء فى معرض التمثيل به لأمر من الأمور المحسة فى عالم الشهادة أو فى عالم الغيب ، وتُصَدَّرُ هذه القصص عادة بمثل قوله تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلا رجلين** ﴾ (٣) وقوله : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية** ﴾(٤) وقوله ﴿ **واضرب لهم مثلا رجلين** ﴾ (٥) وقوله ﴿ **وإنما مثل الحياة الدنيا** ﴾ (٦) ، وقوله ﴿ **ضرب لكم مثلًا من أنفسكم** ﴾ (٧) وقد يفصح فى القصة المضروبة مثلًا عن بعض أشخاصها أو مكانها أو زمانها كقوله تعالى ﴿ **ضرب الله مثلًا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين** ﴾ (٨) .

وقد تستخلص من القصة عبرة منقطعة مجردة تساق للتحذير فتكون بالغة الدلالة بما فيها من إيجاز معجز ، وألفاظ تقع كالصاعقة على المكذبين وتقشعر منها أبدان السامعين وتزيد اطمئنان المؤمنين باليقين ، فى مثل قوله تعالى ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، ثم يوم القيامة يخزيهم** . ﴾(٩)

---

(١) سورة يوسف : ٣ .
(٢) سورة الكهف : ١٣ .
(٣) سورة النحل : ٧٦ .
(٤) سورة النمل : ١١٢ .
(٥) سورة الكهف : ٣٢ .
(٦) سورة يونس : ٢٤ .
(٧) سورة الروم : ٢٨ .
(٨) سورة التحريم : ١٠ .
(٩) سورة النحل : ٢٦ — ٢٧ .

وقوله ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ [١] .

وهذا الاختصار والتجريد فى القصة يأتى عادة فى المواطن التى يقتضى فيها المقام التذكير بأمر معين أو حادثة معينة من أحداث القصة دون بتر الموضوع الأصلى والخروج عنه واعتراضه بقصة طويلة ، فإذا انتهى المقام إلى تمام الموضوع وشفى منه النفوس أمكن عندئذ سرد القصص بتمامه إذا تطلبت السورة . ولهذا تتباين السور القرآنية ، وتتفرد كل منها بسمة أو سمات تحدد الطريقة التى يتم بها تناول الموضوع [٢] ، مع اتحادها جميعا فى الغاية .

ويختلف الغرض من تناول القصة ، وطريقة توظيفها لتحقيق الغاية فى القرآن المكى عنه فى المدنى ، حيث غلب على السور المكية تناول أمور العقيدة ، فكان قصص القرآن فيها منصبا على الأمم التى كذبت أنبياءها ورسلها فى شأن التوحيد وعبادة الله وحده وترك عبادة شركاء أو أولياء من دونه ويتجلى هذا بصورة واضحة فى سورة الأنعام وسورة الأعراف وفى يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر والكهف ومريم وطه والأنبياء والمؤمنون والشعراء والنمل والقصص ويس والصافات وص وغافر وفصلت والزخرف والدخان والأحقاف والذاريات والقمر والقلم ونوح والنازعات .

أما السور المدنية فيغلب على الخبر والقصة فيها القصر ، والتناسب الموضوعى مع أهداف التشريع وأموره التى غلبت على القرآن المدنى ، مع استمرار الدعوة إلى التوحيد وسائر أمور العقيدة بالإضافة إلى ذلك ولكن بصورة أقل مما كان عليه الأمر فى القرآن المكى فى عهده الأول ، كما بينّاه ، بخلاف القرآن المكى المتأخر كالإسراء وما بعدها حتى الهجرة فقد كان مرحلة وسطا بين هذا وذاك .

---

(١) سورة ص : ٣ .

(٢) انظر فى هذا الشأن تصدير سيدقطب لسورة البقرة وسورة الأعراف وغيرها فى الظلال .

والخبر فى السور المدنية فى الغالب موظف لبيان عناد الأمم السابقة ولا سيما بنى اسرائيل ، لأنبيائها وعصيانهم لهم واختلافهم عليهم وعدم المسارعة إلى تنفيذ ما يؤمرون به من أمور الشريعة بالإضافة إلى أمور العقيدة حتى بعد إيمانهم ، ومن أمثلة ذلك ما سيأتى من سورة الصف المدنية ، وأبرز مثال على هذا سورتا البقرة والمائدة المدنيتان حيث انصبت فكرة سورة البقرة على ما يجب على الجماعة المسلمة من تبعات وقد تحملت أمانة الله فى الأرض وأذعنت له وقبلت تشريفه لها باستخلافها وجعلها أمته المختارة الوسط بدلًا من بنى اسرائيل[1] الذين نكصوا على أعقابهم وخالفوا أوامر ربهم وقد من عليهم بكثير من المنن فلم يشكروها ولم يعرفوا حق الله عليهم ولم يطيعوا أوامره ويتبعوا رسوله وأروه ألوانا من العنت وسببوا له صنوفا من المشقة وكذلك فعلوا مع سائر أنبيائهم ، وهم أكثر الأمم التى جاءها أنبياء وأقلها أتباعًا لهم[2] ، ولهذا انصب القصص فى سورة البقرة فى أكثره على بيان هذه الصفة فى بنى اسرائيل ، وسنرى فيما بعد كيف ان الصياغة الأسلوبية قد سلكت نهجا فنيا ساعد فى إبراز صفاتهم هذه ، وأن المواطن التى وصفت عنتهم كانت متصفة بالاطناب على العكس من النهج السائد فى القرآن الكريم المتصف بالإيجاز والاختصار . وكان لورود كل جزئية من قصصهم فى السورة ما يعادله . ويستدعيه شاهدا من مجريات السورة الكريمة ، ومن ذلك أن أول ذكر بنى اسرائيل فى السورة كان تذكيرًا بنعمة الله عليهم[3] ، حيث أخذ يعدد لهم هذه النعم فيما بعد ويبين ما تلقوا به هذه النعم من الشك ، والكفران ، والاستخفاف بآيات الله ، والكيد للنبى ، ثم أخذهم باللين والشدة لعلهم يرجعون ، ولكنهم اصروا على ما هم فيه من عنت

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن ١ - ٢٨ .

(٢) انظر : البقرة : ٨٧ .

(٣) البقرة : ٤٠ .

وضلال ، فاستحقوا غضب الله عليهم وإنزال العقاب بهم ، وإعلان ذلك للنبى ومن معه ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾ [(١)] ،وعلى هذا النحو تمضى السورة حتى تأتى فى أخرياتها إلى الأمر الموجه للمؤمنين بالقتال فى سبيل الله فتضعه فى سياق خبرين عن بنى اسرائيل أولهما فى قوله تعالى ﴿ **ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم** ﴾ [(٢)] فيقال فى تفسيره إنهم قوم من بنى اسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد ففروا خشية الموت فأماتهم الله ثم أحياهم ليكون ذلك آية لهم ، وقيل غير ذلك [(٣)] والثانى هو قوله تعالى ﴿ **ألم تر إلى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال الا تقاتلوا ...** ﴾ الخ الأيات [(٤)] وهو قصة طالوت وجالوت وداود عليه السلام التى تبين مدى عناد بنى اسرائيل وعنتهم وشقاقهم . هذان الخبران أحاطا بالأمر من الله تعالى للمسلمين بالقتال فى سبيله فى قوله تعالى ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم** ﴾ [(٥)] ، فهو قد ساق القصة حثًّا للمسلمين على الجهاد بدليل ما اتبعه من الأمر بالقتال فى سبيل الله[(٦)] ، وذلك جريا على عادة القرآن أن يذكر بعد بيان الأحكام القصص ، ليضرب بها المثل للمسلمين ، ويحملهم بذلك على الاعتبار وترك التمرد والعناد ، ولمزيد الخضوع

---

(١) البقرة : ٧٥ .

(٢) البقرة : ٢٤٣ .

(٣) الكشاف : ١/٢٩٠ ، التفسير الكبير : ٦/١٧٤ .

(٤) البقرة : ٢٤٦ – ٢٥١ .

(٥) البقرة : ٢٤٤ .

(٦) الكشاف : ١/٢٩٠ .

والانقياد [1] وقد يصل اقتران المسألة الحاضرة بالقصة أو الخبر منها إلى حد الامتزاج فى القرآن المدنى أحيانا كما فى قوله تعالى ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا** ﴾ [2] ويبلغ هذا الامتزاج ذروته فى سورة المائدة التى حاجَّ القرآن فيها أهل الكتاب فى ادعاءاتهم ، وعنادهم وخلافهم على رسول الله ﷺ وتحريفهم كتبهم ليخفوا أخباره وليشوهوا دينهم لئلا يتبين ما فيه من موافقة لدين الإسلام ومطابقة لعقيدته وأحكامه ، وتعد هذه سمة عامة فى القرآن المدنى بالاضافة إلى امور العقيدة التى تشارك فيها القرآن المكى .

ومن التناسب الظاهر أيضا موقع الخبر عن موسى وعيسى عليهما السلام فى صدر سورة الصف التى تحدثت عن أمرين محددين :

أولهما : الخطاب الموجه إلى المؤمنين الذين خذلوا رسول الله ﷺ يوم أحد[3] .

والثانى : الدعوة إلى الجهاد والثبات فى القتال فى سبيل الله . وقد تأذى النبى ﷺ من هذا السلوك ، فنزل القرآن الكريم يؤنب المؤمنين ، ويتوجه بالخطاب إليهم ، فكان المثل المضروب من قصة موسى وعيسى ما وقع لهما ممن آمن بهما وعرف نبوتهما وما أرسلا به ، من الإيذاء ، هذا فى أول السورة ، أما فى آخرها فجاء حديث الجهاد الذى اتصل مباشرة بحديث

---

(١) الفخر الرازى ١٧٤/٦ .

(٢) النساء : ١٥٣ .

(٣) الكشاف : تفسير سورة الصف ١ – ٤ .

عيسى عليه السلام مع الحواريين ولهذا جاءت طريقة الإخبار فى صورة دعوة إلى التأسى بهم موجهة للمؤمنين اتباع النبى ﷺ ، فى قوله تعالى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله** ﴾ (١) .

ومن عجيب التناسب أيضا ما بين مطلع سورة سبأ المفتتحة بالحمد ، تعليما وتلقينا للمؤمنين صيغة الشكر على نعم الله الجليلة على الناس ، والخبر الوارد عن مملكة سبأ التى سميت السورة باسمها ، وما توجه الخطاب لهم به من الأمر بالشكر : ﴿ **كلوا من رزق ربكم واشكروا له** ﴾ (٢) ، ولأن هذا الشكر لا يكون إلا بعد الاعتراف بربوبية الله تعالى واليقين بأننا مردودون إليه ليحاسبنا على ما قدمنا ، وما فرطنا فى حياتنا الدنيا ، كأن الحديث أيضا فى صدر السورة عن الذين قالوا ﴿ **لا تأتينا الساعة** ﴾ (٣) ، وكان أيضا الحديث عن داود وسليمان وما أنعم الله تعالى به عليهما من جزيل النعم ، وقال لهما ﴿ **اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور** ﴾ (٤) .

فنجد التناسب مرة بالمعنى ومرة بالموضوع ومرة بالحكم ومرة بالعبرة ومرة باللفظ ومرة بالضد والمقابل ومرة بالموازنة والمقارنة ومرة بالموازاة والمحاذاة ، حتى لا نجد قصة مقحمة فى موضعها أو مستكرهة عليه ، أو فيها زيادة على العبرة المطلوبة منها فى موضعها ، وهذا ما سيتبين عند درس ظاهرة الانتقاء فى الحديث فيما يلى من دراستنا هذه .

وتتجلى خصيصة التناسب بين موضوع السورة وموطن الاستشهاد فى

---

(١) الصف : ١٤ .
(٢) سبأ : ١٥ .
(٣) سبأ : ٣ .
(٤) سبأ : ١٣ .

القصة أبلغ التجلى وأكثره إعجازًا على الزمان ، فى صدر سورة الإسراء حيث ذكر المسجد الأقصى ، ثم انتقل منه إلى الحديث عن مفاسد بنى اسرائيل ، ووجه الخطاب إليهم مباشرة ليعلمهم بأنه سوف يبعث عليهم عبادًا يذلونهم ويدخلوا المسجد مرتين لم يشر إلى أولاهما ولكنه فى الثانية قال ﴿ **وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة** ﴾ [1] وهذه هى المعجزة العجيبة هنا التى تكشف عن سر معجز من أسرار القصص القرآنى ، فإغفال ذكر دخول المسجد فى أول مرة يدل على قرب هذا الدخول وأنه من قبيل المسلمات ، وقد كان ، ثم إن فى الآية إخبارًا بأن اليهود سيدخلون المسجد مرة ثانية وقد كان وتلك هى المأساة التى نعيشها الأن ، وفيه أيضا بشارة بأننا سوف ندخل المسجد مرة أخرى بعد ذلك ونطرد اليهود ، بل نذلهم ونقضى عليهم ونستأصل شأفتهم ، وهذه المعجزة المنتظرة آتية لا محالة ، ونسأل الله تعالى أن تكتحل عيوننا بمرأى المسجد الأقصى عندئذ ، فإن لم يكن فأن تمتزج دماؤنا بثرى القدس فى سبيل هذه الغاية الشريفة فى سبيل الله وحرماته . آمين .

كل هذا جاء فى مناسبة ذكر المسجد الأقصى فى هذه السورة المليئة بالمعجزات فى الإخبار عن بنى إسرائيل بالغيب . وهو ما كنا عنه غافلين نسأل الله تعالى أن يرفع عنا الغفلة والمقت ، وأن يرزقنا جهادًا وشهادة ونصرًا حسبة لوجهه الكريم .

---

(١) الإسراء : ٧ .

الفصل الثانى

انتقاء الأحداث
فى القصــة

وتفضى بنا خصيصة التناسب هذه إلى خصيصة اخرى تبرز بجلاء فى القصص القرآنى ، حيث غلبت على هذا القصص صفة الانتقاء فى الأحداث والإضراب عن بعضها جملة وتفصيلا أو بإحالته إلى موضع آخر من السورة أو سورة أخرى ، والعلة الكبرى الكامنة وراء هذه الخصيصة هى علة التناسب السالفة لأن القرآن الكريم ليس كتاب قصص وتسلية ، وليس كتاب تاريخ حتى يأتى بالقصة بحذافيراها كهدف من أهدافه وإنما للقصة وظيفة فى الكتاب الكريم نرجو أن تكون قد تبينت بجلاء فى الصفحات السابقة ، وهذه الوظيفة تقتضى أمرين :

- **أولهما**

عدم بتر السياق والاستغراق فى القصة بما يزيد عن الحاجة ويفسد الموضوع ويصرف السامع عن الغرض الذى جئ بها من أجله .

- **وثانيهما**

أن يركز من أحداث القصة على ما جئ بها شاهدًا عليه ولأجله .

ويستوى فى هذا الأمر القصص الذى يرد فى السور فى معرض الاستشهاد به على قضايا معينة ، والقصص الذى يستغرق سورة كلها أو أكثرها ، والقصص الذى تكرر ذكره أو التعرض له ، والقصص الذى ذكر مرة واحدة ، والقصص التام والقصص المجتزأ ، والخبر القصير ، ويستوى فى هذا القصص الخاص بالأنبياء وأممهم والقصص المتمثل به من غيرهم والقصص المجرد - أى المقطوع عن الزمان والمكان والاشخاص - والقصص الوارد عن عالم الغيب كقصة الخلق ، او الأعراف أو القيامة والحساب والجنة والنار . ففى كل يتم الانتخاب فى الحدث أو الأحداث ، ويتم التركيز فيها والحذف

أبدًا أو التأجيل إلى موضع آخر[1]

ولأن القصة يؤخذ منها فقط ما يقتضيه المقام فإن كثيرًا من قصص القرآن توزع فى مواطن عدة من الكتاب الكريم ، وأكثر هذه القصص انتشارًا فيه قصة موسى عليه السلام مع بنى اسرائيل التى وردت مجمعة ومجزأة فى صورة قصة أو خبر فى حوالى ثلاثين موضعا [2] ، وقصة إبراهيم عليه السلام فى حوالى عشرين موضعا والمسيح عيسى ابن مريم فى حوالى عشرة مواضع ولوط حول هذا ، وهكذا[3] ، وكذلك القصص الوارد عن بدء الخلق ، وعن يوم القيامة وعن الجنة والنار وعن الشيطان وعن الجن توزع فى مواطن من الكتاب الكريم ، وهناك قصص وردت مرة واحدة ولم تتكرر كقصة أصحاب الأعراف [4] وقصة العبد الصالح مع موسى وقصة ذى القرنين وقصة أصحاب الكهف وقصة صاحب الجنتين مع صاحبه [5] وقصة أصحاب الجنة [6] ، ومع هذا لم تخل هذه القصص من الانتقاء والحذف ، وهو ما يثير تساؤلا يجاب عنه ببداهة مطلقة : أنه ليؤكد أن القرآن ليس كتاب قصص ، وليس كتاب تاريخ كما أسلفنا ، وإنما ترد القصة فيه لهدف محدد لا تتجاوزه وهى مع ذلك تتمتع بمقومات فنية وسمات تركيبية وأسلوبية يفتقر إليها أرفع القصص وأكثره فنية وشيوعا وانتشارًا واشتهارًا « وعالمية »

---

(١) تناول سيد قطب هذا الأمر بتوسع فى التصوير الفنى ص١٢٦ وما بعدها فليراجعه من أراد التوسع ، حيث إننا تناولناه هنا من جهة علاقته بموضوعنا الأصلى فقط .

(٢) سيد قطب : التصوير الفنى ص ١٢٧ .

(٣) أكثر المفسرون على أن قصة يوسف لم يرد منها شيء فى غير السورة الكريمة وقد نبهنى الزميل الفاضل محمود هوى إلى خطأ ذلك وعدم دقته ، حيث إن الخبر الوارد عن يوسف فى سورة غافر لا نظير له أو فى معناه فى السورة ولهذا يعد خبرًا مستقلًا .

(٤) سورة الأعراف : ٤٦ - ٤٩ .

(٥) كلها فى سورة الكهف .

(٦) سورة القلم : ١٧ - ٣٢ .

و« خلودا » . وذلك لأنها وردت فى القرآن الكريم المعجز ، فلابد أن تكون كذلك ، ولا غرابة فى أن تكون كذلك !

وقد كانت القصة فى القرآن المكى أطول منها فى القرآن المدنى ، وأكثر احتفالا بالحوادث وأقرب إلى الشكل الفنى للقصة التى تبدأ بمقدمة وتعرُّف وعقدة وحل يؤدى إلى نجاة عناصر الخير وهلاك عناصر الشر المناوئة أو اندحارها ، ثم بدأت القصة تتقلص فى اخريات العهد المكى لأن معظم حوادثها قد ذكرت وباتت معروفة ، فيسهل على السامع استخلاص المغزى وفحوى القصة من إشارة عابرة او ان يؤدى الغرض بعرض موطن الشاهد فى القصة منفصلًا عن سائرها واستمر هذا فى العهد المدنى ، فكانت سمة الانتقاء فيه اكثر منها فى سابقه ، وأكثر قصص القرآن المدنى أقرب إلى الخبر منه إلى القصة ، إلا قليلا منه ورد تامًا كقصة ابنى آدم والغراب [1] وهى مع تمامها ليست قصة تامة الحوادث ، أو قصة فنية بالمعنى التاريخى أو بالمعنى الفنى ، ولكنها خبر تام فيه شيءمن روح القصة .

وليس معنى هذا أن نرتب القصص بحسب ترتيب نزوله وإنما هذه السمة تؤخذ جملة لا تفصيلا ، وإن كان التفصيل فى هذا يوقفنا على معجزة جديدة من معجزات هذا الكتاب ودليل جديد على أنَّه لا يقوله بشر ، وعلى أنه كان فى دنيا الغيب كتابا كاملا حتى نزوله إلى السماء الدنيا جملة ثم بدأ نزوله منجما على النبى ﷺ بحسب ترتيب الحوادث التى سببها الله تعالى شأنه وجل جلاله للنزول .

فقصة موسى عليه السلام إذا رتبت بحسب أولية النزول كان الأسبق منها نزولا إشارات عابرة فى الأعلى (رقم٨) ثم الفجر رقم (١٠) ثم فى النجم

---

(١) المائدة : ٢٧ - ٣١ وهى من أواخر سور القرآن الكريم نزولا .

(٢٣) والبروج(٢٧) .وهذه السور جميعا متأخرة فى الترتيب التوقيفى للمصحف (على الترتيب : ٨٧ –٨٩ –٥٣ –٨٥) وكلها فى السدس الأخير من القرآن . ويأتى التفصيل فيها فى السور التالية نزولا ففى الأعراف ٣٩ وطه ٤٥ والشعراء ٤٧ والقصص ٤٩ والبقرة٨٧ والمائدة ١١٢ ، وهذه السور متقدمة فى الترتيب المصحفى التوقيفى بعكس سابقتها فهى على الترتيب (٧ –٢٠ –٢٦ –٢٨ –٢ –٥)[١] فإذا علمنا أن أكثر ما ورد من أخبار موسى وبنى إسرائيل كان فى هذه السور المتأخرة نزولا وأن المتقدم نزولا فى السابق قد أشار إلى ما فصل فيها إشارة من يعلم الحوادث ويجتزىء بالإشارة إليها كما فى قوله تعالى﴿ **وفرعون ذى الاوتاد** ﴾[٢] أقول : إذا علمنا ذلك ، استدللنا على أن هذا الكتاب كان بلا شك كتابا كاملا مجتمعا قبل أن ينجم فى نزوله على النبى ﷺ ببطحاء مكة وبين لابتى المدينة فليتدبره ذوو العقول !

وكما يعترى الانتقاء أى نمط من انماط القصص سالفة الذكر يعتريه أيضا الحذف سواء منه ما كان حذفا انتقائيا وما كان انتقاليا ، وما كان أسلوبيا على النحو الذى سيرد فى لب دراستنا فيما بعد ، ولا ينبغى أن يخلو المقام هنا من التنبيه عليه .

أما العلة فى الانتقاء فى كل موضع فإنها تظهر فى الغالب مع المقام الذى ترد فيه القصة ، وقد تخفى علينا ويعرفها غيرنا كما خفى بعضها على غيرنا وتبين لنا ، « وفوق كل ذى علم عليم » ! ،

يظهر السبب جليا فى المواطن التى فيها استشهاد بجزئية من القصة ، وعلى ما وصفنا فى المبحث السابق ومثلنا ، ويخفى فى القصص الطويل ويختفى إلى

---

(١) انظر ترتيب ذلك مفصلًا فى : التصوير الفنى فى القرآن ص ١٢٧ – ١٣٢ .
(٢) الفجر : ١٠ .

حدِّ العماءفى القصص الذى يستغرق سورة بأكملها ، وأكثر المفسرين اغفلوا ذكر مواطن الانتقاء والحذف وبالتالى لم يعللوا لها على كثرتها والذى تعرض منهم لشيءمن ذلك كانت العلة عنده واحدة ، وهى الإيجاز وتجنب التكرار ، أو تجنب ذكر ما هو معلوم بالضرورة ويفهم بالتدبر !

ولكن التدبر فى علة الانتقاء فى الحدث لابد أن يدعونا لنتوقف عندها طويلا ونتدارسها قبل أن نضع فوقها لافتة (الايجاز) ، وهل حذف سطرين من قصة يوسف التى استغرقت خمس عشرة صحيفة . يعد إيجازًا ؟ بل قصة يوسف هذه لو كتبها بشر لاستغرقت منه مئات الصحائف ، ولكن الحكيم أوجزها وأتمها فى هذا العدد القليل ، هذا الإيجاز ، والذى ظهر أثره تحت كل حرف منها وكل كلمة وبين كل كلمتين وجملتين ، فما له ترك هذين السطرين المليئين بالايجاز إلى سورة أخرى (غافر] ؟ ! لابد أن هناك سببا آخر غير علة الإيجاز يكمن وراء هذا الانتقاء ، ولابد أيضا أنه سبب فنى عجيب !

إن الناظر فى سورة يوسف يرى فيها أخبارًا كثيرة عن هذا النبى سلكت فى سلك قصة تامة الأطراف تأخذ بالألباب وتجتذب القلوب ، ولكنها لم تتضمن خبرًا واحدًا عن نبوته أو أنه أرسل إلى قوم أو أمة من الأمم ، ولقد اتسع المقام والسياق فى السورة لأوصاف عدة ليوسف منها قوله تعالى ﴿ **وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق** ﴾[١] . فهنا أوصاف : الاجتباء والتعليم وتمام النعمة ، فأما الاجتباء فليس من معانيه النبوة ، وإن كان وصف به كثير من الأنبياء على معنى الاصطفاء[٢] فى

---

(١) يوسف : ٦ .

(٢) اللسان : جبى .

القرآن الكريم ، فقد وصف به غيرهم أيضا ، كما فى قوله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم** ﴾[١] فالاجتباء صفة قد تطلق على الأنبياء وغيرهم ممن يهديهم الله إليه ويصطفيهم لنفسه ﴿ **الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب** ﴾[٢] . أما التعليم فهو مخصوص هنا بتأويل الأحاديث ، وتمام النعمة أيضا يكون للمؤمنين عامة كما فى قوله تعالى ﴿ **واتممت عليكم نعمتى** ﴾[٣] أى دينى [٤] ، والخطاب موجه إلى أمة الإسلام جمعاء .

وفى قوله تعالى ﴿ **وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا** ﴾[٥] ليس الوحى مقصورًا على النبوة ، بل قد يتعداها إلى سائر البشر كما فى قوله تعالى ﴿ **إذ أوحينا إلى أمك** ﴾[٦] ويتعدى إلى غيرهم من المخلوقات أيضا كما فى قوله تعالى ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل** ﴾[٧] . وفى قوله تعالى ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث** ﴾[٨] ، أيضا ليس التمكين مقصورًا على الأنبياء بل يتعداهم حتى إلى الكافرين ، انظر ذلك فى قوله تعالى ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض** ﴾[٩] .

---

(١) الحج : ٧٧ – ٧٨ .
(٢) الشورى : ١٣ .
(٣) المائدة : ٣ .
(٤) الكشاف : ١/٥؛٦ .
(٥) يوسف : ١٥ .
(٦) طه : ٣٨ .
(٧) النحل : ٦٨ .
(٨) يوسف : ٧١ .
(٩) الأنعام : ٦ .

أما قوله تعالى ﴿ **ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما** ﴾ (١) فليس الحكم أيضا بمعنى النبوة وان ذهب بعضهم إلى تفسيره بذلك ، وإلا لما قال الله تعالى ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة** ﴾ (٢) فالعطف كما نعلم يقتضى المغايرة فإن كان الكتاب دليل الرسالة قبلها ، والنبوة بعدها ، فالحكمة والحكم شيءآخر(٣) . ومع هذا فهذا الموضع أكثرها إيحاء بما اختار الله تعالى نبيه يوسف لأجله ولم يصرح به فى السورة أكثر من ذلك ، حتى فى الموضع الذى اختار فيه يوسف عليه السلام أن يجهر بدعوته إلى الله تعالى لم يكن إلا فتيان معه فى سجن مغلق ، لم يقل لهما إنه نبى أو رسول أرسله الله لهداية الناس وأنما تحدث عن نفسه قائلا : ﴿ **إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى . إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالأخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبآئى ابراهيم وإسحق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيءذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ (٤) . وهذا هو الموقف الوحيد الذى دعا يوسف فيه إلى ربه فى هذه القصة الطويلة حتى إنه لما خاطب الملك لم يدعه إلى عبادة إله واحد ولم يخبره بأنه نبى بل قال له ﴿ **اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾ (٥) ويعقب رب العزة على ذلك بقوله تعالى ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الأخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ (٦) ويقول تعالى : ﴿ **وكذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه**

---

(١) يوسف : ٢٢ .
(٢) آل عمران : ٧٩ .
(٣) قال الزمخشرى : السنة – الكشاف ١/ ٣٧٨ .
(٤) يوسف : ٣٦ – ٣٧ .
(٥) يوسف : ٥٥ .
(٦) يوسف : ٥٦ – ٥٧ .

في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ﴾ [1] ويقول يوسف معرفًا إخوته بنفسه ﴿ **أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ [2] ورد عليه إخوته قائلين ﴿ **تالله لقد آثرك الله علينا** ﴾ [3] ، وفى ختام القصة نجد يوسف فى مقام الشكر يعدد نعمة الله عليه قائلا : ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والأخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** ﴾ [4] . ففى كل هذه المواضع لم يرد ذكر النبوة أو الدعوة وإنما كلها أوصاف عامة ، ومثل هذا يصدق على يعقوب نفسه الذى وصف بالأب ، ولم يوصف بالنبوة ، ولهذا نعود إلى السؤال لماذا لم يتسع المقام فى السورة لقوله تعالى ﴿ **ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا** ﴾ [5] وهو القول الذى ورد فى قصة موسى على لسان الرجل المؤمن من آل فرعون الذى خاطب قومه مذكرًا إياهم بمصائر الأمم من غيرهم ثم ذكرهم بما جاءهم به يوسف بهذه الآية الكريمة .

هنا نجد أنفسنا امام موضعين من قصتين : أولاهما قصة يوسف التى لم يرد فيها الخبر ، وهو عن يوسف ، بل خلت كما بينا من كل إشارة إليه ، والثانى فى قصة موسى مع فرعون التى يرد فيها الخبر ، فالعلة التى جعلت الأولى خلوًا منه وجعلت الثانية أولى به ، هى فصل الخطاب فى خصيصة الانتقاء ! ولهذا اخترناه دون غيره من كثيرٍ بين أيدينا .

---

(١) يوسف : ٧٦ .

(٢) يوسف : ٩٠ .

(٣) يوسف : ٩١ .

(٤) يوسف : ١٠١ .

(٥) غافر : ٣٤ .

نرى قصة يوسف قصة مأساة أب وابنه فرقت بينهما الأحقاد ، فعانى الأب مرارة الفقد والاشفاق على مصير الابن ، وعانى ولده مِحَنًا ذاق فيها ذل العبودية ومرارة السجن ، ونراها تبين مدى لطف الله تعالى بالصالحين والمخلصين والصابرين من عباده ، ولهذا تختلف هذه القصة عن سائر قصص الانبياء بأنها قد ركزت على البعد الذاتى العاطفى بما فيه من جوانب انسانية وتجلى ذلك فى الشخصيتين المحوريتين الاساسيتين فيها وهما الأب وابنه : يعقوب ويوسف . أما قصص الأنبياء من غيرها فإنه يركز على جانب الدعوة والصراع بين النبى صاحب الدعوة والأمة التى يدعوها[1] ، فالمجال فيها يتسع لما لا يتسع له مثل قصة يوسف من الدعوة والنصح والأرشاد والتقويم والتشريع والفصل فى أمور الدين والدنيا ، بعكس القصص الإنسانى الذى يركز على الجوانب النفسية والعاطفية من حياة البشر ويتسع أيضا من هذا لما لا يتسع له سابقه .

يضاف إلى ذلك أن القصة زاخرة بالمشاهد والأحداث ذات الإيقاع السريع فى أحداثه الإنسانية ولا سيما فى الناحية الشعورية باستثناء موقف واحد اتسع للدعوة وهو مشهد السجن ، وهو فرصة اغتنمها يوسف و لم تفته .

والآية التى فى قصة موسى تنص على أمور :

–أن يوسف قد أرسل ، وأنه أرسل إلى المصريين .

---

(١) لا يردن أحد هذا القول بأن بعض قصص الأنبياء تعرض لمثل هذه الجوانب كما فى قصة نوح مع ولده الكافر ، ومع زوجته ، وكذلك لوط مع زوجته ، وزواج موسى ، وقصة سليمان وملكة سبأ ، فكل هذه كانت أمورًا جانبية فى قصص الأنبياء أريد بها بيان ما يلقونه من المشاق فى دعوتهم وما يمن الله عليهم من جزاء الصبر والإخلاص فى الدعوة وفى العبادة . أما قصة يوسف فقد توفرت على الجانب الإنسانى كما بيَّنا .

-أنهم لم يصدقوه ، وأيضا لم يكذبوه بل كانوا (فى شك)

-أنه قد مات بين ظهرانيهم .

-أن وقع موته عليهم كان أليما ومثيرًا للندم على ما فرطوا فى حقه واعنتوه به .

ودلالة الآية على وقوع صراع كصراعات الأنبياء ومجاهدتهم فى سبيل الدعوة قليلة ، إذا فليس فى الأمر ما يؤلف أطراف قصة مستقلة تنهض بنفسها ولو كطرف من أطراف قصة إبراهيم أو قصة موسى التى انفرد كل طرف منها أو مجموعة أطراف بموضع من القرآن شكلت فيه قصة كاملة أو شبه كاملة . وليس فى الأمر أيضا ما يدعو إلى اقحام قصة الدعوة فى قصة يوسف ولو كحدث جانبى يتوازن مع حدثها الأصلى بأكثر مما كان فى حال سجنه أما الموضع الذى يتناسب مع هذه الآية من سورة يوسف فأحد موضعين :

الأول : أن يستغل يوسف موقعه من نفس الملك وهو فى سَوْرَة الإعجاب به وبقدرته على تأويل الأحاديث وبخلقه القويم ، وبهيأته الآسرة ، ويجهر بين يديه بدعوته .

الثانى : يوم قال يوسف وهو على العرش : ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث** ﴾ [1] وهو آنذاك متمكن مطاع .

أما قبل الأول فقد كان يوسف عبدًا ثم مسجونا فليس معقولًا وهو فى المحن والظلمات أن يزيدها لتصبح محنا فوق المحن أو ظلمات بعضها فوق بعض !

وأما عند نقطة الانقلاب فى القصة وهى الموضع الأول يوم كلم الملك

---

(١) يوسف : ١٠١ .

ووصفه الملك « بالمكين الأمين » فمن يدرى لعله لو فعل ذلك ، لكان للقصة مجرى آخر غير هذا وعودة إلى السجن أو قتل وبهذا تضيع الفرصة على يوسف ليتمكن فى الأرض ويثبت أقدامه فى مقابل اتهام بقلب نظام الحكم أو ما شابه ذلك ، وما أدراك ما السلطان ! ولهذا يستحيل أن يفعل ذلك فى مثل هذا المقام ، وبالتالى لم يذكره القرآن .

وأما فى المرحلة التالية لهذا إلى ما قبل المشهد الأخير ، فلسنا نشك فى أن يوسف عليه السلام كان يدعو إلى الله تعالى بالحسنى ولكن الزمن زمن قحط ومجاعة من جهة ، والأحداث التى ركزت عليها القصة تركت طرفا كبيرًا منها ، وهو مرحلة السنوات السبع الأولى من ولاية يوسف قبل زمن القحط ، وعلة الحذف الانتقائى فيها تكمن فى أنها لو شغلت بما وقع فيها من أحداث لانقطع السياق وتواصل أحداث القصة الأصلية ، ولهذا انتقلت القصة مباشرة من الحدث الساخن الذى تكلل بخروجه من السجن وتوليه الأمر ، إلى أحداث أخرى ساخنة متعاقبة بدأت بمجىء إخوته الذين دفعهم القحط إلى اتباع القوافل إلى مصر طلبا لخيرات عزيزها المدبر الذى تسامعت أخبارَهُ البلادُ قاصيها ودانيها . فلا مجال فى كل ذلك لقطع القصة بأحداث الدعوة التى توارت كهدف مباشر من أهداف السورة ، توارت خلف أهدافها المباشرة التى ذكرناها .

أما المشهد الأخير من القصة فى السورة فهو مفعم بالإثارة والمهابة وبه استراحت النفوس ووصلت إلى بر أمان شفاها من آلام الإشفاق على طرفى القصة : الاب وابنه ، بل وصلت إلى قمة النشوة فرحًا بهذه النهاية ، فليس من الحكمة والحال هذه أن يثار عنصر صراع جديد تنتكس بسببه مشاعر السامعين وتفقد شيئا من طمأنينتها إلى نصر الله وعدالة السماء ، فالقصة على هذا النحو أبلغ فى التأثير ليس فقط من الناحية الفنية والإنسانية ، بل من الناحية الدينية أيضا لأنها تهدى النفوس إلى قيم دينية كثيرة ، منها : الصبر

والتسليم بقضاء الله ، والثقة بنصره وتأييده لعباده المخلصين ، والصدق ، والأمانة والعمل وعدم التواكل ، وغير ذلك .

أما القصة الأخرى التى وردت فيها الآية موضع البحث ، فهى تدور بعد يوسف بزمن ، ولكنها تدور على الأرض التى عاش فيها يوسف وفى البلاط الذى وطئه يوسف ، وفى موقف يحتدم فيه الصراع الموصوف آنفا : صراع الدعاة مع المكذبين ، وتتعالى فيه الصيحات من فرعون واتباعه ومَنْ يراءونه ؛ بالفتك برسولى رب العالمين ومن تبعهما ، وهنا يأتى صوت العقل من رجل من آل فرعون آمن ولكنه كتم إيمانه ، فجاء كلامه كأنه نتيجة تفكير منطقى لا من نتيجة إيمان ، وهذا أشد تأثيرًا فى الكفار ، لأن صوت الإيمان لو كان أوفر تأثيرًا عندهم من صوت العقل لكان موسى أولى الناس بالتصديق والاتباع .

فكان مما خاطبهم به قوله ﴿ **وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم** ﴾ (١) ثم بدأ الرجل يخوفهم من أن يصابوا بما وعدهم موسى ويذكر لهم نظائر من الأمم الأخرى ثم ذكرهم بيوسف وشكهم فى دعوته وندمهم على موقفهم منه بعد فوات الأوان ، ثم جاءت الفاصلة التى ختم بها كلامه عن يوسف بمثابة التأنيب لهم على موقفهم من موسى الذى يشبه موقف أسلافهم من يوسف ﴿ **كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب** ﴾ (٢) .

من هذا يتبين مدى اقتضاء المقام لهذه الآية فى الموضع الذى وضعها الله تعالى فيه ، والسبب الذى من أجله ترك ذكرها فى سورة يوسف وقصته وبها يتبين أن صفة الانتقاء فى القصة القرآنية هى الذروة العليا التى يتمنى أن يبلغ الأدباء بعضها فى دقتها وحسنها وبلاغتها واعجازها .

---

(١) غافر : ٢٨ .

(٢) غافر : ٣٤ .

الفصل الثالث

التكرار

تحدث غير واحد من العلماء القدامى والمحدثين عن هذه الظاهرة وأكثرهم يحاول أن يدفع شبهة التكرار ، وكأنها عيب من العيوب ينبغى نفيه عن القرآن وتبرئته منه !

والذى يصنع هذا الصنيع ويجتهد هذا الاجتهاد حسن النية ، أخطأ الطريق ولم يصب الحقيقة ، وهو عموما خير ممن عاب القرآن بهذه الصفة وجعلها وصمة ، ولكنهما فى النهاية يلتقيان من حيث لا يحتسب أى منهما ، وهما فى الأصل طرفا نقيض ، يلتقيان لأن صاحبنا مهما اجتهد فإنه لا يستطيع بحال أن ينفى وقوع ظاهرة التكرار فى القرآن .

ولو أن هذا الجمع من العلماء لم يتعصب بما يعميه عن الحق لهان عليه الخطب ، لأنه من حيث لا يدرى يؤمِّنُ على كل فكرة أو قضية يطرحها نده ويسلم له بسلامة مقدماته ولكنه يدفع ببطلان نتائجه ، وأنى له ذلك ؟ إن النتائج الخاطئة هى نتيجة لمقدمات خاطئة بالتأكيد .

وهل يمكن أن يأتينى رجل ويقول لى لا عيب فيك الا أنك ذو عينين ! أو لا عيب فيك إلا أنك تفكر ! فيسوؤنى هذا إلى حد أن أدافع عن نفسى قائلا : والله ما أنا بذى عينين ، ومن أدراك أننى أفكر ! ! وقد أتعصب إلى حد أن أهمَّ بفقأ إحدى عينيَّ لكى أبرأ مما سلَّمت لخصمى بأنه من العيوب ، وهو فى الحقيقة ليس من العيوب فى شئ .

إن أبسط وسائل دفع أمثال هؤلاء هى أن تربت على كتفه وتصرفه كما يصرف الأطفال ، أطفال الفكر من أمثاله ، لا أن يدفعك التعصب والحمية إلى فقد التوازن وفقد القدرة على التفكير وتبين الأشياء .

وهنا : من يسلم بأن التكرار عيب مطلقًا ؟ هل التكرار بخلق كثير من

الذكور بين البشر يعد عيبا ؟ وهل خلق كثير من الأناث تكرار معيب ؟ وهل تكرار دورات الأرض التى تسمى (أياما) عيب ؟ وهل تكرار أى شيءعيب ؟

إن المسلمات لا تحتاج إلى جواب ، ولكن لنتوغل فيما هو أهم : هناك تكرار مطلقا وهو صفة من الثوابت فى هذا الكون ، وهناك نوع من التكرار يكون معيبا ، فمتى يكون ذلك ؟

قد نمل الأيام والشهور والسنين ، فنعيبها ، ولا يعيبها غيرنا ، فهذا أمر نسبى ، ولكن المطلق فيه ليس العيب بالتأكيد ، وإنما المحمود منها أكثر مما يعاب على أقل تقدير .

وكذلك الكلام والمعانى والصور والعواطف ، وسائر الفنون . فيها ما يعاب وفيها ما لا يعاب إذا تكرر . ولكن من الخطأ أن نسلم بأن التكرار عيب .

فأى تكرار هذا الذى يعيبونه وندفع عنه تلك الشبهة ؟ تكرار الألفاظ أم تكرار الأساليب أم تكرار المعانى والموضوعات والقصص ؟

وفى القرآن الكريم تكرار من جميع هذه الوجوه ، وهذه فى نظرنا من مزاياه ، بل من ضروب إعجازه .

إن المخطيءالذى يتهم ويثير الشبهات معذور لأنه لا يقدر القرآن حق قدره ، ويتعامل معه على أنه مجرد كتاب ، حتى وإن عجز عن تصنيفه ، وإدراجه فى أبسط صور الأجناس الأدبية : الشعر ، والنثر ، فقال : الكلام شعر ونثر وقرآن[1] .

---

(١) سيد قطب : التصوير الفنى ٨٥ . وفيه يرد على طه حسين صاحب هذه المقولة .

ولكن المخطىءمنا نحن اتباع القرآن ليس معذورًا إذا هو عجز عن تصنيف القرآن ، وجهل أن الكلام ضربان لا ثلاثة وأنه لابد أن يصنف القرآن فى أحد هذين الضربين وقد قال منزله إنه ليس شعرًا وعلمنا بمقاييسنا أنه ليس شعرًا ، فهو إذا نثر ونثر ونثر ، ولا يعيبه ذلك بل هو وجه رفيع الذرى من وجوه إعجاز هذا الكتاب العجيب ، فإذا نحن استرحنا إلى الحقائق قلّت متاعبنا وبدأنا بعد ذلك فى البحث فى وجوه اختلاف هذا الكتاب النثرى عن سائر ضروب النثر الأخرى ، وما امتاز به على الشعر الذى هو أرفع فنون الكلمة وبهذا صار معجزا ، وعندئذ سنعلم أن القرآن الكريم كتاب نثر ، ذو طبيعة خاصة وليس من قول البشر .

ليس اختلاف القرآن عن كلام الناس نابعا من أنه ليس شعرًا ولا نثرًا ، وانما منبعه شيء آخر : يتحدد بأصله ومَنْشئه ويتحدد بالوظيفة التى انزل من اجلها .

أما الأصل والمنشأ فنحن نعلم أن القرآن كلام الله ، وليس من كلام البشر ، وإن جاء على لغة بشرية واستعمل أساليبها ليفهمه البشر ، فإن القائل ليس هو البشر ، وهو الطرف الأصيل فى عملية التخاطب والتفاهم ، هذا فرق .

أما بحسب الوظيفة ، فإن القرآن لم ينزل ليكون كتاب فلسفة إن لم يفهمه قارئه طرحه ومضى ، أو كتاب قصص ومسامرات إن مال إليه امرؤ قرأه وإن ملَّه طرحه ! ، إنما القرآن كتاب أُنزل من السماء وهو يحمل الدليل على صدق نبوّة نبيٍّ ليتم ذلك لكل البشر أولًا على سبيل الإقناع ، فإذا اقتنعوا التزموا به ، وعملوا بما فيه أمرًا كان أو نهيا ، فصار دستورًا ، فهل يتوقع من كتاب هذا شأنه أن يلقى إليك الحقيقة مرسلة ويمضى ، ولا سيما ان روح العناد والعنت والتكذيب بين البشر على ما هى عليه من عتو وتحكم ،

ولا سيما أيضا أنه يأمر بالإيمان بمغيبات لا تدخل فى نطاق الحواس المادية التى يتعامل من خلالها السواد الأعظم من البشر ! !

هل مثل ما تناوله القرآن من المسائل تكفى فيه المرة دون رجعة أو كرة ، إن الواحد منا إذا أراد أن يوصى ولده بالجد والمثابرة فى استذكار دروسه أو فى عمله يكرر عليه كلامه فى كل يوم وربما فى كل لقاء ولو كان كل ساعة ، وهذا من الأمور التى قد تدخل فى نطاق المعقولات الحسية ، فكيف بأمر كهذا فى خطره وعظم شأنه ، ويعيبون عليه التكرار ، لا . .ليس التكرار فى القرآن معيبا بحال ، بل هكذا ينبغى ان يكون ، وهكذا الشأن فيما يرجى له النُّجْح من الأمور .

ولسنا نتصور كيف يمكن أن يمر رجل على جماعة وهم يعكفون على صنم لهم وقد أرسل اليهم ليهديهم إلى عبادة الله الواحد ، فيقول لهم : إلهكم إله واحد فاعبدوه ! ويولى تاركا إياهم وصنمهم ! ! أهكذا تدعى الأمم الجاحدة المنكرة الغارقة فى الجهالة والضلال ؟ ! ، أم أن الدعوة تكرر المرة تلو المرة وتدعم بالحجة التى تقنع بعض القوم فى المرة الأولى فإذا زيدت ايضاحًا فى المرة التالية اقنعت عددًا آخر ، فإذا جىءبها مع المثل المضروب أو الحكمة البالغة أو التحذير من العذاب وغيرها من طرائق القرآن كانت أقرب إلى القبول . . . هكذا ينبغى ان يكون ، ولهذا وجب أن يكون فى القرآن تكرار .

أن هذا الكتاب لا ينبغى أن نطبق عليه مقاييس نقد النصوص والكتب بمقدار ما نستقى منه القواعد التى بها ننقد غيره من النصوص والكتب ، وعندها سندلف إلى عالم جديد من الدراسات الأدبية نجد أنفسنا فيها ننظر فى الكتاب الكريم لمتابعة الظاهرة اللغوية ونحيط بأقطارها كما وردت فيه ثم نعلم الناس كيف يستعملونها فى كلامهم وكتاباتهم وينقدون كتابات غيرهم

وكلامهم على أساسها . ويومها سننظر فى القرآن لنرى ما فيه من تكرار ونتعلم منه متى يجب علينا أن نكرر موضوعا أو لفظة او أسلوبا ، ومتى ندع ذلك . وعندها سنهدأ ونطمئن ولا نلقى بالًا للصغار الذين يلعبون تحت موائدنا العامرة ويلتقطون الفتات ويقذفون به بعضهم ونحن عنهم لاهون أو بهم متلهون .

إنما مثل القرآن ومن يخاطبهم من البشر كمثل الواحد منا ومن استرعى فيهم من اهله أو مرءوسيه او طلاب علمه !

نجد الوالد يمسك بأذن ولده أو يده ، يلقى عليه درسًا يذكره فيه بالصواب والخطأ أو يذكره بأفضاله عليه وما ضحى به من أجله وعقب كل جملة من كلامه ، يتوجه إليه سائلًا مبكتا مقررًا إياه : أتنكر هذا ! أتنكر هذا ! ، وتتكرر عبارته عقب كل جملة دون ان ينتظر الجواب[1] أليس هذا الموقف عين ما جرى فى سورة الرحمن من تقرير استدعى التكرير للسؤال نفسه عقيب كل نعمة عدها الله تعالى مذكرًا بها عتاة خلقه ومنكرى نعمائه وفضله من الإنس والجن بقوله : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ التى تكررت إحدى وثلاثين مرة فى سورة الرحمن .

من الذى يجرؤ على أنكار أن هذا من قبل التكرار إلا المسىءالذى يركب الصعب ؟ ، وماذا عليه لو أقر بأنه من التكرار ، وهو الحق ثم بحث عن العلة فيه ، وهى منقبة تحسب لبلاغة القرآن لا عليها !

وبهذا الأسلوب يمكن أن نكتشف أسرار التكرار المشابه لهذا فى سورة

---

(١) سبق محمد قطب إلى تفسير الظاهرة بمثل هذا ، للحاجة إليه فى التربية والتوجيه لما له من تأثير وجدانى فريد ، غير أنه حاول دفع شبهة التكرار باللفظ والمعنى زاعمًا أنه قليل جدًا ، أما فى القصص فأخذ يعرض منه ما يؤكد على التنويع فيه وانتهى إلى أن التنويع لا التكرار هو الظاهرة الحقيقية فى القرآن ، وجعلها من الإعجاز لما لها من أثر فى التذكير والتربية والتوجيه . (دراسات قرآنية ص٢٤٤ - ٢٤٨ : ٢٥٦ - ٢٦١) .

القمر وسورة المرسلات ، وأسرار الأنواع الأخرى من التكرار التى تعرض لبعضها النحويون والبلاغيون ، كالذى فى القيامة والحاقة والقارعة ، وكذلك تكرار الحروف كألف لام ميم وألف لام راء والحواميم وتكرار بعض المطالع، وتكرار آية كلها او أكثر الفاظها فى موضعين من سورتين أو من سورة [1] أو غير ذلك وهو كثير .

أما إذا تعلق الأمر بتكرار المعنى ، وهو أوغل فى موضوعنا ، فلا شك أننا واجدون له من العلل الظاهرة والخفية ما يغنينا عن ان نغمض أعيننا مدعين أن القرآن خلو من التكرار ، والتسليم بالادعاء بأن كل تكرار معيب ! !

إن للقرآن غاية محددة ذكرناها فى صدر هذه الدراسة ، ولقد اكد القرآن على هذه الغاية فى كل سورة من سوره ، المرة تلو المرة وبطرق معينة معدودة ، تكررت الواحدة منها غير مرة ، فكثير من الطوال من سوره مثلًا يُذَكِّرُ فى مطالعه بأن تلك آيات الكتاب ، وان هذا هو القرآن يتلى عليك يا محمد أو عليكم أيها الناس أو أيها المؤمنون ، أليس هذا تكرارًا على معنى مقصود بعينه ليؤكد للناس على حقائق معينة تتعلق بهذا الكتاب ؟ ، وهل لو أكتفى بتقديمه مرة واحدة فى صدر اول سورة من سوره يشفى ويغنى ؟ ؟

إن هذا الكتاب دستور ، وهو من السعة بحيث لا يحيط به من اقطاره بشر « ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ﴾ » فعامة البشر إنما

---

(١) كما فى : يونس ٤٨ ، الأنبياء ٣٨ ، النمل ٧١ ، سبأ ٢٩ ، يس ٤٨ ، الملك ٢٥ ، وكما فى آل عمران ١٠ ، ١١٦ . وقد وقد تعقبت المكرر والمتشابه أكثر من دراسة بالتعليل والتفسير والتأويل ، أقربها كتاب البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرمانى ، الذى نشره محققه بعنوان : أسرار التكرار فى القرآن – عبد القادر أحمد عطا – دار الاعتصام – ط ٣ ١٣٩٨م .

يتدبرون بعضا منه ، ولكلٍ ما يكفيه ، فالقضية الواحدة تقدم لأنواع مختلفة متابينة من البشر فى أزمانهم وأماكنهم ولغاتهم وعاداتهم وطبائهم ، وصنائعهم وعلومهم وغير ذلك ، فكل مَّرةٍ تُذْكر فيها الحقيقة الواحدة تعلل بعلة مختلفة أو تساق بأسلوب مختلف او يزاد عليها او ينقص منها ، ولهذا يجد المتفرغ لدراسة القرآن تكرارًا فى الموضوعات والمعانى ويتبين لبعض الدارسين وجه الخلاف والفروق بين هذه المعانى ويدرك ما تكرر منها للتوكيد ، وما تكرر للتكميل ، وما تكرر للإجمال وما تكرر للتفصيل ، وأثر العلة والمقام فى كل موضع منها . ولكن عامة المسلمين يأخذ كل منهم هذا الموضوع أو تلك الحقيقة أو القضية من جانبه الذى يناسبه ويرتاح له . فكان ذلك التكرار لأن الإسلام دين سائر البشر ، وغير البشر ، والقرآن دستورهم جميعا إلى أن تقوم الساعة وليس خاصا بجماعة معينة متجانسة فى كل شيء ، ومع هذا فإننا نجد لهذا التكرار أسبابا أكثر من ذلك ، ومنها أسباب تناسب كل موضع وكل مقام وتنبع من مقتضى هذا المقام ، وسيتبين لنا كثير من ذلك فى عرضنا للتكرار فى القصة القرآنية التى هى محل دراستنا .

والقصة كسائر موضوعات القرآن الكريم موظفة لتحقيق الغاية التى من أجلها نزل الكتاب وهى خاضعة لمقتضيات هذه الغاية ، ومنها أو على رأسها أن القرآن يخاطب أنماطًا مختلفة من الناس ، وأن السياق والمقام الذى يستدعى القصة يملى عليها أن تناسبه كما بينا آنفًا وأن يتحقق فيها عنصر الانتقاء ومعلوم أن المقام دائما خاضع لغاية الكتاب الكريم ، وقد تتكرر المقامات أو تتشابه لتستدعى بالتالى القصة كمثال أو عبرة ، أو خبرًا منها ، أو طرفًا على الأقل ليؤدى هذا الغرض ، وهنا تجيء القصة مناسبة للمقام الجديد ، بصورة تلائم هذا المقام[1] ، وسنجد أن بعض المواقف والمشاهد التى تكررت قد تكررت

---

(١) التصوير الفنى ص ١٢٦ .

معها ظاهرة الحذف التى سنتوسع فى دراستها ، وكان هذا الحذف فى الوضع ذاته وبالطريقة ذاتها مما يؤكد على أن التكرار مقصود لذاته وطريقته مقصودة لذاتها معنى وأسلوبا ، وليس لنا أن نحاول إخفاء ذلك[1] ، فهو ليس عيبًا ولكن علينا أن ندرسه وأن نفيد منه ، فدراسة الظاهرة بتأن ودون خوف ، وبيقين بأن حامل القرآن إلينا لا ينطق عن الهوى ، سيضاعف من إيماننا ، وأيضًا من حجم فائدتنا من أساليب القرآن المعجز وطرائقه . ونحن نسلم مع سيد قطب بان أكثر ما ورد من القصص فى القرآن ليس مكررًا بقدر ما هو متكامل ، ولكن لا ننفى وجود هذا المكرر ، ولا نخشاه ، وكيف نخاف من تكرار مشهد من قصة فى موضع آخر ، ونحن نقرأ فى الفن القصصى والمسرحى فى النص الواحد منها عشرات المكررات والحشو فى القول والوصف حتى يتضخم حجم العمل منها إلى أضعاف ما ينبغى أن يكون عليه ، وهم يقدمون على هذا بدعوى التحليل النفسى ، والدقة فى الوصف ، والله يعلم أن كلمة جامعة فى سطرين من كلام الله تعالى أبلغ فى الوصف من عشرات من صفحاتهم ، وأقدر على التحليل . هذا بالإضافة إلى ما بينا من بون شاسع بين أهداف الأدب وغايات القرآن الكريم ومقاصده .

---

(١) عقد عبد الكريم الخطيب فصولًا عدة فى كتبه لبحث ظاهرة التكرار ، وتشدد فى إنكارها فى مواضع ، وأقرَّبها وعلل لها ، فى مواضع أخرى ، ودرس نماذج من القصص القرآنى ليتوصل به إلى أنه لا تكرار إلا فى ظاهر الأمر ، وأن التعمق يدل على استقلال كل موضع بحادثة ، ونراه يضطرب فى بعض المواضع ، ولا سيما عند الرد على أصحاب الآراء الأخرى ومثيرى الشبهات حول ظاهرة التكرار . انظر : القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه ص ٤٥ – ٤٦ ، ٦٨ ، ٢٣٨ : ٣٣٩ .

وانظر كتابيه : إعجاز القرآن ، ومن قضايا القرآن ، حيث عقد فصولًا لبحث هذه الظاهرة وقد حاول كل من سيد قطب (التصوير الفنى ص ١٣١ – ١٣٢) وبكرى شيخ أمين (التعبير الفنى فى القرآن) أن يهونا من شأن هذه الظاهرة ، والأخير نفاها .

وظاهرة تعدد مرات ورود القصة الواحدة فى القرآن يصاحبها تكرار فى بعض جزئيات هذه القصة ، كما ينجم عنها أيضًا تكامل بعض القصة مع بعض ، فهل كان التكرار بغرض الإكمال من مقاصد القرآن ؟ وهل لو كان الآمر كذلك يكون كل قصص القرآن تاما لم يحذف منه شيء ، وهل لو كان فى قصص القرآن حذف وانتفاء يكون ذكر المحذوف أولى من تكرار ما تكرر ، ولو كان إتمام القصة من مقاصد القرآن أكان من الأولى أن تذكر القصة تامة دفعة واحدة ؟ ؟

لقد حفل القرآن من الظواهر فى قصصه بما يؤيد كل أمر من هذه وبما ينفيه فى آن حيث ورد التكرار بقصد الإكمال فى بعض قصصه كقصة آدم وقصة نوح وقصة إبراهيم وقصة موسى ، ومنه ما تمم بعضه بعضا ومنه ما لم يتم للاقتصار على ما ورد منه لموافقته لمقاصد التشريع ولأن المحذوف معلوم أو معقول بالضرورة ، وليس فى هذا المحذوف ما هو أولى بالذكر مما تكرر ، بل إن ما حذف كان مجالًا خصبًا للنشاط العقلى الإنسانى فى الاجتهاد فى التأويل فيثبت من أيده الله بالثبات ويؤول بما يمليه عليه إيمانه أو يقتنع من التأويلات بما يمليه عليه هذا الإيمان ، ويرد ما عدا ذلك من الافتراءات والإسرائيليات ، أما من كان فى قلبه شك أو يعبد الله على حرف فهو الذى يهوى فى مهاوى الضلال ، ولا يركن أبدًا إلى شيء يطمئن به قلبه .

أما القصة التامة أو شبة التامة فقد وردت أيضًا فيه ويظن بعض العلماء أنها لم يؤخذ منها حلقة واحدة لتذكر فى موطن آخر ، وهى قصة يوسف التى سبق التعرض لها .

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يحفل بضروب مختلفة وأنماط متعددة من طرق عرض القصة التى لا تخضع لضابط فنى معين فى كل ظواهرها لتنتظم فى سلكه ، لأن هذا ليس من مقاصد القرآن بقدر ما تخضع القصة لمقاصد

القرآن نفسه وغاياته وهو ما قام سيد قطب بدرسه تحت عنوان خضوع القصة للغرض الدينى .

وقد عرض سيد قطب لأكثر قصص القرآن شمولًا وتوزعا وتكرارًا وتكاملًا وهى قصة موسى عليه السلام ، وعرضنا لأكثر قصصه طولًا وتركيزًا وتماما وهى قصة يوسف عليه السلام ، ويبقى نمط آخر للقصة القرآنية يختلف بعض الشيء فى طريقة التناول ، وطريقة التكرار ، كما يختلف فى الغاية التى سيق من أجلها عن أكثر القصص القرآنى وهى قصة دارت حوادثها فيما وراء حدود الزمان والمكان المعروفين ، إنها قصة خلق آدم وفتنته وابتلائه .

فهذه القصة تساق لبيان قدرة الله تعالى وفضله ﴿ **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** ﴾[1] ﴿ **ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون . ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . .** ﴾[2] ﴿ **وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون . ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين . وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم . ولقد خلقنا الإنسان من صلصل من حمأ مسنون** ﴾[3] كما تساق تدليلا على صدق نبوة محمد الأمى الذى عاش بين العرب فى مكة وعرفوه منذ مولده فمن أين يأتيه خبر ما دار فى السماء قبل خلق آدم وبعد خلقه ﴿ **ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين . إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين** ﴾[4] كما

---

(١) البقرة : ٣٠ .
(٢) الأعراف : ١٠ - ١١ .
(٣) الحجر : ٢٣ - ٢٦ .
(٤) ص ٦٩ : ٧١ .

ساق الخبر نفسه لأمر معجز آخر ، حيث جاء إعجازه الأول للعهد الأول من أمته وفيه . إعجاز آخر لم يظهر بعد ، وعندما نعلمه سيثبت صدق هذا النبى لأهل زمن من الأزمنة الآتية بعد ، ولهذا قال : ﴿ **ولتعلمن بنبأه بعد حين** ﴾[١] وفى بعض المواضع سيقت هذه القصة ليقاس عليها أمر من أمور بنى آدم التى يخالفون فيها عن أمر ربهم ، كقياس كفار مكة واستهزائهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ، على موقف إبليس من آدم إذ سخر منه ولم يسجد له وذلك أنه بالإضافة إلى مناسبة ذكر قدرة الله تعالى على خلقه : ﴿ **وربك أعلم بمن فى السموات والأرض** ﴾[٢] قال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ، وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانًا كبيرًا . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينًا** ﴾[٣] حيث إن مناسبة الآية الأولى أن الله تعالى لما أخبر نبيه بمصارع القوم فى بدر فأخبر الناس بها ، تسامع الكفار بذلك ، فجعلوا يسخرون ويستعجلون ، كما سخروا بحديث الإسراء من قبل ، وسخروا من شجرة الزقوم التى تنبت فى النار ولا تحترق[٤] ، فهذه الأمور الثلاثة المذكورة فى الآية وسخر منها الكفار قيست على الحق الذى أيد الله به آدم ، فسخر منه إبليس وقال : ﴿ **أأسجد لمن خلقت طينًا** ﴾ . ولهذا جعل الله تعالى فيما بعدَ هذه الآيات يبكتهم قائلًا : ﴿ **ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر ولتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما . وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه** ﴾[٥]

---

(١) ص : ٨٨ .

(٢) الإسراء : ٥٥ .

(٣) الأسراء : ٦٠ - ٦١ .

(٤) الكشاف ٢ /٦٧٥ .

(٥) الإسراء ٦٦ وما بعدها .

وعلى هذه القصة أيضًا يقاس حال بنى آدم فى النسيان ؛ نسيان تفضيل الله تعالى له على سائر الخلق ، ونسيان العهد له بالخلافة فى الأرض ، ونسيان نعمة الله تعالى ، وما أجزلها ، حيث يقول الله تعالى : ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآنا عربيًا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرًا . فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علمًا . ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ، وإذ قلنا للملائكة ....** ﴾[(1)] وكذلك جاء فى آخر القصة ما يؤكد أنها سيقت لمن ينسى كما نسى آدم من قبل ﴿ **قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرًا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾[(2)] .

وتساق قصة الخلق أيضًا تدليلًا على صدق المعاد ، وأنه كما خلقهم أول مرة ، قادر على أن يعيدهم أخرى : ﴿ **لقد جئتمونا كما خلقنكم أول مرة ، بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدًا** ﴾[(3)] وذلك بالإضافة إلى التبكيت على اتباع عدو الله إبليس من دون الله ، وهو سبب شقاء بنى آدم : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلًا** ﴾[(4)] .

ونظفر من هذا العرض بفائدة أخرى تضاف إلى ما نجده من اختلاف فى غاية القصة ووظيفتها عن سائر القصص ، وما نجده من مدى تناسبها مع ما سيقت لأجله ، وذلك أننا نجد القصة فى كل مرة تذكر فيها تتخذ شكلًا

---

(١) طه ١١٣ وما بعدها .

(٢) طه ١٢٥ - ١٢٦ .

(٣) الكهف ٤٨ .

(٤) الكهف : ٥٠ .

مختلفًا عنه فى المواضع الأخرى فى أحداثها وحجمها وأسلوبها وطريقة عرضها وتسليط الأضواء على أمر معين هو الذى سيقت لأجله . مما يؤكد على أن التكرار فى القرآن الكريم كانت له وظيفة معلومة ، وغاية مقصودة ، وليس من قبيل التسلية أو ملء الفراغ .

ويضاف إلى هذا كله فائدة جليلة وأمر معجب وهو أن أكثر قصص القرآن كان تمامه فيما تقدم من القرآن المكى واختزل ما ورد منه فى المدنى كما سبق أن بينا ، أما هذه فقد انعكس الوضع فيها حيث إنها وردت فى أتم صورها فى سورة البقرة (أية ٢٩ - ٣٩) وهى آخر مرة نزلت فيها حيث إنها السورة المدنية الوحيدة التى ورد خبر خلق آدم ، وهى السورة السابعة والثمانون فى ترتيب النزول . والمواضع الستة الباقية كلها فى سورة مكية هى بترتيب نزولها كالتالى (ص٣٨ - الأعراف٣٩ - طه ٤٥ - الإسراء ٥٠ - الحجر ٥٤ - الكهف ٦٩)[1] وأما ما عداها فمواضع ذكرت فيها إشارات عرضية إلى الخلق .

إلى هنا والأمر لا غرابة فيه ، ولكن الغريب هو تلك الإحالة الضمنية الواردة فى أول مرة نزلت فيها القصة (سورة ص ٦٩ - ٨٨) ، حيث ذكرت بالإشارة فقط نبأ تلك المحاورة السماوية التى لم ينزل خبرها إلى الأرض بعد ولكنها فى الوحى المنزل تقع بحسب الترتيب التوقيفى فى السورة الثانية التى لم تنزل إلا بعد الهجرة ، فقال تعالى آمرًا نبيه بالرد على من سوف يسألونه عندما ينزل هذا الخبر : وكيف علمت بما دار فى السماء ؟ ويسخرون منه ، آمرًا إياه بالرد عليهم : ﴿ **قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون . ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين . إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه**

(١) الأرقام توضح تعاقب السور فى النزول .

من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾[1] فها هنا لم يرد خبر المراجعة بين الملائكة ورب العزة ولكن وردت فقط إحالة عليها وإشارة إليها ﴿ **ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون** ﴾ وهذا دليل على أن ترتيب القرآن من الأمور التوقيفية يضاف إلى ما ذكره علماؤه أو إلى ما ذكرناه آنفًا .

وكما نجد المحاورة بين الله تعالى والملائكة هى التى بسطت فى سورة البقرة واختزلت فيما عداها إلى مجرد الأمر بالسجود ، نجد محاورة إبليس المختزلة من القصة الواردة فى البقرة قد بسطت فى أكثر من موضع من المواضع الباقية واستوفى الغرض من ذكرها فى القرآن المكى ، حيث تصرف فى بيان معاندته لله تعالى واحتجاجه عليه بأن العنصر الذى خلق منه أفضل من العنصر الذى خلق منه آدم فكيف يسجد له ؟ وحقده على آدم وذريته ، وقسمه بالله ليتعقبنه وذريته إلى يوم الدين ، واحتياله فى إخراجه من الجنة ، وعمله على ألا يعود إليها من ذريته إلا من استعصى عليه منهم . وفى هذه القصة تحذير لبنى آدم من كيد الشيطان لهم وما أعد لهم من الفتن ليحول بينهم وبين الجنة كما حيل بينه وبينها ، ولهذا تكررت فى أربعة مواضع من السبعة المذكورة بإسهاب واف بهذا الغرض وبطرق مختلفة للعرض ، وتم التركيز فى كل على جانب من الحوار أو من مراحله ، أو على طريقة من طرق كيد الشيطان ، وهكذا ، وهذا كله من مقاصد القرآن المكى ، أما فى القرآن المدنى الذى يخاطب المؤمنين ويشرع لهم أمور حياتهم ، فإن التذكير بعدو الله إبليس وعدو بنى آدم عليه لعنات الله ، لا يحتاج إلى مثل هذا التركيز فجاء مختزلًا كما رأينا فى سورة البقرة .

وهكذا يتبين لنا أن للتكرار فى القصة القرآنية شأنا مذكورًا ووظيفة

---

(١) سورة ص : ٦٧ – ٧٣ .

محددة ، وطرائق تطرد فى تناسبها مع الغايات العامة للقرآن الكريم وتطرد أيضًا فى تناسبها مع مقاصد كل سورة من سوره وهى تخضع فى كل ذلك لمعايير دقيقة يظهر لنا بعضها فنجليه ويخفى بعض ليظهر بعد وسوف تُظهر لنا مواضع الحذف كثيرًا من أسرار التكرار ، وتضيف إليها وجهًا جديدًا منه ، وهو تكرر الطريقة الفنية الأسلوبية فى عرض المعانى ، وهى التى يمكن أن يؤخذ من صورها المتكررة ما يشبه النمط أو القاعدة فى بناء مجريات القصة الفنية وعرض أحداثها .

الفصل الرابع

حركة الحدث
فى
المحاورة والسرد

معلوم أن الأحداث فى القصة الفنية تتحرك بطريقين : طريق السرد وهو وصف الأحداث والأشخاص والمشاعر والانفعالات والأماكن والأزمنة وغيرها ، وطريق الحوار الذى ينطق به أشخاص القصة .

ومعيار الجودة فى كلٍ أمران :

الأول : القدرة على تحريك الحدث وتصعيده فى مراحله المختلفة .

والثانى : الإفصاح عن المعانى بدقة ودون إخلال بتقصير أو إملال بتطويل . وهناك أمور أخرى جانبية تتعلق بالتصوير والبراعة فى إدارة الحوار وسهولة الأسلوب وغيرها وهى أمور تتفرع على المعيارين السابقين أو تتعلق بالبناء الفنى للقصة ، وهذا له موضع آخر ، لكن الذى يعنينا هنا ذكره هو ما يؤثر على الحبكة والحدث من أسلوب السرد والمحاورة ، لما لهذا من تعلق بموضوعنا .

ودارسو القصة الفنية يعلمون أنها لم تستكمل بعد مائتى عام من العمر ، وهذان القرنان أرسيت فيهما قواعد هذا الفن ، وهو عمر قصير فى دنيا الفنون ، لا يكفى لتأصيل قواعد فن أصيل ، ومن أجل ذلك كان الخلاف فى قواعدها واختلاف أنماطها وأشكالها وتفاوتها من الأمور الملاحظة فيها أكثر من غيرها من الفنون لاسيما فى هذا العصر المضطرب .

ومع هذا فإن القرآن الكريم الذى ليس كمثله شيء من فنون القول قد حفل بكنوز من النماذج العليا لهذا الفن ، التى لو أخذ منها هؤلاء المختلفون واغترفوا ، لزالت خلافاتهم قبل أن ينتهوا من اغتراف ما يقدرون عليه من تلك الكنوز .

ويتبين من الفقرة السابقة أن رأينا فى فنية القصة فى القرآن وحرفيتها يختلف

عن رأى دارسى القصة القرآنية بعض الشىء وإن اتفقنا على أن القرآن الكريم ليس كتاب قصص أو تاريخ ، ولكن معجزته بنيت على البيان أساسًا ولهذا فلا ينبغى أن ننكر عليه أن يكون من مقاصده الإتيان بفنون وألوان من فن القصة ، ولا نستبعدها عليه ، بل المنتظر أن يكون ما يأتى به منها ليس كمثله شىء ، ولا يطاوله فن .

ويضطرنا هذا إلى استطراد ليس من مقاصدنا وإنما هو بيان لما قدمنا ، فالذى يسلم بأن الملاحم كالإلياذة والأوديسة وكوميديا دانتى ، والفردوس المفقود ، والمسرحيات من لدن اسخيلوس وسوفوكل إلى أرثر ميلر مرورًا بشيكسبير وكورنى وراسين وموليير وغيرهم ، والقصص من هوجو إلى هيمنجواى ، الذى يسلم بأن هذه جميعًا فنون راقية ، وأن منها ما يسمى حديثًا بالأدب العالمى ، ومنها ما يسمى بالفن الخالد . ويجعل لهذه الفنون حرمًا آمنًا لا يجترىء عليه إلا كافر ، الذى يسلم لهذه الفنون بذلك ويتخذها مثلًا أعلى ونماذج للفن تؤخذ منها قواعده ، يعلم فى قرارة نفسه أنها من صنيع البشر ، وأنها جميعًا قد طرأ عليها وجوه من التقصير عن جماليات الفن المثالى ، مما يؤثر على قدرة ما يؤخذ منها من قواعد للفن على الشمول والبقاء ، ولهذا تفشت ظاهرة التحول السريع على الفنون فى أوربة وظهرت المذاهب المتعاقبة والمتعاصرة يناقض بعضها بعضًا وينقض بعضها بناء بعض .

أما البيان الإلهى فغير خاضع لهذه الطوارىء على الفنون فلماذا نستبعد عليه أن يحفل من الظواهر الفنية المختلفة والنماذج المعجبة بأشياء لا نظير لها فى آداب البشر ولا قبل لهم بها إلا أن يتعلموها منه ويتتلمذوا فيها عليه ، ولا سيما فى أمر جعله الله تعالى آيته التى أنزلها على نبيه ومعجزته التى قدمها بين يديه .

ولهذا فإننا نؤكد أن القصة القرآنية وإن خلت من نماذج من أمثال

ما ذكرنا من فنون البشر ، فإنها حفلت بما لا نظير له عندهم ، وليس الذى يأتى به البشر معيارًا للقرآن ، وإنما العكس هو الصحيح ، فالذى يستولى عليه النقص ليس كالذى أيده الله بالكمال وليس على قواعد فن القصة نقيس القرآن ، وإنما القرآن معيار قواعد فن القصة ، وكل فن آخر . وإلا فإن فى إيماننا شيئًا ، أو شائبة ، ولا زوال لهذا أو ذاك إلا بما قدمنا ، ولا حرج فى تحيز لمبدأ عليه دليل ، وإنما العيب أن نتحيز وأن نتعصب بلا دليل ، وها هو ذا القرآن بين أيدينا وليس دليلا فحسب وإنما هو آية ، وأى آية ! !

وقد سبقنا البلاغيون إلى الكشف عن سمة أساسية من سمات الأسلوب القرآنى ، وجعلوا لها التقدمة من بين سماته البيانية الأخرى وهى الإيجاز ، ونحن بصدد الكشف عن فوائد هذه السمة فى مجريات القصة القرآنية من تحريك للحدث وتصعيد إلى ذروته ، وتكثيف الحوار والوصف ارتقاء به إلى ذروة الدقة التعبيرية والقدرة الفائقة على التأثير وتحريك المشاعر الدافقة لدى المتلقى ، والقفز فوق الأحداث الفرعية غير المؤثرة ، واقتناص الإشارة المعبرة عما هو مؤثر منها ، وتصوير أطراف الحدث من زمان ومكان وموضوع وأشخاص بأدق صورة معبرة وأخصرها بالكلام الجامع ومن خلال أساليب البيان المختلفة ، التى قننها البلاغيون من خلال مصدرها الأول الذى بين أيدينا الآن : القرآن .

والمحاورات[1] فى الكتاب المعجز لها شان عجيب من حيث قدرتها على بيان مدى المقاومة بين أطراف الحوار ، تلك المقاومة التى لابد من توافرها لكى ينشأ « الموقف » الذى يجسم صراعًا بين قوى مُريدة وأخرى مانعة ، قاهرة ، والمغالبة بين هذه القوى هى التى تؤدى إلى تصعيد الحدث إلى ذروة

---

(١) نشرع بالكلام فى المحاورات لأن المفسرين والبلاغيين قد وفوا السرد حقه من التحليل والدراسة عدا بعض الجوانب التى نأمل أن نوفيها حقها فيما يأتى من دراستنا .

تنتهى بتغلب إحدى القوتين أو المجموعتين على الأخرى لتحدد نهاية القصة .

وعلى قدر قوة الصراع بين أطراف القصة تكون المقاومة فى الحوار ، فى تناسب طردى لا ينعكس ، ولا يختلف مقياسه بحال . وليس ضعف هذه القوة وانعدام المقاومة فى الحوار دليلًا على ضعف البناء ، وإنما قد يستدعى الموقف ذلك إذا كانت إحدى القوتين غالبة من البداية ، والأخرى مقهورة ، أو كانت القوى متوافقةو فى مرحلة الكشف ، ولهذا نجد فى القرآن الكريم محاورات تنعدم فيها المقاومة تمامًا ، ويظهر فيها روح التسليم لأول وهلة والموافقة للقوة القاهرة . انظر إلى قوله تعالى : ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض أئتيا طوعًا أو كرهًا قالتا آتينا طائعين** ﴾[1] بلا أدنى مقاومة ، وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا** ﴾[2] فهذان نوعان من المحاورات بين قوى غير متكافئة ، ولهذا لا تلبث القضية فيه أن تحسم بطريق الإقرار والتسليم ، ونجد الحوار قصيرًا حاسمًا ، والموقف جليًلا . ومع هذا يسهل استحضاره من خلال الألفاظ السهلة وبقليل من إعمال الخيال ، حيث لا يستعصى عليه استجلاؤه ، ولا سيما أن فى حنايا كل نفس بشرية إحساسًا خفيًا بهذا الأمر ، سواء فى خضوع السموات والأرض لمشيئة الله وقدرته وقدره فى تسيير أمورها ، مع إحساس مصاحب له بالعجز الشديد أمام هذه القوة الظاهرة الآسرة ، وكذلك فى التسليم بأن ثمة خالقًا لابد أن يذعن له المخلوقون هذا الإذعان المتمثل باختصار شديد فى لفظتين : بلى ، شهدنا .

وحين يشاء الله أن يعطى خلقًا من خلقه قدرًا من الاختيار ويسمح له

---

(٢) فصلت : ١١ .

(٣) الأعراف : ١٧٢ .

بالمراجعة ، يبدأ سمت المحاورة يتغير إلى حد ما ، ولكن فى حدود ما تمليه الطبيعة المتعارف عليها لطرفى الحوار : الخالق القاهر صاحب المشيئة الذى يقول للشىء كن فيكون ، والمخلوقين الذين ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ وعندئذ تكون سمة الحوار على هذا القدر لا أكثر ولا أقل كالذى فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** ﴾[1] .

والذى يقيس هذه المحاورة على سابقتها قد تحدثه نفسه أن يسأل : لماذا لم يجر الله تعالى هذه المحاورة على حدهما ، حيث إن الملائكة فى التسليم والخضوع ليسوا أقل مرتبة من الأرض والسموات ، ومن ذرية آدم ؟ ! وهذا حق إذا ما قيس على قوله تعالى فى صفتهم : ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ وإن جاز لبعضهم أن يقول : إن وصفهم هذا كان فى حال الأمر والتنفيذ ، وقول رب العزة : جاعل فى الأرض خليفة . ليس من قبيل الأمر للملائكة ، وقد نقبل منه ذلك شكلًا أما من جهة المنطق فإن الذى لا يملك أن يرد أمرًا عن نفسه ويذعن له صاغرًا ، ما أحراه بألا يراجع قاهره فى أمر ألزم به نفسه ، وأخبره به ليعلمه لا ليراجعه !

ولكن العلة الحقيقية هنا تكمن فى شريعة الله تعالى الذى أراد للكون أن يدخل فى طور جديد لا بأن يجعل للملائكة إرادة ورأيا دون إرادته ورأيه ،

---

(١) البقرة : ٣٠ .

ولكن بأن يسوق لنا نحن البشر نموذجًا من عالم الغيب يخبرنا عن طريقه بأن خلق الله الذين لا يعصونه ما أمرهم ، قد راجعوه فى خلق آدم وذريته خوفًا من أن يفسد فى الأرض ويشرك بالله ويعصيه فيما أمره به ، وأن الله تعالى مع هذه المراجعة قد أنفذ إرادته ، ولهذا فهو لا يرضى لعباده الكفر ، وإنما يرضى منهم أن يكونوا شاكرين .

يدلنا على هذه الحقيقة تطور المحاورات القرآنية الحاكية لحقب تالية من الزمان وتصاعدها وتنافر أطراف القوى المختلفة فى كل حوار منها ، ليكون هذا الحوار الذى عرضناه حلقة وسطًا من حلقات كثيرة بين ما قبله مما عرضناه وما يأتى بعده وأوله محاورة إبليس الأولى مع رب العزة يوم عصى ربه وأبى أن يسجد لآدم إذ أمره ربه : ﴿ **قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . ؟ قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط عليّ مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾[1] ، وليس عصيان إبليس هو أعجب ما فى هذه المحاورة بل العكس ، فإنه وهو عاص لربه ويعزم على عدم السجود ويؤكد جرمه بجرأته هذه بقوله : « لم أكن لأسجد » ، نراه ذليلًا ضعيفًا أمام ربه وهو يسأله قائلًا : « رب فانظرنى إلى يوم يبعثون » ولنترك رنة الذلة والضعف والاستعطاف البادية فى هذا القول للبلاغيين ليقولوا فيها كلمتهم وننتقل إلى التالية لها وقد أجاب الله طلبه وقد انتشى واستبد به الفرح لهذه المهلة الممنوحة له ، فيعود إلى روح التمرد من جديد

---

(١) الحجر : ٣٢ – ٤٢ .

وليعلن « رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين » .

وهكذا نجد كل قول يرد فى المحاورة معبرًا عن حالة قائله ومشاعره من الأعماق ، وأن كل قول يدفع بالحدث قدما إلى ذروته أو إلى نهايته .

هذا عما دار من محاورات قبل الزمان ، أما المحاورة الأولى[1] التى وردت فى القرآن مما دار على الأرض فكانت رواية رب العزة لتلك المأساة الدامية التى وقعت بين ابنى آدم ﴿ **إذا قربا قربانًا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلَيّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين . إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين** ﴾[2] وفى هذا الحوار لم ينطق القاتل إلا بكلمة واحدة ، ويا لها من كلمة : لأقتلنك ! وظل فى حال من الحقد والكمد يسمع مقالة أخيه الذى يحاول أن يستل سخيمته بها عسى أن يتسلل شيء منها إلى نفسه ولكن دون جدوى لقد تسلط الشيطان على نفسه ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله** ﴾[3] فكانت السابقة الأولى على الأرض ، ولهذا كان لابد أن يعقبها بداية رحلة الندم التى يعبر عنها بقوله : ﴿ **يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى** ﴾[4] ! !

---

(١) هى أول محاورة قصصية ، وإن تكن وردت قبلها - زمانا - قصة هى إلى المثل أقرب ، وليست محاورة . وهى قوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملًا خفيفا فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنصدقن ولنكوننَّ من الصالحين . فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون** ﴾ [الأعراف : ٨٩ ، ٩٠] .

(٢) المائدة : ٢٧ - ٢٩ . (٣) المائدة : ٣٠ .

(٤) المائدة : ٣١ .

ولنا ان نلمح فى هذه القصة سرعة حركة الحدث فى تصاعده من بدايته إلى نهايته وأن الصراع فيه عفوى انفعالى بدائى ، وأن عنصر الشر كان أقل كلامًا وأكثر فعلًا ، على العكس من عنصر الخير الذى كان ينطق بلسان خير عاقل ، ولكن العقل فى بعض الحالات لا يجدى مع الشر فتيلًا ! ولا يسعنا إلا أن نتوقف عند هذه القصة ملمحين إلى أن الوصف من خلال السرد الذى تخلل الحوار فيها كان فى ذروة الإيجاز المعبر بدقة عن المعانى على كثرتها دون أى خلل : ﴿ **واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانًا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر** ﴾ ، هكذا بسلاسة ويسر وبألفاظ قليلة ، وصلنا سريعًا إلى قلب الأحداث ، ثم بكلمة واحدة بعد صرنا فى ذروتها الدامية ، وتعلقت الأنفاس بالحلوق ، تنتظر رد الفعل ، الذى يجىء هادئًا رزينًا ليسترد الناس أنفاسهم ويرجوا خيرًا ويظلوا هادئين مطمئنين . حتى ينتهى ، ثم يجىء السرد مرة أخرى ليعود بالوصف على الأخ الظالم ، وتجىء كلمة « فطوعت » لتدل على وجود صراع داخلى فى نفس هذا الأخ ، وإلا لقتله دون حاجة إلى عملية « التطويع هذه » ، ويدل على وجود الصراع فى نفسه أيضًا أنه سرعان ما ندم على فعلته ، وتطويع النفس مقصود أيضًا ليفهم أنه ليس ثمة قوى خارجية أثرت فيه من أجل أن يقرر قتل أخيه ، كالشيطان مثلًا . ومن الملاحظ أن هذا الحوار خلا من تدخل عناصر غيبية غير بشرية فيه سواء الخالق نفسه أو الملائكة أو الشيطان أو الجن وهذا ضرورى لتأكيد استقلال الإنسان على الأرض واختياره فيما استخلف فيه ، ولا بأس باعتبار الغراب بديلا عن هذه العناصر ليشد الإنسان إلى الأرض ، وقد فعل ، وهكذا يتآزر الحوار مع السرد فى القصة القرآنية لا من أجل تصعيد الحدث فحسب بل من أجل إبراز المشاعر المختفية وراء شخوص القصة وفى حنايا نفوسهم .

وقبل أن نمضى فى المحاورات القصصية المختلفة فى المفعمة بالصراع ،

والمقاومة والأحداث المتصاعدة والتعقيدات والنهايات الفاجعة ربما كان من الأصوب أن نلحق بالمحاورات الغيبية الأولى نوعًا مشابهًا من المحاورات ، وهو ما جاء فى القرآن الكريم عما هو كائن يوم الحساب . وما بعده ، وهو نوع من المحاورات بين طرفى نقيض ، ولقد نعتقد أن هذا يعنى وجود حوار غنى بعناصر الصراع ، ولكن هناك اعتبارًا آخر يجعل هذا الاعتقاد محض خيال ، فهذه المحاورات تتم بعد أن قضى الأمر وعرف كل طرف ما هو صائر إليه ، فمنهم من رضى واطمأن ، ومنهم من هو معلق بالأمل بعد ومنهم من أدركته مرحلة وجوب اليأس من رحمة الله ولكنه وقد انغمس فى الندم يحاول محاولة أخيرة لينال ولو شيئًا يسيرًا مما أنعم الله به على أهل الجنة ، أو أن يقتبس من نورهم وهو يساق إلى الظلمات . فأما من رضوا واطمأنوا فهم أهل الجنة يقول لهم خزنتها : ﴿ **سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ فيردون عليهم ﴿ **الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾(1) ويقول لهم الملائكة أيضًا : ﴿ **بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم** ﴾(2) ويقولون أيضًا : ﴿ **الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ فيقال لهم : ﴿ **تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾(3) وهذه العبارات من كلا الجانبين تعبير عن السلام المطلق الذى لا يأتى وراءه خوف أو قلق أو شر ، وهى تذكر بالنوع الأول من محاورات السماء التى فيها التسليم والرضا بأمر الله وهى عبارات تنطق تلقائيًا ممن كان يطمع فى شيء وينتظره ، فوجده كما يتمنى أو أكثر فيتذكر وهو فى نعيم ربه أنه لولا الهداية والتوفيق الربانى إلى إجابة رسل الله ما انتهى إلى.

---

(1) الزمر ٧٣ - ٧٤ .

(2) الحديد : ١٢ .

(3) الأعراف : ٤٣ .

هذا فيقول الحمد لله . . فهنا المحاورة طابعها التسليم الراضى ، وهو أكثر سلاسة من التسليم الخاضع المقهور أو شبه المكره الذى شاب محاورة السموات والأرض والملائكة فى أول الخلق ، وسنجد الفارق جليًا عند عرض محاورات أهل النار مع الملائكة وأهل الأعراف وأهل الجنة والتى تفعمها روح الأسى والندم ، وتمنى المستحيل : ﴿ **ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذى كنا نعمل** ﴾[1] ويقول لهم ربهم : ﴿ **ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون** ﴾ فيستغيثون ربهم الذى كانوا يكذبون ويشركون ويجحدون فضله ﴿ **قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قومًا ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾[2] وهؤلاء هم الذين ترهقهم ذلة[3] ، لأنهم كانوا يكذبون بيوم الدين ولا يفعلون ما يؤمرون ، حتى أتاهم اليقين[4] ، وبصحبته الندم[5] ، ويتذكرون أفعالهم فيقول الواحد منهم : ﴿ **يا ليتنى قدمت لحياتى** ﴾[6] ، وهؤلاء الذين دأبوا على الخلاف والشغب أبدًا ، منذ فعل رائدهم إبليس فعلته الأولى ، وهم أتباعه وشيعته ، يشغبون ويتكلمون ويلغطون بين يدى عذاب أليم على الرغم من أنهم أمروا ألا يتكلموا ﴿ **هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون** ﴾[7] ومن أجل هذا وصف أهل النار بأنهم أهل خصام ﴿ **إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾[8] ، أما أهل الجنة فهم ﴿ **لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا إلا قيلًا**

---

(١) فاطر : ٣٧ .

(٢) المؤمنون : ١٠٥ – ١٠٨ .

(٣) انظر سورة القلم ٤٣ ، المعارج ٤٤ .

(٤) انظر سورة المدثر : ٤٦ .

(٥) انظر يونس ٥٤ ، سبأ ٣٣ .

(٦) الفجر : ٢٤ .

(٧) المرسلات : ٣٦ .

(٨) سورة ص ٦٤ . وكذلك فى سورة الشعراء آية ٩٦ . وغيرها .

﴿ سلامًا سلامًا ﴾[1] و﴿ لا يسمعون فيها لغوًا إلا سلامًا ﴾[2] و ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾[3] .

ولعل هذا التفاوت الكبير بين طبيعة كل من الطرفين قد تبدى جليًا فى مشاهد يوم القيامة فى سورة الأعراف مما دعا سيد قطب . وقد تحركت مشاعره إزاء هذه المشاهد إلى وصفها بأنها ملحمة[4] ، ونحن وإن كنا نعذره ونعرف حسن قصده وصدق نيته ، لا يسعنا إلا أن ننبه إلى وجوب أن نربأ بكل تصوير قرآنى عن أن نطلق عليه وصف « الملحمة » لأن كلمة الملحمة عند الغربيين تحمل معنى الخرافات والأساطير وهى ظلال بدائية شديدة الوضاعة والتخلف ، سبق أن برأنا أدبنا وترفعنا به عن أن يتدنى ويتدلى من عليائه إليها فى حضيضها ، فأولى لنا وأولى أن نربأ بوصف أى مشهد قرآنى عن أن يلحق بالخرافات[5] ، ولقد وصف الله تعالى ما هو كائن يوم القيامة وما بعدها بأنه « حق » فليس لنا أن نصفه ولو مجازًا بأنه ملحمة .

إن عنصر المقاومة كما قلنا هو الذى يولد الصراع وينميه ويصنع العقدة فى الموقف القصصى ، وليس هكذا أهل الخير وورثة الفردوس ، الذين يحرص القرآن الكريم على إظهارهم دائمًا فى صورة من الوداعة وطمأنينة النفس تناسب وصفهم وطبيعتهم ، لا من خلال الوصف والسرد فقط ، وإنما من خلال السرد أيضًا ، حيث إن الحوار يفقد داعية وجوده فى كثير من المواقف التى يعرض فيها أهل الجنة ، أما أهل النار فهم فى المقابل تجد لهم محاورات

---

(١) الواقعة : ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) سورة مريم ٦٢ .

(٣) يونس ١٠ .

(٤) مشاهد القيامة فى القرآن ص ٨٧ .

(٥) راجع دراستنا قضية الفن الأول ص ٤٢٤ : ٤٢٨ ، ٤٤٦ : ٤٤٧ .

فى أكثر هذه المواقف – ومن عجب أن هذا يجىء على العكس تمامًا من موقف ابنى آدم سالف الذكر ، وقد أوضحنا أسباب ذلك – ويكاد هذا الأمر يصبح قاعدة فى مواقف يوم الحساب ، وسنوازن الآن بين صورتى الفريقين فى بعض هذه المواقف :

– فى سورة ق ، يقول الله تعالى :

﴿ وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه فى العذاب الشديد . قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾(1) .

هكذا حال الكافرين الذين زين لهم قرناؤهم من شياطين الإنس والجن أعمالهم ووعدوهم فأخلفوهم ، ولما جاء يوم الوفاء فروا وتبرأوا منهم ، فيوم القيامة ترى وجوههم مسودة .

وستظهر لنا هذه الدراسة ما حذف من الأسلوب القرآنى من المحاورة والخصومة وما يدل على حذفه من مجريات هذا الأسلوب ويقول الله تعالى فى السورة نفسها بعد هذا فى وصف حال المؤمنين :

﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾(2) .

هكذا هم يوم القيامة لا يتخاصمون ولا يتجادلون ، فليس ثمة ما يمارون فيه أو يعترضون عليه من أمر ربهم الذى وعدهم وصدق وعده ، ويقال لهم : ﴿ **هذا ما توعدون لكل أوابٍ حفيظ** ﴾ وقد حذف منه لفظ القول

---

(1) سورة ق : ٢٣ – ٢٨ .

(2) سورة ق ٣١ – ٣٥ .

أيضًا وجاء المقول مرسلًا لعلة ستبينها هذه الدراسة أيضًا مع ما جاء فيها من آراء وتوجيه لقراءاتها .

وفى سورة الحديد يقول الله تعالى :

﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾[1] .

هذه صورة طريفة فيها نادرة من النوادر المعجبة التى رد الله تعالى بها على سخرية المنافقين والكافرين واستهزائهم بالمؤمنين ، ولهذا أنطق الله تعالى المؤمنين فى آخره بالرد عليهم قصاصًا من مواقفهم الهازئة ، وتلهيهم بالمؤمنين فى الحياة الدنيا ، فهم قد رأوا المؤمنين فى حال تمنوا أن يكونوا هم عليها فى هذا اليوم :

﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾[2]

ورأوهم فى سكينة وخشوع واطمئنان لا يلغطون ولا يتجادلون ولا يتخاصمون ، أما هم فما زالوا على دأبهم من الخصومة والكيد والنفار والحقد والحسد وتمنى ما فى أيدى الآخرين والعمل على استلابه ، وهذا ما ساقهم إلى ما هم صائرون إليه ، فينادون المؤمنين طالبين إليهم أن يمنحوهم شيئًا من هذا النور ، وهذه النعمة ، فلا يرد عليهم المؤمنون تنزيهًا للمؤمنين عن الخداع ومظنة الكذب ، فيقال لهم ، ولا ندرى القائل ولعلهم خزنة جهنم :

---

(١) سورة الحديد ١٣ – ١٥ . (٢) سورة الحديد : ١٢ .

﴿ **ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا** ﴾ فرجعوا متسارعين ، هكذا نفهم من السياق الذى يدل على ما حذف ، فبنى سور بقدرة الله وكأنما ألقى بينهما ، ليحال بينهما به ، وله باب ، وكأنما فى هذا الباب طاقة ينظر بعضهم بعضًا من خلالها ، وإذا هؤلاء فى جحيم النار ، وأولئك فى نعيم الجنة ، فعرفوا أنهم قد خدعوا ليحال بينهم وبين هذا النعيم ، فأصابهم اليأس والقنوط مع العذاب المقيم ، فنادوا نداء أخيرًا المؤمنين قائلين : ألم نكن معكم ؟ ! وهنا ينطق المؤمنون مقالتهم التى ادخر الله تعالى لهم هذا الموقف ليقولوها للمنافقين والكافرين قصاصًا مما أسلفوا من الاستهزاء بهم فى الحياة الدنيا .

ولا تكاد تجد فى مقالة المؤمنين على طولها أى نحة من روح الصراع من جانبهم وإنما هى ، إن شئنا الدقة ، تنعى على المعاندين روح المقاومة والصراع التى أبدوها مدى حياتهم الدنيا تجاه داعية الحق والخير ، تأكيدًا لما استحقوا من العذاب فى الآخرة[1] .

وفى سورة الزمر تساق الصورة نفسها لكل من الفريقين حيث تصف الكافرين :

﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا . قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين** ﴾[2] .

وهنا تبدو القسوة الشديدة فى معاملتهم ، وإغلاظ القول لهم مثلما فعلوا هم فى الحياة الدنيا مع المؤمنين والضعفاء والمظلومين فلا يكون لهم من جواب إلا أن يقولوا مقرين على أنفسهم باستحقاق العذاب ﴿ **بلى ولكن حقت**

---

(١) سنعود إلى المشهد لبيان أثر الحذف فيه فيما بعد .

(٢) الزمر ٧١ .

كلمة العذاب على الكافرين ﴾ .

أما المؤمنون فيقول لهم خزنة الجنة : ﴿ **سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ فيردون قائلين ﴿ **الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾[1] .

وهنا يتدخل الوصف مرة أخيرة بما تقشعر له الجلود وتخشع القلوب وتخر الجباه وتنهمر الدموع ، بوصف مشهد من عالم الغيب يرى فيه عرش الرحمن فى غير مكان وفى غير زمان وحوله ملائكته بلا عدد يحصى ولا محيط يحيط بهم يحفون به ، ويسبحونه وله يسجدون وقد قضى بين المخلوقات بالحق والعدل ، ثم ينشد كل من فى الكون تلك المعزوفة الكونية الخالدة : الحمد لله رب العالمين .

وأين القصاصون والمسرحيون وكتاب « السيناريو » وواصفوه ، وكتاب الحوار لفنون التمثيل ومنفذو هذه الفنون ليتعلموا كيف يكون وصف أعمالهم ، وهل تراه يكون على نحو ما وصف الرحمن هذا المشهد المنعدم النظير وفاقد المثال :

﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾[2] .

ترى هل يحيط البصر بمشهد كهذا ، ولكن الله على كل شيء قدير وقد وعد رسوله بأن يرى أو وعد المؤمنين ، وهو قد كشف الغطاء عن البصر فصار « حديدًا » والإنسان صنع ما يسمى « بانوراما » وصنع من قبل كثيرًا مما يمكن من الرؤية على البعد واستحضار المشاهد وصنعها ، أقدرهم الله

---

(١) الزمر ٧٣ - ٧٤ .

(٢) الزمر ٧٥ .

عليه ، وما ادخر دون ذلك أعظم ولا تدركه الأبصار والعقول !(١) هذا عما يدور من محاورات فى عالم الغيب !

ولا ينبغى أن يفهم من وراء امتداحنا لهذا المشهد أننا نستحب أن يعترض القصة قطع من الوصف البديع بغير داعية قوية لوجودها ، فالوصف البديع والاستعراض عن طريقه ليست من أهداف القصة ، وكيف نستحب هذا ونحن بصدد بحث بلاغة الإيجاز والحذف وأثرها فى مجريات القصة وتركيز أحداثها وحبك بنائها !

وإنما قد يرد الوصف فى ثنايا القصة ويحمد إذا كان مما يخدم الغرض منها ويتفق ومجرياتها ، أما إذا أورد الكاتب وصفا لموكب ملك أو ملبسه أو مجلسه وبلاطه ، وكان هذا الوصف قطعة أدبيه بديعة ، ثم لم يكن ذلك ذا دلالة على فكرة ما من أفكار القصة ، كأن يستدل به على البذخ أو الإسراف فى إمتاع النفس على حساب رعيته البائسة المجهدة الرازحة تحت الفقر ، أو فى مواجهة تواضع ملك آخر يعنى برعيته ، ويستشعر آلامها ومعاناتها ، فإذا لم يكن هذا الوصف كذلك ، فهو دخيل على القصة ، وليس إلا « رقعة أرجوانية »(٢) يستعرض بها الكاتب براعته فى الإنشاء والوصف ، وليس هذا مما يحمد فى القصة ، وما أجدره بالحذف ، بل إن الوصف إن كان مما

---

(١) وقد سبقت إشارة عابرة إلى مشاهد ذلك فى سورة الأعراف ، فاكتفينا بها وبهذا عن تحليل هذه المشاهد وغيرها لئلا تطول الدراسة أكثر من اللازم فتخرج بنا عن القصد . وفى دراسة سيد قطب ما يفى بالغرض .

(٢) الرقعة الأرجوانية : لفظة تطلق فى النقد الأروبى على الأساليب المفتعلة التى تعترض العمل المسرحى أو القصصى ، بقصد عرض قدرات الكاتب ومواهبه ، بلا ضرورة تستدعى وجودها فى هذا العمل .

يمكن أن يفهم من السياق أو يغنى بعضه عن بعض فما أولاه بالحذف أيضًا ، ولقد كان هذا من المآخذ التى عاب بها النقاد كثيرًا من القصص فى العصر الحاضر ، ولا سيما القصص الواقعى .

فإذا عدنا إلى المشهد الذى بين أيدينا فى آخر سورة الزمر وجدناه يمثل تتويجًا رائعًا مهيبًا لأحداث يوم يعدل ألف سنة من أعوامنا ، قضى الله تعالى فيه بين العباد من إنس وجان وغيرهم من خلقه الذين نعلمهم والذين لا نعلمهم ، وهو مشهد ختامى بديع متوافق تمام التوافق مع ما قبله من أحداث ، وليس دخيلًا عليها .

وفى القرآن الكريم العديد من المشاهد التى تتخلل القصص ، يهتز لها الوجدان وتطرب لها الآذان وتهفو لها القلوب ، أو تقشعر من هول وصفها أو تأسى لما وصفت من حال بائسة ، فهى قادرة على حمل شتى أنواع المؤثرات إلى النفس ، مهما كان موضوعها وبما يوافق هذا الموضوع ويتطلبه ويثيره من أحاسيس . وهذا واحد من هذه المشاهد :

يقول الله تعالى فى شأن موسى عليه السلام مع فرعون وملئه : ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . فأسر بعبادى ليلًا إنكم متبعون واترك البحر رهوًا إنهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قومًا آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾[1]

والله إنه لظالم لنفسه من يظن أن فى لسانه أو قلمه بيانًا يقدر أن يعلق به على هذه الآيات أو يزيدها بيانًا ! فلننطلق إلى موقف آخر ، قال الله تعالى فى يوم الطوفان :

---

(١) الدخان ٢٢ – ٢٩ .

﴿ **وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدًا للقوم الظالمين** ﴾[1]

وهذا الموقف عملت فيه الأقلام أكثر مما تعمل الأسنة بالطعان ، وأدلى أكثر البلاغيين والمفسرين فيه بدلوهم ، وقد أذهلهم أثر الإيجاز وحلاوة النظم ، وهم محقون فى هذا ، ولكنهم غير محقين فى مرورهم مر الكرام بأثر هذه الصياغة فى مجريات القصة ، إذ ليس الإيجاز هنا مقصودًا لذاته وإنما هذا الأسلوب يقصد به أمران :

أولهما : بيان قدرة الله تعلى على إنهاء هذه الأهوال بمجرد الأمر بكلمات ، تأكيدًا لقدرته الكامنة فى قوله للشىء كن فيكون . ولعل هذا مما تعرض له بعضهم .

ثانيهما : ان هذه العبارات الموجزة المعبرة عن هذه الأحداث الجليلة المستفحلة فى ضخامتها بالنسبة لنا نحن البشر ، هى أسلوب قرآنى مقصود للقفز فوق هذه الأهوال الجسيمة وأحداثها العظام وكأنها لا شىء ، لينتهى إلى ما هو أولى بالتركيز عليه من أحداث القصة وإتمامها ، ويلاحظ أن هذه العبارات التى ضمتها آية واحدة قد اعترضت القصة بين جزأى موضوع واحد أو حدث واحد من أحداثها ، وهو قصة نوح مع ولده العاق ، فهذه القصة من حيث الأهمية فى الأسلوب القرآنى ومقاصده ، مقدمة على أحداث الطوفان والآيات الإلهية التى ظهرت فيه . إذ إنها تبين للنبى صلى الله عليه وسلم ، قاعدة جليلة فى هذا الدين ، وهى أن صلة الرحم والقرابة ليست مقدمة على الدين ، بل إنها تسقط بكفر أحد الطرفين ، ليس للنبى أو لأحد من المسلمين أن يقول : يارب أبى أو : يارب ولدى ، فيجىء الرد القرآنى

---

(١) هود ٤٤ .

الحاسم عليه : ﴿ **إنه ليس من أهلك** ﴾ بالإضافة إلى درس آخر ، وهو أن هذا الهالك كافر مآله إلى الجحيم والعذاب المقيم ولو كان ولدًا لنبى ، ودرس أخير هو أن النبوة لا تعفى صاحبها من التبعات والتضحيات ، وأن كل الأنبياء قد عانوا وشقوا ، فيكون ذلك مدعاة للنبى أن يصبر على كل بلاء .

وهنا قد يسأل سائل : إذا كان الأمر كما تظن ، وجاءت هذه الجملة معترضة فى القصة ، فلماذا لم يحذفها ويستأنف القصة ؟ !

والرد على هذا : أن حذفها يسىء إلى القصة تمامًا كالإطناب فيها . حيث إنه مما يخدم فكرتنا مجىء وصف هذه الأهوال للدلالة على أن تعاظمها ، ثم إقلاعها ، لم ينس نوحًا عليه السلام مصيبته فى ولده الهالك ، فيكون هذا أشد بيانًا لحاله .

كما أنها لو حذفت لأثارت سؤالًا عن مصير كل هذا الماء ، وما انتهت إليه السفينة ، فكفتنا هذه العبارات المعجزة مئونة كل سؤال وأفادت فى مجريات القصة ، كما نرى . ولا يتسع المقام لأكثر من هذا هنا . هذا عن دواعى الوصف فى القصة .

ولنعد إلى المحاورات ، وقد عرضنا فيما سبق للمحاورات التى دارت فى عالم الغيب ، أولًا وآخرًا فلننتقل إلى ما يقصه القرآن من محاورات دارت فيما مضى من حياة البشر على الأرض فى عالم الشهادة ، وشاءت إرادة الله أن تعلمنا بها ، لما فى هذا الإعلام من النفع ، وهذه المحاورات أيضًا لا تختلف فى القاعدة الأساسية لبناء المحاورات ، بل تزداد تأكيدًا ، وتمدنا بزاد وفير من المحاورات يدل على صدقها واطرادها ، ويؤكد كذلك على مدى ما تمتعت به من دقة ومطابقة بين الأسلوب فى المحاورة والسرد ، ومقتضى الحال فى القصة ، فى مواجهة الحشو والزيادة التى تصل إلى حد الخلل والتشويه الناتجين من عدم التناسب بين الأسلوب حوارًا وسردًا ومقتضى الحال فى القصة الفنية عند كتاب هذا الفن من البشر . تلكم قاعدة القوة والمقاومة .

لقد برزت قاعدة القوة الفاعلة ، والمقاومة المولدة للصراع ، الذى يتنامى بالحوار على الدوام ومن خلال السرد والوصف إذا دعت الضرورة ، برزت فى القصة القرآنية بأساليب مختلفة تنهض وحدها لتشكل منهجا دراسيا لمدرسة فى حرفية القصة وما يتفرع عليها من فنون . ومن هذه الوسائل :

١ – توزيع السرد فى أول القصة وآخرها وبين المشاهد :–

وعادة ما يحمل السرد فى أولها تلخيصا سريعا لفكرة القصة ، وقد يتضمن العبرة منها ظاهرة أو مضمنة فيها ، ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا** ﴾(١) . ويبدأ الحوار والمقاومة والصراع وقد يتضمن ذلك ربطا بالحال الحاضرة كما فى قوله تعالى ﴿ **إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً** ﴾(٢) . أو قوله ﴿ **كذبت قبلهم** ﴾ أى قبل قومك يامحمد أو ﴿ **وإن يكذبوك فقد كذبت** ﴾ . وغيرها من الأساليب التى استعملت للربط وبيان العلة فى الاتيان بالقصة .

أما فى ثنايا القصة فيأتى السرد لوصف مشهد لا يغنى فيه الحوار ولا ينهض به أو لبيان تغير الحال من زمان أو مكان او أشخاص ، وهذا نرى القصة تقتصد فيه وتحذف منه ما أمكن الحذف ، بل إن الحذف فيه يأتى بأعاجيب من الفوائد للقصة على نحو ما سنرى فيما بعد . ويأتى السرد فى صياغة القصة عادة بالعبرة التى تفيدها والعقوبة التى حلت بالظالمين ، وما ينتظر المعاندين من أمة محمد من الجزاء المناظر لهذا الجزاء إذا لم يردعهم عرض ما كان من أمر الأمم المكذبة من قبلهم ، ويطرد هذا الأسلوب فى الربط حتى يكاد يكون سمة أساسية من سمات الأسلوب القرآنى ، وقد تغنى فيه جملة واحدة عن

---

(١) يونس : ٧٥ – ٧٦ .

(٢) المزمل : ١٥ .

كثير نحو قوله ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ، أو المجرمين أو المكذبين . . .** ﴾

٢- الحوار فى المواجهات فى مراحل التعرف والتصعيد والتأزم والحسم .

نجد الحوار دائما فى القصة القرآنية دقيقًا فى إنتقاء ألفاظه فلا تغنى لفظة عن غيرها مما ذكر ، واضحًا فى معانيه ، فاعلًا فى حفز الطرف الآخر على الرد بما يدفع الحدث قُدُما إلى الأمام وصُعُدًا إلى الذروة كما فى الحوار بين موسى وفرعون فى سورة الشعراء وهو من أطول المحاورات فى القرآن الكريم ، وحوار ابراهيم مع قومه فى السورة نفسها ويتوزع الحوار والسرد فى السياق بدقة متناهية بحسب المراد للمعنى وللحبكة الفنية ، وبحسب اعتبارات معقدة للغاية كطبيعة الموضوع والعرض والمشهد والمرحلة من القصة ، والغاية من وراء سوقها ، والوحدات الثلاث كما فى قوله تعالى ﴿ **فلما ذهبوا به واجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب** ﴾[١] الذى فيه كثير من المحذوفات ، وذهب أكثر المفسرين إلى ان من هذه المحذوفات جواب لما[٢] ، ولكننا نميل إلى غير ذلك . حيث نتصور المشهد كله قبل الذهاب بيوسف لتنفيذ المؤامرة وبعده ، تقع حوادثه بين يدى يعقوب وأن ثمة راويا لما يقع خارج المكان ، وهذا الراوى هو الذى قال (فلما ذهبوا به . . .إلى (قالوا يا أبانا)[٣] فمكان العرض واحد ، ولهذا أُجْرِىَ الأسلوبُ على نحو معين ليوحى بهذا ، حيث جعل كل الأفعال معطوفة على ذهبوا حتى قوله وجاءوا

---

(١) يوسف : ١٥ - ١٧ .

(٢) الكشاف ٤٤٩/٢، الرازى ١٠١/١٨ .

(٣) ذكره أبو حيان فى البحر المحيط ٢٨٧/٥، وقال : وهو تخريج حسن .

على معنى ولما ذهبوا واجمعوا واوحينا وجاءوا قالوا ، فجعل الفعل قالوا جوابا لِلَمَّا أو أقامها مقام الجواب لأجل أن يبين أن كل ما جاء على لسان الراوى سردًا ما بين قولهم الأول قبل ذهابهم وقولهم الثانى بعد مجيئهم ؛ ليس من قبيل السرد الذى يفصل بين المشاهد ويقطعها ، وإنما هو تعليق من الراوى على ما يجرى خارج ساحة العرض التى جرت فيها احداث المؤامرة من أولها إلى آخرها ، باستثناء مشهد القسوة الذى أبعد عنها وجرى ذكره رواية على لسانهم ، كل ذلك يدل على مدى دقة القرآن فى محاوراته وسرده [1] .

٣ – الحوار القافز بين المشاهد مع حذف السرد تكثيفا للمشهد الفاعل المؤثر .

وهذا من الأمور المُعْجِبة التى سنعرض لها فى هذه الدراسة ، وقد تكرر كثيرًا فى قصص القرآن ولا سيما فى طوالها كقصة يوسف وقصة موسى فى طه وغيرها وقصة سليمان فى النمل ، وغيرها من القصص ، حيث نجد الحوار يدور فى مشهد من المشاهد ، ويأتى إلى قول ترد فيه مناسبة مشهد آخر تال فإذا نحن فى قلب المشهد التالى المشار إليه ويستمر الحوار الجديد إلى نهايته ، ويتم الانتقال من ذروة المشهد الأول إلى الثانى عبر الزمان والمكان والأشخاص ليلتحما حتى كأنهما مشهد واحد ، دفعا للحدث ، وحفاظا على قوة التأثير والجذب لدى المتلقى ، وستأتى أمثلة كثيرة عليه فى وصف الحذف الانتقالى .

٤– حذف لفظ القول استحضارًا للمشهد .

ويتعلق بدقائق الحوار ظاهرة تطرد فى كثير من المشاهد ، ولا سيما مشاهد القيامة والحساب ، حيث ينطلق القول غير معزو إلى قائل معين ، إمعانا فى

---

(١) سنرى فيما بعد كيف تغلب وحدة المكان على مشاهد المحاورات فى القرآن على هذا النحو .

حضور المشهد ، كأنه مشهد مسرحي يختفي فيه صوت المؤلف وصوت الراوي في القصة وإيهاما أو إقناعًا للسامع بأنه قد صار فعلا في عالم آخر حيث يحدث كل شيءدون حاجة إلى أن يكون فاعله منظورًا أو معروفا بالضرورة لدى شاهده أو سامعه ، مصداقا لقوله تعالى عن بعض ما يحدث يومئذ ﴿ **فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾ في شأن من استحقوا العذاب ، أما المؤمنون فيخاطبهم قائل غير معروف دون أن يذكر لفظ القول ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك** ﴾ [1] وقد نستنتج هنا أن القائل هو رب العزة تشريفا لهؤلاء وتكريما لهم ، إن لم نؤول ما بعده على الالتفات ، ولا حاجة لهذا ، وعموما فقد حذف لفظ القول وإن عرفنا القائل فالشأن أن يقول : أما المؤمنون فنقول لهم . . . . وهذا له نظائر كثيرة في مشاهد مماثلة كما في قوله تعالى ﴿ **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات** . . . [2] ﴾ وقوله ﴿ **هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم** ﴾[3] وقوله ﴿ **يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرًا** ﴾[4] أي قائلين ، وقوله ﴿ **وهم يصطرخون فيها ربنا اخرجنا نعمل صالحًا** ﴾[5] أي قائلين ، وقوله ﴿ **يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر** ﴾[6] أي ويقال لهم ، وقوله ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾[7] أي يقال له عند مجيئها ذلك ما كنت منه تحيد . وقوله ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت**

---

(١) الفجر ٢٥ – ٣٠ .

(٢) الحديد ١٢ .

(٣) سورة ص ٥٩ .

(٤) سورة طه ١٠٣ .

(٥) فاطر ٣٧ .

(٦) القمر ٤٨ .

(٧) سورة ق ١٩ .

فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾[1] أى ونقول له ، وقوله ﴿ **وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب .ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود** ﴾[2] أى ونقول لهم هذا ما توعدون ، ونقول لهم أيضًا ادخلوها بسلام ، ومثل هذه الأفانين من الحذف تساعد فى جعل السامع ينطلق بخياله مع ما يسمع من وصف حتى يصير وكأنه حاضر فى الموقف الموصوف ويسمع بأذنه ما يقال كما يشاهد بعينه ما يوصف ، وفى كلمة نقول ويقال هنا تغريب[3] يخرجه من دنيا هذا المشهد ويرده إلى الواقع الذى يعيشه قاطعا الصلة الوجدانية بينه وبين هذا المشهد فيقل اثر المشهد فيه نفسا وروحًا ووجدانا وعقلًا عندما ينتهى من سماعه . ولنا إليه عودة .

٥- وهناك أفانين أخرى من الحذف فى الحوار لإثارة الخواطر وحفز حاسة التأويل لدى المتلقين وستأتى .

٦ -الحوار المفاجىء ممن لا ينتظر منه وعلى غير توقع والمفاجأة فى أثناء الحوار .

وهذا فى القرآن الكريم أيضا كثير كنطق الطفل فى المهد ، ونطق الحيوان كالهدهد والنملة ، وكلام الملائكة والجن مع رسل الله كإبراهيم ولوط وسليمان وغيرهم ، وتبرير الأفعال العجيبة كفعل الخضر وحديثه مع موسى

---

(١) سورة ق ٢١ - ٢٢ .

(٢) سورة ق ٣١ - ٣٤ .

(٣) التغريب : إقناع المتلقى بأن ما يحدث أمامه ليس واقعا ولا حقيقيا ، ولو كان قريبا من الواقع أو ممكن الحدوث وهو عكس الايهام الذى يشعر المتفرج بأن ما يحدث أمامه حقيقى إلى درجة الاندماج . انظر : دراستنا : قضايا الأدب المسرحى المعاصر بمصر - رسالة دكتوراة ١٩٨٢م . جامعة الأزهر . ص ١٠٣ .

وغير ذلك . ولنا هنا وقفة .

إذ إن تدخل العناصر غير البشرية فى القصة والحوار القصصى فى التراث البشرى أصبح ينظر إليه على أنه من قبيل الخرافات ودلالة على طفولة العقل البشرى وبدائيته ، على الرغم من المتعة والإثارة الحاصلة من وراء هذا التدخل ، وما يسهم به فى تنمية الخيال البشرى . وحفز البشر على محاولة تحقيق المستحيلات السابقة بالمخترعات الحديثة من خلال نظريات علمية حقيقية ، كانت كلها من قبيل الخيال فيما سبق من عصور .

كل هذا حق وصدق ولا يختلف عليه اثنان ، ولكن تدخل العناصر والقوى غير البشرية فى مجريات القصص القرآنى يختلف أيما اختلاف عنه فى تلك القصص ، يعلم ذلك أرباب فن القصة كما يعلمه كل من قرأ أو سمع قصة أو خرافة من الخرافات اليونانية والرومانية القديمة او غيرهما من الخرافات الشعبية عن سائر الأمم ، إذ إنَّ أدلة صدق ما يسوقه القرآن على هلاك أمم بريح صرصر عاتية أو بمطر من السماء أو بطوفان باتت من قبيل الحقائق التاريخية أو الجيولوجية التى تدرس فى كتب العلم ، ونقدمها لمن لا يقنعه إلا الدليل المادى ، كما أن اكتشاف لغة الحيوانات قد تعدى مرحلة النظريات العلمية الآن وصار مما يمارس فى الملاهى وحدائق الحيوان ، بل على قارعة الطريق ، بالإضافة إلى عجائب عالم الحيوان التى ما زلنا بسبيل اكتشافها ، وكذلك مسألة الانتقال عبر المكان مهما تباعدت المسافات فى أقل زمن أو فى غير زمن باتت حقيقة وبات الوصول فيها إلى غايات مذهلة مسألة وقت ، وغير ذلك من الأدلة التى تساق فقط للماديين الذين لا يقتنعون إلا بما هو محسوس ومنظور ، لما فى طبيعتهم البشرية من نقص وقصور ! وإليهم البشرى بأن الفارق والفاصل بين عالم الروح وعالم المادة قد بات أيضا مترقبا زواله ، وإنما هى مسألة وقت وقد ضاق إلى حد لا ينكر معه عالم الروح وما وراء

المادة إلا من فقد الحس المادى كما فقد من قبل أحاسيسه الفطرية بما وراء المحسوسات والماديات .

وكما قلنا فإن ما وراء المادة فى القرآن عليه أدلة مادية تثبت كل يوم وتضيف دليلا جديدًا على معجزة القرآن ، هذا بالإضافة إلى واقعية هذه الأمور اذا ما قيست على الخوارق التى تعمر قصص من ذكرنا من القصاصين . . . ورحم الله شهر زاد وسامحها ! !

٧- الإجمال والتفصيل وتوزيعه فى القصة الواحدة أو السورة الواحدة أو فى القرآن كله حسبما يقتضيه الحال . وهذا هو ما سنبسطه فى الصفحات التالية . إلى غير ذلك من سمات القصة ووسائلها فى الكتاب الكريم .

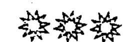

الفصل الخامس

التفصيل والإجمال

نرى القرآن يبسط بعض قصصه بسطا مطولا ، ويقتضب فى بعض آخر أشدَّ الاقتضاب ، أو يبسط القصة فى موضع ويقتضبها فى موضع آخر ، أو يذكر القصة مجملة ثم يشرع فى تفصيلها ، أو يبسط بعض مجريات القصة ويفصل أحداثها ، ثم يجمل بعضا آخر منها أو يقفز فوقه قفزًا ، ولكل واحدة من هذه الحالات علة تتفق والغرض من القصة ومقاصد القرآن العامة ، والخاصة بالقصة او بالسورة ، وتتفق هذه الغايات إلى حد بعيد مع ما قيل من قبل فى ظاهرة انتقاء الأحداث . ومن العبث إعادة هذه التعليلات هنا .

غير أن التفصيل والاجمال يتعلق من طرف آخر بالفن القصصى وأساليب فن القصة فى تحقيق الغاية التى تساق من أجلها هذه القصة كما تتعلق بالإيجاز والإطناب والمساواة على نحو ما وصفها البلاغيون وفصلوا فيها .

فطريقة الإجمال قبل التفصيل فى سرد القصة تجىءوكأنها مرحلة العرض والتعريف بالقصة فى مقدمة تسبقها ، لإعداد النفوس للعرض الأتى المفصل للقصة ، وللتعريف بحكمة الإتيان بها فى هذا الموضع ، وقد تحوى هذه المقدمة الموجزة طرفا معجبا من القصة لتجذب السامعين ويشبهها فى ذلك العرض الذى يقدم دعاية لعمل قادم فى الخيَّالة أو المرئى ، فيؤتى فيه بمشاهد معجبة لجذب الناس إليه ليحرصوا على مشاهدته ، كما فعل فى قصة يوسف عليه السلام بالبدء بقص الرؤيا والتعليق عليها ثم عرض القصة من أولها ، أو البدء بعرض مشهد مثير كمشهد موسى فى الصحراء وقد جن عليه الليل وتفرقت عنه أغنامه ، ولمح نارًا فاطمأن بها ، وإذا بمن يكلمه فيها[1] . أو بعرض

---

(١) النمل ٦ - ٩ .

معجزة من المعجزات البطولية أو الخارقة ﴿ **ولقد آتينا دواد منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنّا له الحديد** ﴾[1] .

والغالب على مقدمة القصة ان يكون الخطاب فيها موجها للنبى ﷺ ، دلالة على أن هذه القصة تساق أصلًا لأجله ، إما بطريقة مباشرة لتثبيته ، وإما تأييدًا لدعوته بسوق معجزة جديدة من خلال هذه القصة ، وإما لردع معانديه وتخويفهم ، وفى كل حال يكون الخطاب موجها إلى النبى ﷺ لبيان الحكمة من وراء هذه القصة ، ففى مثل قوله تعالى ﴿ **نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون** ﴾[2] يبلغه الله تعالى بأنه يقص عليه ماهو آت ، ويتوجه به إليه ، والمقصود من وراء ذلك أن يتوجه بها إلى القوم المؤمنين الذين يعقلون العبرة منها ، أما غيرهم فهم عنها عمون ، وفى سورة الكهف تطول المقدمة المعرفة بأهل الكهف إلى حدٍّ ما ثم يشرع فى القصة نفسها بتوجيه الخطاب إلى النبى ﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق** ﴾ أما المقدمة نفسها فتتصدرها آية تعمل على إثارة الانتباه وهى قوله ﴿ **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا** ﴾[3] وهى أيضا تخاطب النبى ﷺ ولكن بأسلوب استفهامى بلاغى يختلف عن مقدمات القصص الأخرى التى يغلب عليها مثل قوله : ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن** ﴾[4] .

ومن الإجمال نوع كالرمز الذى يأتى فى أول القصة ليكون مفتاحها ، الذى تنبنى عليه حبكتها كلها ، وهذه ذروة الفن والحرفة فى القصة ، ومن هذا القبيل ما جاء فى سورة يوسف « أحسن القصص » فى صورة رؤيا

---

(١) سبأ ١٠ .

(٢) القصص ٣ .

(٣) الكهف ١١ – ١٣ .

(٤) يوسف ٣ .

يوسف عليه السلام الذى رأى ﴿ **أحد عشر كوكبا والشمس والقمر** ﴾ له ساجدين فكانت رؤياه هذه مفتاح القصة بأن كانت سببًا فى البلاء الذى أصابه من حسد إخوته من جهة ، وكانت إرهاصا بنبوته وآية عليها بالرؤيا الصادقة والقدرة على تعبير الرؤى ، ثم هى فى نهاية القصة تتحقق على نحو يفسر هذا الرمز : الشمس والقمر هما أبوه وأمه ، والأحد عشر كوكبا هم إخوته ، وهم يسجدون له جميعا فى نهاية القصة ، لا على سبيل العبادة وإنما هو أسلوب من أساليب التحية فى ذلك العصر أن يسجد بعضهم لبعض ، وسنرى فيما بعد أثر هذا المفتاح فى مجريات القصة فى سائر مراحلها .

وقد يأتى الإجمال فى خاتمة القصة ليبين العبرة منها ، كقوله تعالى فى آخر سورة هود ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾[1] .

وقد يأتى فى آخرها توكيدًا لما جاء فى أولها كما فى يوسف ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء** ﴾[2] وهكذا .

وقد تعرضنا من قبل لأساليب الانتقاء فى القصة التى منها أن ترد القصة مجملة فى موضع ومفصلة فى موضع آخر ، وكل هذا ضرب من ضروب الإجمال والتفصيل ، وهناك ضرب آخر فيه إجمال سبيله الإيجاز والحذف وهو أصل فى أسلوب القصة القرآنية ، وفيه التفصيل الذى سبيله الإطناب ، الذى يطرأ فيها لعلة تتعلق بموضوع القصة أو بنائها ، وهذه العلة قد تخفى أحيانا على من يجتهد فى طلبها ، وقد تظهر واضحة ، فنجد وراءها من طرق التعبير والأساليب ما يؤكد على معجزة القرآن ، وأنه بلغ من الدقة حدًا يستحيل

---

(٤) هود ١٢٠ .

(٥) يوسف ١١١ .

يستحيل معه على بشر أن يبلغ أغوارها مهما بلغت قدراته ، إذ إننا نجد فى الأسلوب الواحد إطنابا ظاهرًا ، فإذا فتشنا وراءه وجدنا فى ثناياه إيجازًا ، وحذفا ، ونجد علة هذا وعلة ذاك ، ونجد كل ظاهرة متناسبة تمام التناسب مع الأسلوب الذى استدعته ، بلا زيادة ولا نقصان .

وأبرز مواطن الإطناب فى القرآن الكريم وردت فى مواضع أكثرها يتعلق ببنى إسرائيل ، ولا سيما المحاورات التى دارت بينهم وبين أنبيائهم موسى وغيره عليهم السلام ، ولا غرابة فى هذا فبنو إسرائيل ديدنهم الشقاق والعنت ، وتنكب دعوة الحق ، وبهذا تزداد مقاومتهم لأنبيائهم ولكل دعوة صالحة ولكل حق ، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بالأسلوب الذى سيقت به حادثة ذبح البقرة ، والطريقة التى صيغت بها تفصيلات القصة من خلال المحاورة الطويلة نسبيا ، إذا ما قيست من حيث الأهمية المجردة للحادثة على حوادث أخرى وردت فى الكتاب الكريم ولم تكن بهذا التفصيل مع أنها اكثر أهمية من هذه الحادثة ، كبعض أحداث قصص هود وصالح ولوط وسليمان وداود !

تذكر المصادر أن رجلا من بنى اسرائيل قد قُتل ، قتله بعض ذوى قرابته ، طمعا فى إرثه ، ثم طمعوا أكثر من ذلك فى أن يدَّعوا أن غيرهم قد قتله ليحصلوا على ديته بالإضافة إلى هذا الأرث ، فأتوا موسى عليه السلام ، ليعرف لهم شخص القاتل ويحكم عليه بالدية بادعائهم ، ففوجئوا به يأمرهم أن يذبحوا بقرة ، فخشوا ان يكون فى عمله هذا ما يكشف خبيأتهم ، فماطلوا لكى يحولوا بينه وبين بغيته وظلوا يماطلون على النحو المبين فى الآيات : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ**

فَٱفعَلُواْ مَا تُؤمَرُونَ . قَالُواْ ٱدعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَونُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفرَآءُ فَاقِعٌ لَّونُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ . قَالُواْ ٱدعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَينَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللهُ لَمُهتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلأَرضَ وَلَا تَسقِي ٱلحَرثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ ٱلـَٰٔنَ جِئتَ بِٱلحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفعَلُونَ ﴾[1] . هى المدافعة بين نبى الله وبين بنى اسرائيل المجرمين ، الذين جعلوا يضعون العراقيل أمام تنفيذ ما أمر به وهو بوحى الله تعالى لهدف يعلمه الله وأطلع عليه رسوله : قوة الحق وإرداة الخير المتمثلة فى هذا الأمر ، تقف فى مواجهتها مقاومة بنى إسرائيل الذين دأبوا على المخالفة ولا سيما فى كل أمر فيه إرشاد لهم وهداية أو مصلحة عامة أو ردع عن غىٍّ وباطل مما ينغمسون فيه كلما خفت صوت الحق بينهم أو لانت قبضته ، وهكذا تنامى الحوار وتصعد وهم يردون عليه بوضع عراقيل جديدة واظهار للجهل أو التجاهل تغطية لامتناعهم عن تنفيذ الأمر وطال بهم الأمر فى ذلك ، ولابد لأمر الله تعالى من أن ينفذ مهما كانت معاندتهم له ، فأعنتوا أنفسهم وأرهقوها ، واستسلموا فى النهاية أمام الأمر الواقع ، وقاموا بذبح البقرة التى اشتروها بمال كثير ، وما كادوا يفعلون ! ! ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا من البداية لأراحوا واستراحوا ، ولكنهم مريبون يخشون أن تكشف الجريمة التى ارتكبوها ، وتبعهم غيرهم على العنت رغبة فى المخالفة ، وليس لهم مصلحة فيها ، وإنما هدفهم مضايقة نبى الله ، فلم يسلموا له ، ومضوا فى سؤاله وطلب الايضاح منه وما كادوا ينتهون ، وقد ذكر الله تعالى المحاورة بتمامها – على طولها ، متضامة مع إغفال الفترات الزمنية التى كانت تمضى بين كل أمر واعتراض ، حتى تتكشف وتمثل أمامنا صورة نادرة من أساليب العنت والمكابرة التى تبرز وتسفر عن نفسها من

---

(١) البقرة ٦٧ – ٧١ .

بين سائر أخلاق بنى إسرائيل وأفعالهم الشائنة ، عسانا نعى دروس القرآن والتاريخ !

وتعود الآيات مرة أخرى إلى الأسلوب القرآنى المعتاد فى إيجازه ، بعد مضى هذه المحاورة المسهبة ، المتسببة من تدافع عناصر الحوار ، وبعد أن حققت أغراضها ، لتذكر فى إيجاز شديد السبب الذى من أجله أمر نبى الله موسى بذبح البقرة ، وجاء فيها الكثير من الحذف والانتقاء فقال تعالى ﴿ **وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون**[1]وههنا نكت وسائل كثيرة نقتصر منها على أشدها التصاقا بموضوعنا :

أولها :- أن فى الآيات تقديما وتأخيرًا مقصودا ، حيث إن ترتيب القصة بحسب تعاقب أحداثها يبدأ من خبر القتل وهو الآية رقم٧٢ ، ثم الأمر بذبح البقرة وما تبعه من العنت والمتمثل فى الأيات (٦٧-٧١) يأتى فى الوسط وهو المقدم فى الذكر ، ثم يأتى أخيرًا الأمر بضرب القتيل ببعض البقرة ليحيا .

وعلة التقديم هنا فيما نرى أمران :

١ - إظهار عنت بنى إسرائيل على النحو المبين آنفا .

٢ - تأجيل عنصر المفاجأة المصحوب بالعبرة من القصة وهى قوله تعالى ﴿ **كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون** ﴾ .

ثانيها :- أنَّه على الرغم من أنَّ ظاهر القصة أن المطلوب هو الكشف عن القاتل ، فإن هذه الجزئية بالذات قد حذفت من القصة[2] ،ووجهت خاتمتها نحو غاية أخرى أولى من ذلك وهى بيان قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ،

---

(١) البقرة ٧٢ - ٧٣ .

(٢) أشار الزمخشرى إلى هذا الحذف فى الكشاف ١ /١٥٣ ، ولم يعلل له .

أما معرفة القاتل فتصبح أمرًا تافها جانبيا ، معلوما بالضرورة إذا ما قيس على آية الله العظمى التى تحققت فى هذه القصة وهى إحياء الميت ولهذا قال : ﴿ **كذلك يحيى الله الموتى** ﴾ ولم يقل « كذلك نكشف سر القاتل » ! .

وأصل الأسلوب على ترتيب حوادثه دون حذف نتصوره كالآتى :

وأذكروا إذ قتلتم نفسا ، فاختلفتم فى قاتلها واتهم بعضكم بعضا فذهبتم إلى موسى ليقضى بينكم ، فأمركم بذبح بقرة . . . فجادلتموه فيها وماريتموه حتى بينها لكم فذبحتموها بعد إعنات ، فأمرناكم أن تأخذوا بعضا من أعضائها وتضربوا به هذا القتيل الذى جيف فى قبره ، فإذا هو يعود حيا ويخبر بقاتله ويسميه ، ثم يموت كما كان ، هكذا يحيى الله الموتى ويريكم قدرته لعلكم تعقلون وتهتدون .

وهكذا جاء الحذف هنا لتحقيق غاية هى توجيه بنى إسرائيل إلى ما هم عنه غافلون من قدرة الله وهم يحسبون أنه يعجز عن معرفة القاتل ، فإذا هو يحيى لهم القتيل نفسه ! كما يجيء الإطناب والتفصيل فى المقابل فى صدر الخبر ليبين أخلاق بنى إسرائيل وطباعهم . وهكذا تتحقق الغاية فى كلٍ ، هذا بالتفصيل ، وهذا بالإجمال والحذف .

✵✵✵

وما أكثر مواقف بنى إسرائيل المشابهة مع موسى عليه السلام ، ولكنا نقتصر هنا على ما يأخذ منها سبيل القصة أو الخبر وجزء القصة ، كهذه الحلقة المهمة من قصتهم معه ، فى أخريات حياته ، والتى كانت سببًا فى التيه الذى مات فيه هارون وموسى ، وظل بنو إسرائيل إلى أن جاءهم من خرج بهم كما سنرى فيما بعد . قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا**

لَم يُؤتِ أَحَدًا مِنَ ٱلعَٰلَمِينَ . يَٰقَومِ ٱدخُلُواْ ٱلأَرضَ ٱلمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللهُ لَكُم وَلَا تَرتَدُّواْ عَلَىٰ أَدبَارِكُم فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ . قَالُواْ يَٰمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَومًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدخُلَهَا حَتَّىٰ يَخرُجُواْ مِنهَا فَإِن يَخرُجُواْ مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ . قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ ٱللهُ عَلَيهِمَا ٱدخُلُواْ عَلَيهِمُ ٱلبَابَ فَإِذَا دَخَلتُمُوهُ فَإِنَّكُم غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ . قَالُواْ يَٰمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذهَب أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[1] .

وهذه الحلقة من قصة موسى والمحاورة فيها بكل ما غصت به من شقاق وعنت وجرأة بالغة على الله ورسوله ، وضعها المسلمون الأوائل نصب أعينهم يوم بدر وقد اجتمع عليهم كفار مكة فى جند يعدلون ثلاثة أمثالهم ، فلم تهتز لهم شعرة ، وإنما جاءت مقالتهم للنبى ﷺ على النقيض من هذه المقالة المتعنتة الجريئة إلى حد الكفر ، فكان قول المقداد[2] للرسول عليه الصلاة والسلام : أبشر يا رسول الله ؛ فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن والذى بعثك بالحق لنكونن من بين يديك ومن خلفك ، وعن يمينك وعن شمالك ، أو يفتح الله لك . أو قال امض لما أمرك الله ، فنحن معك ،و الله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد- يعنى مدينة الحبشة- لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير . وقال له سعد بن معاذ[3]« قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك

---

(١) المائدة ٢٠ - ٢٤ .

(٢) المقداد بن الأسود الفارس الوحيد الذى شهد بدرًا .

(٣) شيخ الأنصار .

عهودنا ومواثيقنا ؛ على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ؛ فوالذى بعثك بالحق ، إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا . . .[(١)] فعنت بنى اسرائيل كما وصفه القرآن ، قفز إلى الموقف المشهود يوم بدر ، ليؤدى دوره فى تربية الرعيل الأول من أئمة أمتنا ، ولولا ما لمسوه فى القصة من أوصاف بنى إسرائيل التى برزت من خلال محاورتهم البغيضة ما وردت القصة على أذهانهم .

وشتان ما بين مقالة بنى اسرائيل ومحاورتهم ، ومقالة أصحاب النبى ﷺ ومحاورتهم . فجميع أوجه الاختلاف فى المستوى الإيمانى ، والطباع ، والمواقف العامة ، ومكانة نبيهم بينهم ، برزت فى المحاورتين ، من خلال قوة الدفع التى أساسها المقاومة فى الأولى . وأساسها الموافقة والتسليم والإقدام فى الثانية ، والتطوير فى اتجاه الصراع والعقدة التى تنتهى بعقوبة التيه فى الأولى ﴿ **فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾[(٢)] . أماالتطوير فى اتجاه الموافقة فى الثانية ، فقد انتهى بالنصر فى بدر نصرًا منعدم النظير .

إن موسى لم يكن وحده فى مواجهة فساق بنى إسرائيل بل كان معه أخوه ومعه على الأقل الرجلان المذكوران فى الحوار ، وشاركا فى تصعيده بتبنيهما وجهة نظر موسى ووقوفهما بجانبه ، وقد كانت قوة الحق فى جانبه ، إلا أن الله تعالى شاء أن يردهم عن هذه الديار التى لا يستحقونها لظلمهم وقلة إيمانهم ، وفسقهم ومجونهم الذى بلغ حدًا بشعا بمقالتهم السفيهة « اذهب أنت

---

(١) الطبرى ٢ / ٤٣٤ - ٤٣٥ ، سيرة ابن هشام ٢ /٦٣ - ٦٤ .

(٢) المائدة ٢٦ .

وربك فقاتلا » ، وما قدروا الله حق قدره ، ولهذا استحقوا تلك العقوبة التى دامت بهم بعد موسى وهارون ، حتى أرسل الله تعالى نبيا ، أذن لهم بالخروج من التيه على يديه ، فبشرهم بطالوت ملكًا لما طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا فى سبيل الله ويدخلوا الأرض المقدسة فكان أول شيءفعلوا ، أن عادوا من جديد إلى الخلاف والعناد والشقاق ، ولم يسلموا لأمر الله ، وها هى ذى قصتهم كما وصفها القرآن :-

﴿ ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين . وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم . وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين . فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾[1] .

---

(١) البقرة ٢٤٦ - ٢٥٠ .

فالقصة حتى هذه المرحلة مرت بأربعة أدوار ، كل دور منها يعبر عن دور من أدوار عنت بنى إسرائيل إما بالسرد وإما بالحوار :

الأول : مقدمة القصة التى لخصتها من بدايتها إلى نهايتها : أنهم طلبوا من النبى أن يمكنهم من الجهاد ويجعل لهم قائدًا ، فعلم أنهم غير جادين سواء فى طلبهم الأول وهو أن يعين لهم قائدًا (ملكًا) أم فى طلبهم الثانى ، وهو الجهاد ، فبدأ النبى بالتأكد من جديتهم فى الثانية التى هى أشق الأمرين فأجابوا مؤكدين على رغبتهم وعللوها بأنهم قد أخرجوا من ديارهم إلى التيه وهم يريدون أن يعودوا إلى الأرض المقدسة التى كتب الله لهم — مشيرين ضمنا إلى خطيئة أسلافهم مع موسى وربه التى عوقبوا عليها بهذا التيه ، ثم تقفز هذه المقدمة إلى النهاية لتبين خلفهم وظلمهم وفسقهم ، عند ما تولوا وأبوا أن يقاتلوا فى سبيل الله وفاء بما عاهدوا الله ونبيهم عليه .

فكأنه ذكر مقالتهم فى أوله بنصها لتكون دليلًا دامغًا ضدهم ولا سيما إذا عاد ليقرن ذلك بفعلهم الذى عدل فيه إلى السرد والوصف ، وهو قد استخدم فى كل موضع ما هو أوقع فيه : القول والمحاورة فى الأول ، والوصف والسرد فى الآخر مطابقًا بذلك مقتضى الحال فى القصة .

الثانية : المرحلة الأولى من تفصيلات القصة « مرحلة التعريف والتكليف » حيث أخبرهم نبيهم بمن وقع عليه اختيار السماء ليكون ملكًا عليهم ، بناء على طلبهم السابق فى صدر القصة فما كان منهم إلا أن اعترضوا على هذا الاختيار على الرغم من أن النبى قد أخبرهم بأن الله هو الذى بعث لهم طالوت ملكًا ، فهم لا يبالون بأمر الله ويعترضون عليه ، ويضطر النبى إلى أن يبين لهم مقومات هذا الاختيار وحيثياته . بالطريقة نفسها التى ألجأوا إليها موسى عليه السلام فى قصة البقرة ، ويبدو أن القوم لم يقتنعوا بهذا التعليل مما ألجأ النبى إلى أن يخبرهم بأن الله قد جعل لهم علامة وآية تدل على أن

هذا الاختيار من عند الله ، وهى ذلك التابوت ، ولم يكتف بذلك بل عقب عليه لما عرف من عنتهم وظلمهم وقلة إيمانهم بأنه يمثل آية لهم إن كانوا مؤمنين أما من لم يؤمن فلن يقوم له هذا ولا غيره دليلًا ولا أية لأنه مختوم على قلبه !

وفى هذه المرحلة كان الحوار هو أساس البناء القصصى الذى لم يخل من مظنة الحذف ، على الرغم من أن السمة الغالبة فى القصة هنا هى التفصيل لا الإجمال ، ولكن الحذف هنا يجىء دليلًا على وجود جزء أو مرحلة من المحاورة يزيد فى وصف بنى إسرائيل بالمدافعة بالباطل والعنت وضعف الإيمان ، على الرغم مما ألحقته بهم هذه الأخلاق من العقوبات ، وآخرها هذا التيه نفسه ، فالحذف هنا يحقق اندفاع الحوار نحو الغاية قفزًا مع ضمان إعطاء الانطباع للمتلقى بحقيقة ما وقع فى المرحلة المحذوفة وهو أنهم لم يقتنعوا إلا بهذا الدليل وهذه الآية . بل إن فى تفصيلات القصة التى ذكرها المفسرون والمؤرخون ما يدل على حذف فى التفصيلات أكثر من ذلك .

الثالثة : مرحلة التصعيد والمواجهة :

وبين هذه المرحلة والتى قبلها مرحلة محذوفة[1] إذ إنه انتهى فى السابقة إلى اختيار الملك عليهم وإقناعهم به ، وبدأ هذه والجيش وراء طالوت فى الطريق إلى ميدان المعركة !

وهنا تدريب على الصبر على البلاء والقتال كما تفعل فرق الجيوش المسماة « الصاعقة » ! حيث يخبرهم ملكهم بأنهم سيصلون وهم على حال من الإجهاد والعطش الشديد إلى نهر ، سيختبرهم الله به ، فمن شرب منه فقد ضعف أمام الإغراء ولم يستطع صبرًا على الابتلاء بقلة الماء ، فكيف يصبر على بلاء أشد وهو الحرب وبذل النفس ! أما من يمرون بالنهر فلا يشربون

---

(١) الطريقة التى استعملها النبى فى الكشف عن الملك المختار وغير ذلك . انظر الكشاف ١ /٢٩٢ وقصص الأنبياء وتاريخ الطبرى وغيرها .

منه إلا من تناول غرفة واحدة بيده فهؤلاء من يصلحون للقتال لأنهم تغلبوا على أنفسهم وصبروا ابتغاء مرضاة ربهم ، فيرجى أن يكونوا قادرين على مقارعة الأعداء والصبر على البلاء .

وهذه المرحلة كانت سردًا كلها إلا مقالة طالوت لهم ، وهى أمره لهم الذى جاء بنصه عمدًا ليبين لهم أن هذا الأمر هو من عند الله وأن صفته هكذا .

ثم يُحذف من هذا السرد جزء مهم عمدًا – على طريقة القفز إلى النتائج – استغلالًا للقدرات التأويلية لدى المتلقى حتى لا تتواكل مخيلته ، وهذا المحذوف هو خبر ورودهم هذا النهر وتحققهم من صدق ما أخبر به هذا الملك وكان هذا يكفى ليردعهم عن مقارفة ما نهوا عنه ، لأن من يعلم دونهم وهو منهم أنهم سيردون نهرًا ، ويتحقق لهم صدقه ، كان ينبغى أن يعلموا أنه صادق فيما وراء هذا وهو بقية نبؤءته عن النهر ، ولكنهم لم يرتدعوا ، إلا قليلًا منهم !

الرابعة : ذروة الحدث وبدء المعركة ، وهى المرحلة الحاسمة فى القصة حيث يقف طالوت وجنوده الذين آمنوا معه واجتازوا الاختبار على استعداد للقتال ، فإذا بعضهم يتخاذلون ويعلنون أنهم لا يريدون القتال ، وتولوا عنه كما أخبرنا فى أول القصة ، ولكن قليلًا ممن اطمأنت قلوبهم بالإيمان بالله يثبتون مع ملكهم ويقولون : ﴿ **كَم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ وهكذا نرى أن بنى إسرائيل لا تفارقهم طباعهم ، حتى ولو كانوا هم صفوة الصفوة من بنى إسرائيل ، وحتى لو كان الوقت حازبًا والمواجهة حاسمة على هذا النحو .

وطبيعة الحوار فى مرحلة الذروة الإيجاز والاقتضاب وترك الفضول وسرعة الإيقاع ، ولهذا اختزلت المحاورة بين الفريقين اختزالًا كبيرًا جعلها تقتصر

على عبارتين ، فقط ، عبرت الأولى عن نظرة الخالفين ، والثانية عن عزيمة المؤمنين . ليتناسب الحوار مع طبيعة المرحلة .

ثم لم يدعنا الأسلوب القرآنى مع الهواجس والظنون والألم الناشيء من توقع مغبة فعل هؤلاء الناكصين على أعقابهم ، ولكنه يبادر بتبديد حيرتنا ويقفز فوق المرحلة التالية كلها مستبعدًا مشاهد العنف خارج المشهد المنظور ويختصر المرحلة التالية كلها إلى خبر عابر سريع يتضمن دعاء إلى الله تعالى بالنصر ﴿ **ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ ويخبرنا بعد ذلك بأسلوب الماضى بما تم فى مرحلة أخيرة من القصة وخاتمة سعيدة تتضمن مفاجأة ، هى ظهور شخصية داود البطولية ، ووراثته ملك بنى إسرائيل ليؤسس مملكة لهم فى الأرض المقدسة للمرة الأولى ، ﴿ **فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء** ﴾[1] .

ووجوه التفصيل والإطناب التى ذكرنا هنا ونظائرها فى القرآن الكريم[2] هى الجديرة بالبحث والتعليل ، ولئن كانت زيادة كلمة أو وضع ظاهر فى موضع المضمر فى نحو قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ ثم قوله :﴿ **ثم عرضهم على الملائكة** ﴾ وقوله :﴿ **وإذ قلنا للملائكة** ﴾[3] بوضع الإسم الظاهر فى موضع يمكن أن يحل الضمير فيه

---

(١) البقرة ٢٥١ .

(٢) أكثر الآيات التى انصب فيها الحديث على بنى إسرائيل فى سورة البقرة تنحو هذا المنحى ويصدق عليها كثير مما ذكرنا . وكذلك خبرهم فى عبادة العجل فى سورة الأعراف وفى النساء وغيرها .

(٣) سورة البقرة : ٣٠ .

بأن يقول ثم عرضهم عليهم ، وإذا قلنا لهم ! أو تكرار النداء باسم موسى فى سورة طه فى الآيات ١١ ، ١٧ ، ١٩ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٨٣ بعد المرة الأولى ، إن كان مثل هذه المواضع جديرًا بالبحث والتنقيب وراءه ، فأجدر منه مثل ما ذكرنا من مواضع ، لا نهون من شأن هذا ، ولا نفرط فى حق ذاك من العناية كصاحبه !

ومن هذا القبيل ما اجتهد به بعض المفسرين فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وما تلك بيمينك يا موسى . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى** ﴾[1] بأن موسى عليه السلام ، لما عرف أنه يكلم الخالق جل وعلا . وأن هذا المقام فيه من العزة والرفعة والغرابة ما فيه ، أراد أن يطيل الحوار ليتمتع بمزية مخاطبة الخالق ، والمقام النادر بين يديه فلم يقتصر فى الرد على قدر السؤال وإنما تجاوز وأطال فى الإجابة وجعل فيها ما يدعو إلى سؤال جديد ، بان قال : ﴿ **ولى فيها مآرب أخرى** ﴾[2] ، غير أن هذا التعليل فيه من السذاجة والتسطح الكثير ، إذا استحضرنا الموقف ، ومجريات أحداثه ، والأسلوب الذى سيقت به القصة فى السورة ثم ما سبق على هذه العبارة من أجزاء الحوار ، وما تلا ذلك .

إن موسى عليه السلام يذهب إلى الجبل الذى رأى فيه نارًا طلبًا للأنس والأصطلاء ، والاهتداء وربما الماء والغذاء وإن لم يرد ذكرهما ، فإذا به يفاجأ بمن يحدثه ويعرفه بنفسه ويطلب إليه أن يعبده فى حديث ليس بالقصير إذا ما قيس إلى جزئيات الحوار الأخرى ، وهو حديث رفيع راق، محلق من الخالق الذى يختمه بهذا السؤال ﴿ **وما تلك بيمينك يا موسى** ﴾ ؟ فيجيء هذا الجواب الذى اندفع المفسرون فى تفسيره إلى ما قدمنا ، فإذا قيس هذا الرد من موسى إلى كلام الله العظيم قلنا لأول وهلة : أما كان يحسن بموسى أن

---

(١) سورة طه ١٦ : ١٩ .
(٢) أشار إليه الزمخشرى والفخر الرازى فى جملة تعليلات فى تفسيريهما .

يترك هذا اللغو من القول ليتمتع بجلال الموقف وكلام الله العظيم ؟ ، هذا على افتراض أن موسى عليه السلام أراد أن يطيل المقام فالله تعالى لم يقصد فى الحديث أن يختمه لكى يندفع موسى إلى الظن بأن المقام انقضى أو أنه يوشك على الانتهاء بدليل السؤال نفسه الذى يوحى بل يؤكد استمرار الحوار . والله تعالى منزه عن العبث فيما يورده وكذلك نبيه الذى اختاره لرسالته .

إذا لابد من البحث عن علة أخرى لهذه الكلمات التى تفوه بها موسى عليه السلام ، وعنى منزل القرآن بأن ينقلها فى كتابه الذى جعله دستورًا للخلق . ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ومن أجل أن نصل إلى تلك الغاية سنطرح بعض الملابسات التى أحاطت بسياق هذه القصة :

١ – أول ما يتطرق إلى الذهن هو طبيعة هذه العصا ، أليست من الخشب ، والخشب وقود وقابل للاحتراق !

٢ – لقد سار موسى نحو النار وهو يزمع أن يأخذ منها لأهله ، والنار من الخشب عادة .

٣ – لقد سار موسى إلى النار وهو يتوقع أن يجد إنسانًا فيطلب إليه بعضًا من جمرها أو شهاب قبس ليوقد به لأهله . فلم يجد إنسانًا ووجد الله تعالى عند هذه النار يحدثه ، ولم يره ، فليس عند النار أحد ، فماذا كان يفعل لو أن الله تعالى لم يكلمه ؟ هل كان سيأخذ ما يريد ويمضى دون أن ينتظر سماحًا من غير أحد ؟ أم هل كان سيتركها ويمضى دون أن يأخذ شيئًا مما ليس له ولا يعرف له صاحبًا ؟ لا ندرى ! ولكن موسى عليه السلام وقع فى هذا الموقف ، فجاء جوابه تلقائيًا على هذا النحو ! وقبل أن نسوق نتيجتنا سنضرب مثالًا من حياتنا .

ذهب رجل إلى بيت صديق له ودلف من باب الحديقة وفى يده صحبة من الزهور وعند الباب الداخلى وقف ينتظر الإذن ، فإذا رجل لا يعرفه يشير إليه قائلًا : أنا صاحب هذا البيت وقد اشتريته وأثثته وزرعت فيه وفعلت ، ماذا الذى أرى فى يدك ؟ لن يخطر على بال القادم عندئذ إلا شيء واحد ، وهو أن هذا الرجل الذى يملك هذا البيت وأشار إلى بنائه ونظامه ، وحديقته ؛ يشك فى أن هذا القادم قد استولى على هذه الزهور من حديقته ، أو أنه جاء بها ولكنه يطمع أن يزيد عليها من زهور الحديقة ، كأنه يقول له : ماذا جئت تعمل هنا ؟ فيجيء الرد من القادم على سؤال : فماذا الذى أرى فى يدك ؟ على هذا النحو : هذه زهور اشتريتها من بائع الزهور فى مكان كذا ، وأنواعها كذا وكذا ، وجئت بها لفلان لأزوره حيث قد علمت أنه مريض والزهور تعبير عن التمنيات الطيبة بالشفاء وتدعو إلى التفاؤل . وقد كان يمكن للقادم أن يجيب الرجل قائلا : هذه زهور . وكفى . ولكن لما كان السؤال خارجًا من السائل مقصودًا به غير المراد من ظاهره ، حيث أريد به أمر آخر ، جاء الجواب كافيًا شافيًا لا على ما هو ظاهر من السؤال وإنما على ما وراءه من مراد السائل .

كذلك قياسًا على هذا المثال نرى أن موسى عليه السلام قدم على النار يحمل خشبًا (العصا) وعند النار بحكم العادة خشب ، فلما جاء السؤال الحكيم : وما تلك بيمينك يا موسى ؟ جاء الجواب الحكيم معللًا لوجود العصا ودافعًا لما وراء السؤال من استفهامات أخرى ظن موسى أنه قد سيق من أجلها ، وإلا ما كان ليدع سماع الكلام الحكيم ليتحدث عن عصاه وفوائدها له ، وهى أمور هينة لا ينبغى أن تشغل مجالا فى مجرى الحوار ، وأولى أن يدعها ليستمع للخالق وهو يلقى عليه كتاب التكليف بعظائم الأمور .

لقد جاء هذا السؤال فى سياق التحذير الإلهى لموسى ﴿ **إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها**

واتبع هواه فتردى ﴾ فإتباع هذا السؤال لهذا التحذير يزيد فى الإيحاء بوجود علاقة ما بين السؤال وبين النهى السابق عليه ! وأية علاقة تلك ؟ ما نظنها تكون إلا كما ذكرنا .

لقد ظن موسى أن هذا السؤال معناه أنه متهم بالقدوم على نار ليس عندها أحد ليأخذ ما ليس له منها أو من حطبها أو مما يظن وجوده بوجود النار كالغذاء والماء وسائر المتاع ، بما فى هذا تلك العصا التى فى يده نفسها ، وعلى هذا يجىء الجواب منطقيًا جدًا ومسايرًا وموافقًا لما فى نفس المسئول تمامًا :

هى عصاى : يعنى أنا مالكها ولم أسرقها .

أتوكأ عليها : يعنى أنها ليست حطبًا فأستخنى عنها وأشعلها لتغنينى عن أن أقتبس أو أقترض من هذه النار التى قدمت عليها .

وأهش بها على غنمى : تأكيد لملكيته لها وأنها ينفعه فى عمله

ولى فيها مآرب أخرى : يعنى إذا لم يكن ما سقته من الحجج كافيا فإن لى فيهامآرب أخرى تنفعنى فيها .

بهذا دفع موسى عن نفسه الشبهات التى ظن أنها لحقت به من جراء قدومه على هذه النار : شبهة السرقة ، وشبهة الطمع فى أن يطلب إلى أحد شيئًا عنده منه . . . إلخ تلك الظنون .

هذه علة أولى بحسب ما فى نفس موسى عليه السلام - إذ ألقى عليه هذا السؤال - من دوافع وردود فعل أملت عليه هذه الإجابة وهى علة تتعلق بالمجيب وجوابه . أما من جهة السائل فهناك علة أخرى تتعلق بالغرض من سوق هذه العبارات فى القرآن الكريم ، وتتعلق أيضًا بالسائل فى هذه المحاورة ، وهو فى الحالتين الله سبحانه وتعالى : هو منزل القرآن ، وهو

كلامه ، وهو أيضًا الذى سأل موسى عليه السلام هذا السؤال .

هنا نجد أن الله تعالى قد جعل هذه العصا فيما بعد لموسى آيته التى أذل بها فرعون وانتصر بها عليه ، فى كل المراحل التالية من القصة : هنا عندما ألقاها ، ثم عندما دعا فرعون للمرة الأولى ، ثم عندما تحداه والسحرة فى يوم الزينة ثم عندما فلق بها البحر ليفرقه من ورائه وينجو ومعه قومه ، وفى مواقف أخرى كثيرة منها ما ذكر ومنها ما أجمل ، فمما ذكر أنه ضرب بها الحجر ليخرج منه الماء ، وما أجمل جاء فى قوله تعالى : ﴿ **فى تسع آيات إلى فرعون وقومه** ﴾ ، هذه العصا هى التى اعتمدت عليها القصة فى كثير من عناصرها : – التشويق – الإثارة – التحدى – الإنقلاب والعقدة والتأزم – والحل . ولم تكن العصا ممثلة لهذه العناصر لدينا نحن قراء القصة فحسب وإنما بالنسبة لأطرافها أنفسهم ، وعلى رأسهم وأولهم موسى عليه السلام نفسه .

فالله تعالى سأل موسى هذا السؤال فى هذا الموقف بعينه لكى يستفرغ موسى ما عنده من وظائف العصا ومنافعها ، ثم يفاجئه بما ليس فى حسبانه من أمور ما كان يظن أن عصاه تجود بها[1] .

وقد ذكر لنا هذا لنقرأه فنؤمِّن على قول موسى ظانين أن ليس وراء ما قال شىء – بما فى هذا (المآرب الآخرى) – نعتقده أن يكون من العصا ، ثم نفاجأ مثلما فوجىء موسى بهذه الأفعال من العصا . ولهذا كان من المهم أن يجيب موسى بهذه الإجابة لمجريات القصة وحبكتها ، سواء أكان ذلك بالنسبة له كعنصر من عناصرها ، أم بالنسبة لنا نحن قارئى تلك القصة ومتابعيها .

---

(١) أشار إلى هذا الوجه الزمخشرى والرازى وأبو السعود والبيضاوى وغيرهم .

وقد ورد هذا الحوار حول العصا فى مقدمة القصة ، التى يتم فيها استخلاص بعض عناصرها من أجل التعريف بها والإيحاء من خلال التركيز عليها بما سيكون لها من شأن فى الأحداث المستقبلة من هذه القصة ، وهكذا شأن مقدمات القصص عادة ، ولهذا جاء السؤال والجواب على نحو ما وصفنا فى هذه المناقشة .

من هنا يتبين لنا أن الإيجاز والإطناب والتفصيل والإجمال فى القصة القرآنية لها مآرب دقيقة تتعلق ببناء القصة وحبكتها على الجملة ، وتتعلق بالمنعطفات والإيحاءات الجزئية الدقيقة التى توجه الأحداث وتبرز مغزاها ، على نحو معجب ، كما نراه فى موقفين متشابهين أو متوازيين فى الظاهر من حيث عوامل المكان والزمان والموضوع فى سورة يوسف ، ولكن أحدهما استعمل فى أسلوبه الحذف ، والآخر استعمل فيه التفصيل والإطناب ، ولم يزد المفسرون عند مرورهم عليهما على تقدير هذا المحذوف ، لمن توقف عند هذه الجزئية مع أن فيها من الدقائق المعجزة ما يجل عن أن يحيط به عدة من العلماء ، وسنحاول أن ندلى فيه بدلونا قدر استطاعتنا فيما يلى من دراستنا[1] وهذه المواطن من الإجمال والتفصيل تبرز لنا عدة أمور :

أولها : أن سمة المقاومة والصراع هى التى تدفع بالحوار قدما على نحو ما تبين فيما استعرضنا من نماذج .

ثانيها : أن كل موطن من مواطن الإجمال أو التفصيل والإيجاز بأنواعه ، والإطناب لها دلالتها المعنوية المؤثرة فى بناء القصة وحبكتها وسير حوادثها بما يعادل ويساوى تمامًا بناءها الأسلوبى ، وهذا من وجوه المطابقة لمقتضى الحال ، ولكن على مستوى البناء الكلى للعمل الأدبى .

---

(١) انظر الموازنة بين مشهدين من سورة يوسف وقع الحذف فى أولهما والإطناب فى الثانى ، وما استنبطناه منهما . وذلك فى الفصل المخصص للحذف الانتقالى فى الحوار المتداخل .

ثالثها : أن هذه القياسية والمثالية فى المحاورات القرآنية هى نموذج المثل الأعلى الذى ينبغى أن نقيس عليه أعمالنا القصصية ونستخرج منه قواعد نقدها ، ونقد فنون الأدب جميعها .

رابعها : أن تطبيق الأمور السابقة على ما عرضنا من نماذج قد أطلعنا على أمر ذى فائدة متبادلة متعددة الجوانب : من التاريخ وموضوع النص القرآنى إلى الدراسة الأدبية ، والعكس : من الدراسة الأدبية إلى التاريخ وعبره من خلال دراسة أساليب القصة القرآنية ، وذلك فيما يتعلق ببنى إسرائيل الذين أثبتت النصوص التى بين أيدينا أن دأبهم العنت والخلاف على أنبيائهم ، وأننا ينبغى أن نتعمق أساليبهم وندرسها من خلال هذا القصص الحق ، لنعرف أخلاقهم وطباعهم والأسلوب الأمثل فى التعامل معهم لدفع شرورهم ، ومقارعتهم بمثل ما يقارعوننا به من الحجج الكلامية والسياسات ، لو أننا تعلمنا دروس القرآن فى هذا ، ما نجح هؤلاء الفساق فى التحايل على قرارات ما يسمى بالأمم المتحدة ، والتلاعب بالأمم والحكومات من حولهم طوال نصف قرن من الزمان ، وما زالوا ! !

❋❋❋

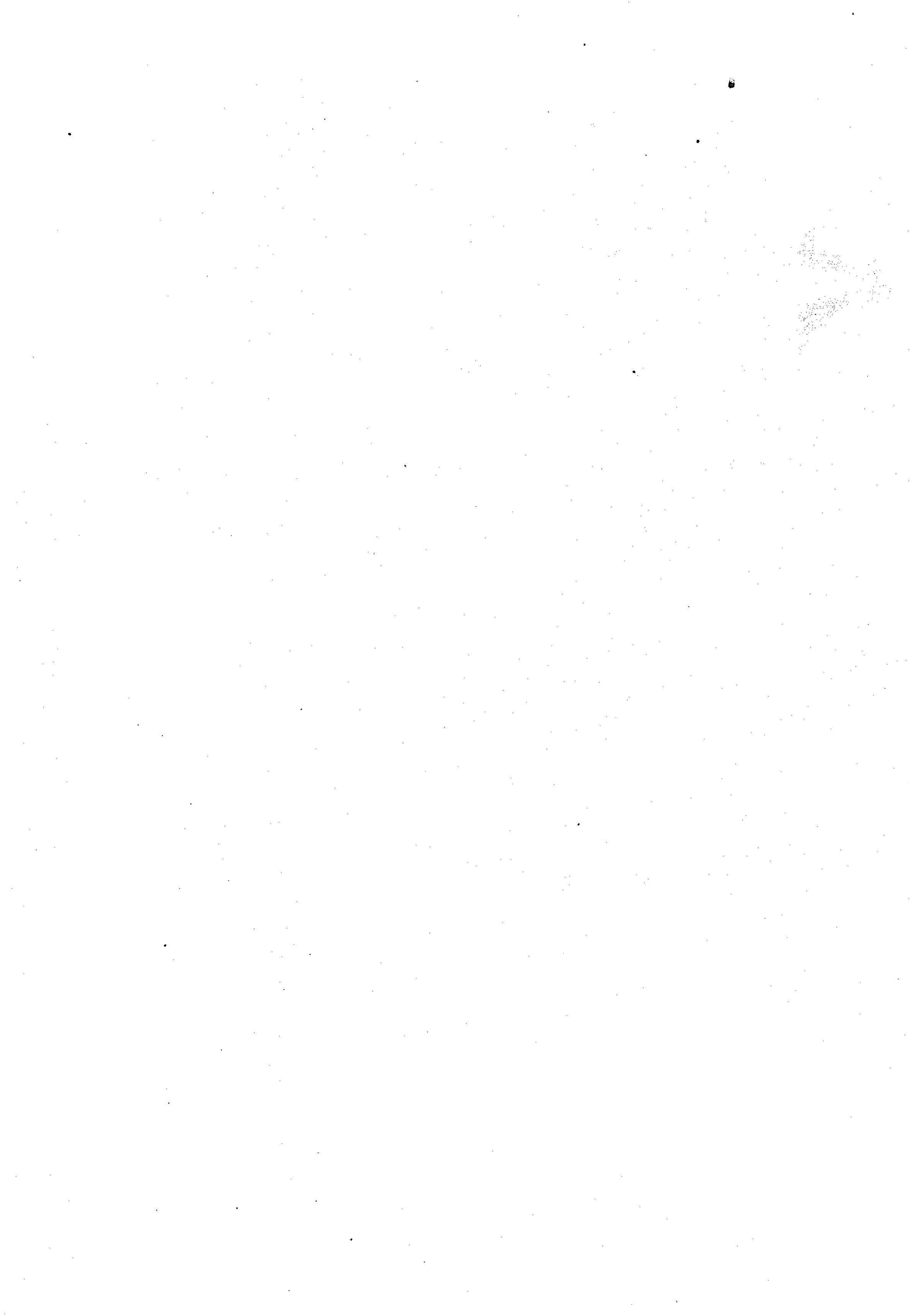

الفصل السادس

الطيُّ
فى مجريات
المحاورة والسرد

يعد الإضمار القصصى من أدق الوسائل الحرفية فى الأسلوب القصصى بعد اصطناع الحبكة ، وهو أيضًا مفتاح هذه الحبكة ، وهو أيضا معيار دقيق للتفريق بين القصاص المبدع المطبوع ، وغيره من الأدعياء العالة على هذا الفن .

ولئن مرت على القصة مرحلة من تاريخها كان معيار الجودة أن ينجح الكاتب فى سرد وقائع وأحداث متواصلة تستغرق مئات أو آلاف الصفحات وتقع فى مدة زمنية طويلة تستغرق أجيالًا من أبطالها ، فقد ثبت الآن أن هذا النوع من القصص مضيعة للوقت ولا طائل تحته ولا متعة ، فضلا عن فقد كثير من المعالم الفنية للقصة وإفتقاره إليها ، وشتان ما بين القصة كفن ، والتأريخ للأحداث والأشخاص والترجمة لهم وتسجيل سيرتهم .

وقد أخذت القصة أخيرًا تتجه إلى التركيز وتكثيف الأحداث وترك الفضول ، واقتصرت على المهم من الأحداث ، فأفسحت المجال لإعمال الخيال وتنشيط الذهن لدى المتلقى ، فأزدادت جرعة الإثارة لديه ، فباتت القصة القصيرة التى تستغرق وقتًا أقل فى قراءتها أو الاستماع إليها أكثر إنتشارًا وإثارة وتأثيرًا ، كما هو متوقع ومعلوم فى حاضر القصة ومستقبلها .

لقد رجعت القصة أخيرًا إلى الأصل الذى كان ينبغى أن تترسم خطاه من أول الطريق ، وتتلمذ عليه وهو القرآن الكريم .

أما عن أسباب كون القرآن الكريم مثلًا أعلى لهذا الفن ، على الرغم من أنه تنزه عن أن يكون كتاب قصص وحكايات ! ، فهى كثيرة ، بينا بعضها فيما سلف[1] ، وغاب عنا وعن غيرنا كثير ، وما نحن بصدده الآن يعد فى

---

(١) انظر تفصيل ذلك في دراستنا : قضايا النص المسرحى المعاصر بمصر من ص ٢٧٦ – ٣٢٤ .

نظرنا معلما بارزا تفرد به أسلوب القصص فى القرآن الكريم ، وقل أن ينجح قصاص من البشر فى اصطناع بعضه أو النسج على منواله ، وأنى له ذلك ، ذلكم هو الاضمار القصصى !

ونحن نتوجه بمصطلح الإضمار هذا مباشرة إلى أصل المعنى اللغوى كما فعل بعض النحويين والمفسرين ، كالفرَّاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم** ﴾[1] إذ قال : (يقال (أما) لابد لها من الفاء جوابًا فأين هى ؟ فيقال : إنها كانت مع قول مضمر ، فلما سقط القول سقطت الفاء معه ، والمعنى – والله أعلم – فأما الذين اسودت وجوههم فيقال أكفرتم . فسقطت الفاء . والقول قد يضمر ومنه فى كتاب الله شىء كثير ؛ من ذلك قوله : ﴿ **ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا** ﴾[2] وقوله : ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا** ﴾[3])[4] . وكذلك أبو حيان فى قوله فى الآية نفسها : ما من نحوى إلا خرَّج الآية على إضمار فيقال لهم : « أكفرتم »[5] وكذلك الشجرى فى أماليه يقول (والقول إذا أضمر فهو كالمنطوق به)[6] ، وكذلك الرازى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب** ﴾ قال : أعلم أنه لابد من الإضمار فى هذه الآية فى موضعين[7] .

---

(١) آل عمران ١٠٦ .

(٢) السجدة ١٢ .

(٣)البقرة ١٢٧ .

(٤) انظر : معانى القرآن للفراء جـ١ ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٥) البحر المحيط ٣ /٢٢ – ٢٣ .

(٦) أمالى الشجرى ٣٥٦/١ . وانظر : دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣٣٢/١– ٣٣٣ .

(٧) الرازى ١٨ /١٠١ ، يعنى تقدير الإضمار .

أما عبد القاهر الجرجاني فقد سمى ذلك النوع من الحذف الذى يستغنى عن الذكر فيه فى موضع بالذكر فى آخر ، الإضمار على شريطة التفسير ، كقولهم : أكرمنى وأكرمت عبد الله ، وقد تبعه فى ذلك ابن الأثير وأخذ أكثر كلامه ، كما ذكر عبد القاهر الإضمار أيضًا فى بيان حكم ما يحذف من جواب السؤال الذى يكتفى فيه بالاسم الواحد كقولك : زيدٌ ! جوابًا لمن سأل : من هذا ؟ فقال فيه إنك تجد هذا الإضمار واجبًا لأن الاسم الواحد لا يفيد . . . إلخ ، وأكثر العلماء تفصيلا فى هذا الشأن الزركشى ، الذى عقد فى كتاب البرهان بابًا كبيرًا للحذف ، وفرق فيه بين الحذف والإضمار ، مبيِّنًا أن شرط المضمر بقاء أثر المقدر فى اللفظ ، نحو ﴿ **يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابًا أليمًا** ﴾ و﴿ **يعذب المنافقين** ﴾ و﴿ **انتهوا خيرًا لكم** ﴾ أى ائتوا أمرًا خيرًا لكم ، وهذا لا يشترط فى الحذف ، وأن الإضمار هو الإخفاء من أضمرت الشىء : أخفيته كقول الشاعر :

سيبقى لها فى مضمر القلب والحشا

أما الحذف فهو من حذفت الشىء ! قطعته وهو يشعر بالطرح بخلاف الإضمار ، ولهذا قالوا : « أنْ » تنصب ظاهرة ومضمرة . ورد ابن ميمون قول النحاة : إن الفاعل يُحذَف فى باب المصدر ، وقال : الصواب أن يقال : يضمر ولا يحذف ، لأنه عُمدةُ فى الكلام[1] . وعليه فالإضمار هو مطلق الإخفاء ، والإضمار فى القول هو إخفاء لفظ كان حقه الإظهار لعلة تتعلق بالسياق أو المعنى وهو فى هذا لا يبعد كثيرًا عما اصطلح عليه فى النحو والبلاغة والعروض[2] . ، والنقد كذلك حيث استخدمه محمد غنيمى

---

(١) البرهان فى علوم القرآن – الزركشى – جـ٣ ص ١٠٢ – ١٠٣ .

(٢) راجع لسان العرب ، والحذف والإضمار لعبد الفتاح بحيرى ص ١ – ٢ ، ودلائل الإعجاز : ١٢٥ ، وأسرار البلاغة ص ٣٤٧ ، والمثل السائر : ٢ /٢٧٥ .

هلال[1] بصورة أقرب ما تكون لما استعملناه هنا ، وخص القصة به .

فإذا كان الإضمار لغة هو الإخفاء ، عكس الإظهار ، أى أن ثمة شيئًا له وجود محسوس أو معلوم ، وطرأ عليه ما يدعو إلى إخفائه مع العلم بأنه موجود ، وليس يشترط عندئذ أن يكون هذا المخفى أو المحذوف لفظًا ، فقد يكون جملة أو حدثًا أو قولًا أو غير ذلك ، فعندئذ نستطيع أن نعرف الإضمار القصصى ضاربين صفحًا عن الفارق اللغوى والإصطلاحى القديم بين الحذف والإضمار ، بأنه هو حذف بعض مجريات القصة من سرد أو حوار عمدًا لتحقيق فائدة لها ، كتحريك الحدث ، أو التشويق والإثارة أو الحفاظ على قوة الدفع والتصعيد ، أو لعلة تتعلق بالزمان أو المكان بين تغير أو ثبات ، أو تحريك حاسة التأويل الاحتمالى لدى المتلقى ، أو الحفاظ على درجة من التنبيه والتهاب المشاعر لديه خلال مراحل الحدث المختلفة . وهذه كلها غايات بعيدة لفن الإيجاز والحذف ، تستدعى منا تعمقًا وراءها سبرًا لأغوارها ودقائقها ولا سيما فى فن القصة ، والقصة القرآنية هى المعين الذى سيمدنا بدقائق هذه الحرفة التى كنا عنها غافلين ! .

وقد وجد نوع من الإضمار فى الفن القصصى عند بعض قصاصينا الذين لم يفتنوا بالتحليل النفسى فى قصصهم ، وتركوا الأحداث هى التى تدل على النفوس ، كما وجد عند الأمريكيين والفرنسيين بعد انتشار فن الخيالة « السينما » حيث إن تصوير الحدث فيها هو الذى يبين دخائل النفوس وليس التحليل الأسلوبى وصفًا كان أو حوارًا ، فهم يتتبعون المظهر الخارجى للأفعال والأحداث بالوصف والتصوير دون تعمق فى مغزاها أو تفسيرها ، وبهذا يتسع المجال للقارىء لاستخلاص المغزى ووضع التفسير بتأويلات تختلف من شخص إلى آخر[2] ، ومتى كانت هذه التأويلات خاضعة لاحتمالات قائمة

---

(١) النقد الأدبى الحديث ص ٥٢٠ - ٥٢١ .

(٢) غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ص ٥٢٠ .

فى منطق الأشياء وفى الوجود الخارجى ، كان ذلك دليلًا على عبقرية الكاتب ، وهذا أفضل من الكتاب الذين يستعرضون موهبتهم فى التحليل الطويل ، وهم يحسبون أنهم بارعون فى توفير الجهد على القارىء ، وهم فى الحقيقة يفوتون عليه فرصة إعمال جهده وفكره ، ولا يراعون الفوارق بين الأفراد ، وللكتاب فى هذا وسائل مختلفة من عرض وإضمار[1] .

أما وسائل القرآن وغاياته فى الإضمار القصصى ، فقد تعددت وتخطت حدود ذلك إلى دقائق لا نظير لها فى حرفيتها وأطرادها وتناسبها مع أحداث القصة ومجرياتها ، وغدا لاطراده فيه أسلوبًا من أساليب القص والانتقال عبر الأحداث والمشاهد يجد السامع نفسه فيه قافزًا مع الحدث قفزات تحلق بمشاعره وأحاسيسه فى آفاق من الإثارة والمتعة لا يجدها فى قصة غير قصص القرآن ، وهى تتراوح ما بين أضمار وصف فى ثنايا سرد أو أضمار وصف فى ثنايا حوار أو بين حوارين أو إضمار أجزاء من حوار أو إضمار حوار فى ثنايا سرد وهكذا . . وبهذا كانت المحصلة النهائية لدينا قصة تامة محبوكة الأطراف فى سطور قليلة أو صفحات قليلة أغنت عن الكثير .

والإضمار قد يكون مجرد حذف من اللفظ ، قل أو كثر ، مع المحافظة على المعنى ، أو زيادة الفائدة ، وهو ما عبر عنه العلماء بطلب الإيجاز والاختصار ، وتحصيل المعنى الكثير فى اللفظ القليل ، فى جملة ما ساقوه من أسباب للحذف وفوائد ، وقرنوا الإيجاز بالاحتراز عن العبث ، وأضافوا إلى ذلك أنه قد يفيد التفخيم والإعظام « لما فيه من الإبهام ، لذهاب الذهن كل مذهب ، وتشوقه إلى ما هو المراد ، فيرجع قاصرًا عن إدراكه ، فعند ذلك يعظم شأنه ، ويعلو فى النفس مكانه ألا ترى أن المحذوف إذا ظهر فى اللفظ

---

(١) غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ص ٥٢٠ - ٥٢٣.

والإضمار قد يكون مجرد حذف من اللفظ ، قل أو كثر ، مع المحافظة على المعنى ، أو زيادة الفائدة ، وهو ما عبر عنه العلماء بطلب الإيجاز والاختصار ، وتحصيل المعنى الكثير فى اللفظ القليل ، فى جملة ما ساقوه من أسباب للحذف وفوائد ، وقرنوا الإيجاز بالاحتراز عن العبث ، وأضافوا إلى ذلك أنه قد يفيد التفخيم والإعظام « لما فيه من الإبهام ، لذهاب الذهن كل مذهب ، وتشوقه إلى ما هو المراد ، فيرجع قاصرًا عن إدراكه ، فعند ذلك يعظم شأنه ، ويعلو فى النفس مكانه ألا ترى أن المحذوف إذا ظهر فى اللفظ زال ما كان يختلج فى الوهم من المراد ، وخلص للمذكور[(١)] . وهذا الحذف المسبب لاجتهاد الذهن فى طلب المحذوف يسبب زيادة اللذة باستنباط الذهن للمحذوف ، وكلما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أشد وأحسن . ومن هذه الفوائد – فى رأيهم – زيادة الأجر بسبب الاجتهاد فى ذلك ، بخلاف غير المحذوف – كما تقول العلة المستنبطة والمنصوصة ! ، ومنها التشجيع على الكلام ، ولذا سماه ابن جنى شجاعة عربية ، ومنها موقعه فى النفس فى موقعه على الذكر ، الذى قال فيه الإمام عبد القاهر : « ما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به فى موضعه وحذف فى الحال التى ينبغى أن يحذف فيها إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره ، وترى إضماره فى النفس أولى وآنس من النطق به »[(٢)] . وقد يكون الحذف رعاية للفاصلة ، أو صيانة للمحذوف ، أو صيانة للسان عنه ، أو يحذف لأن المذكور لا يصلح إلا له ؛ أو لشهرته حتى يكون ذكره وحذفه سواء[(٣)]

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٣ /١٠٤ .

(٢) دلائل الإعجاز : ١١٧ .

(٣) البرهان : ٣ /١٠٤ : ١٠٨ – الإتقان : ٢ /٧٤ . وهناك مناقشة لبعض ذلك فى كتاب دلالات التراكيب لمحمد أبو موسى – ص : ٢٢٩ وما بعدها ، ص ٣٠٨ : ٣٢٩ .

وكل هذا الذى ذكروه قد يصلح فى الأساليب كلها ، فى القرآن ، وغيره من أساليب الشعر والنثر الفنى ، ولكنه يقصر عن الغاية الأولى من غايات الحذف فى القصة القرآنية على وجه التحديد التى يغلب أن يكون الحذف فيها من الحدث أو المحاورة أو السرد متعلقًا بالزمان أو المكان أو الموضوع لأغراض تتصل بالإثارة والجذب ، أو الانتقال من مرحلة زمانية إلى أخرى أو من مكان إلى آخر أو من رأس حدث إلى آخر ، أو المحافظة على وحدة المكان ، أو لتكثيف الأحداث ، أو وحدة المشهد القصصى واستدعاء الأحداث الخارجة ، أو لتوزيع المشاهد القصصية أو تقسيم الفصول فى القصة والخروج من أواخر الأحداث ، أو افتتاح المشاهد ، أو لبيان تغيُّر ما يحدث فى ساحة العرض ومكانه المختار ومعالم المشهد وأشخاصه ، والحرفة التى تمكن هؤلاء الأشخاص من إلقاء كلامهم وتبادل الحديث فى المحاورة من تلقاء أنفسهم ، وكل هذه الأمور تظل العلل السابقة للحذف التى ساقها البلاغيون أمرًا شكليًا ضئيل القيمة إزاءها عند القياس الموضوعى ، والعرض على ساحة الدرس ، وهذه جميعًا أمور لم يفطن لها أحد من القدامى والمحدثين إلا سيد قطب كما بيَّنَّا من قبل ، وتبعه بعضهم[1] بإشارات خافتة إلى الفراغات فى القصص القرآنى التى تركت ليملأها القارىء من مخيلته ، وإلى الحضور الذى يجعل أشخاص القصة يتكلمون بأنفسهم ويعرضون وجودهم وتختفى شخصية الكاتب وراءهم .

وإزاء هذا الإدعاء الذى ندعيه لابد من دراسة فنية متعمقة لأساليب الحذف فى مواضعه الكثيرة من القصة القرآنية للكشف عن العلل الحقيقية له ، وليظهر لنا ما انطوى تحت هذا النوع من الإيجاز من حرفيات فنية دقيقة ، غفل عنها أسلافنا من البلاغيين ، وتعرفنا إليها من خلال القواعد

---

(١) القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه . ص ٨٣ ، ص ١٤٢ .

التى وفدت مع الفنون الحديثة - برغم اضطرابها وكثرة خلافاتها وتناقضاتها - وهى الآن تمثل علوما ومدارس لها دعاتها والعاملون بها كالمخرجين وكتاب المحاورات ، وواصفى المناظر ومجريات العمل فيما يسمى « السيناريو » ومن وراءهم ممن يعرفون كيف يتم قطع مشهد من المشاهد عند نقطة معينة ، ووصل ذلك بالمشهد التالى عند نقطة معينة أيضًا ، وكيف يعبر عن اختلاف الأشخاص والأماكن ومراحل العمل وأزمنته ، بأقل إشارة ممكنة وباللمحة الذكية التى تغنى عن كثير الوصف ، وكيفية تعريف المُشاهِد بالأشخاص والأحداث دون كبير استطراد أو سرد يعطل الحدث ويشتت الأذهان . وكيفية تحميل الحوار بالحدث دون حاجة إلى تدخل المؤلف بالسرد أو الوصف .

وإننى لأدعو أرباب هذه الفنون جميعًا ، وأدعو علماء البلاغة العربية والنقاد ، وعلماء العربية ، ودارسى علوم القرآن إلى تدبر المشاهد التالية وإننى لعلى ثقة من أن كثيرًا من الفوائد ستعود علينا وعليهم جميعًا ، ولا سيما ثراء فنون البلاغة وفنون النقد الأدبى ، اللذين نأمل أن يسقط الحاجز الذى أقامه بينهما ما أصاب البلاغة من عقم سببه التفلسف والمنطق ، وكذلك ستحل قضايا عديدة وتزول شبهات باطلة أثيرت حول القرآن والقصص القرآنى ، كظاهرة التكرار والتفصيل والإجمال وسائر ما تعرضنا له فى الباب الأول من هذه الدراسة .

الباب الثانى

الإضمـــار
فى المحاورات القصصية
وأثره فى الزمان والمكان

تعرضنا فيما سبق لألوان من الحذف فى القصة القرآنية فى معرض حديثنا عن التكرار والتفصيل والإجمال وعن الحوار والسرد ، وجرى بيان طبيعة الحذف وعلاقته بمجريات القصة فى كل موضع ، وهناك مواضع قد يصعب حصرها من الحذف فى القرآن ، وفى قصصه على وجه الخصوص ، وقد أفاضت الدراسات فى التمثيل لها وتعقبها ومحاولة حصرها والتنبيه عليها وتصنيفها ، وهى مع ذلك لم يقدر لها أن تنجح فى شىءمن ذلك برغم هذه الجهود التى تدل على إدراك واع لأهمية هذا الوجه من وجوه بلاغة الكتاب وإعجازه ، ولكن قصارى جهد الباحث أن يتعقب طائفة من هذه المواضع تجمعها طريقة أسلوبية واحدة ، وحسبه فى ذلك أنْ يربط بينها برابطة ويصلها جميعا بنوع من الدراسة على نحو لم يسبقه عليه أحد ممن كان لهم فضل السبق فى كثير غير ذلك من ضروب البحث والريادة التى يعترف بفضلهم عليه فيها إن راضيا وإن صاغرا !

أما هذه الطائفة التى ألحت علينا من مواضع الحذف العديدة فى قصص القرآن ، فإن لها سمة عجيبة ، هى أنها تبتر المشهد القصصى وتدخل بالقارىءفى مشهد آخر تالٍ له قد يفصل بينهما الزمان والمكان ، كأنما حمل بقدرة الله على البراق أو على بساط الريح أو أتى به الذى عنده علم من الكتاب ، ولم يدعه يدلف إلى المشهد الثانى من أوله ، وإنما وضعه فجأة فى قلب المشهد ، طاوياً من الزمان والمكان ما شاء الله ، وحاذفا وطاويًا ومضمرًا من الموضوع ما لا يكاد المتلقى يحس بأنه قد حذف ، ولا يخطر بباله ولو لوهلة أن ثمة نقصا فى الأسلوب أو انتقاصا من مجريات الأحداث ، حتى إن أكثر ذلك قد خفى على كثير ممن تعرضوا لأساليب القرآن بالدرس قديما وحديثا اللهم إلا سيد قطب رحمه الله ، فهو نسيج وحده فى الدراسات

القرآنية ، وما جاش فى النفس أمر فطلبنا له خبرًا ، إلا كان بيان ذلك عنده شافيا ، أسكنه الله فسيح جناته . . آمين !

وهذا الخفاء من بديع صنع الله الذى سيطل علينا فى الصفحات التالية ليلهب الأذهان فى محاولة مضنية من أجل تبيان بعض أسراره ، وبيان أثرها فى مجريات القصة .

***

الفصل الأول

القفز بالحدث
عبر الزمان والمكان معًا

هناك ظاهرة تتخلل مشاهد القصص القرآنى التى يفترض أن أحداثها تدور فى أكثر من مكان ، وأن أحد أطراف المحاورة يتنقل بين كل تلك الأماكن ، ليبلغ رسالة أو ينقل خبرًا أو ما إلى ذلك ، فيكون التكليف بذلك خاتمة للمشهد الأول ، والرد عليها فاتحة للمشهد التالى وكل ما يقع فيما بين نهاية الأول وفاتحة الثانى من المشاهد والأحداث والأوقات والأماكن يُطوى ذكره ويُضمر ، وهذه النقلة تأتى مفاجئة للسامع إذ إنها تقع بين هاتين العبارتين المشار إليهما دون سابق إشارة إلى ذلك .

وإذا توحدت طريقة الأداء فى القصص المختلفة ، وكانت طريقة منفردة وغريبة ، فلا شك أنها توحى لمن يتعقبها بأن هذا أسلوب قصصى وطريقة فى الأداء التعبيرى له حدوده ونظامه وحِرْفِيَّته وفنيته ، ويصبح لزاما علينا أن نستقرىء تلك المواقف ما أمكننا ، ونتعمق دراستها للتعرف إلى سماتها ودواعيها ونتائجها الفنية والأدائية وأثرها فى المتلقِّى .

وقد تجمع من الاستقراء مواقف عدة ، تبرز هذه الخصيصة فى بعضها بجلاء ، وتظهر فى بعض آخر بالنظر وبعد استجلاء ، لما وراءها من تأويل أو تفسير يلقى عليها ظلالًا من أحداث التاريخ وغيره لتتضح معالمها .

وأبرز هذه المواقف القصصية ما جاء فى سورة طه فى أكثر من موضع ، حيث كان المشهد الأول منها فى الوادى المقدس طوى حيث دار الحوار الطويل بين موسى عليه السلام ورب العزة ، ثم انتقل إلى بلاط فرعون فى المشهد التالى لتدور محاورة أخرى تنفيذًا لأمر الله لموسى بذلك ، يتلوه مشهد المباراة المشهودة بين موسى عليه السلام والسحرة وتستمر القصة بعد ذلك فى قفزات متلاحقة إلى نهايتها .

وقد كانت مجريات القصة فى المشهدين المختارين بادئة على النحو الذى وصفناه فى ختام الفصل السابق من الحوار بين موسى وربه ، الذى أفضى إلى التكليف والأمر بالتبليغ ، وفَرَق موسى من تبعة ذلك وطلبه من ربه أن يبعث معه أخاه هارون وزيرًا وتستمر هكذا :

﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى . ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ . فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ . قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ . قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ . فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ . إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ . قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ . قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ . قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾[1] .

ويمضى الحوار بين فرعون وموسى فى مشهد جديد فى مكان بعيد ونحن لم نفرغ بعد من استيعاب المشهد النادر السابق عليه فى سيناء ! ، فما حقيقة هذا الأسلوب القصصى الذى انتقل بنا على هذا النحو إلى المشهد الجديد وكأن شيئا لم يكن ! ؟

أول ما نلحظه على هذه الآيات الانتقالية أمران :

الأول أن الخطاب كان موجها إلى موسى ومكانه سيناء ، فأين هارون الآن ؟ إنه فى مكان ما من مصر ، وقد غاب كل منهما عن الآخر لسنوات أقلها ما ألزم موسى به نفسه لحميه لقاء زواجه من ابنته وأرجح الأقوال أنه عشر سنوات ، ومع ذلك فموسى يطلب إلى ربه أن يوظف أخاه معه وزيرًا ،

---

(١) سورة طه : ٤٢ ومابعدها .

فاستجاب له وجعله وزيرًا نبيا ، وهذه منحة إلهية أضيفت إليها منحة أخرى لا يدركها كثير منا ، وهي أن مجرد الإجابة معناها طمأنة موسى إلى أن أخاه بخير ، وإلا ما أجاب الرب طلبه لو كان لحقه مكروه ، وطمأنته إلى تمام أمره كذلك ، كل هذا تم فى المشهد الأول الذى غاب عنه هارون ، فكيف توجه الخطاب بعد ذلك إليهما معًا ، وجاء ردهما معًا أيضا : قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ؟ أليس هذا دليلا على أن ثمة مشهدًا متضمنا بين المشهدين الظاهرين وهو مشهد يقع بعد نهاية المشهد الأول بزمن يعلمه الله ، قطع فيه موسى رحلة طويلة إلى مصر وبحث عن أخيه وأبلغه الرسالة وتوجها معا إلى الله بخطاب طويل اجتزىءمنه مشهد بسيط حدوده الأولى تقع فى ثنايا الأمر الألهى من أول قوله تعالى ﴿ **اذهبا إلى فرعون** ﴾ وحدُّه الأخير يقع فى ثنايا قوله وقولهما ﴿ **إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ الذى أمرا أن ينقلاه إلى فرعون ، فالفائدة الأولى أن المشهدين الظاهرين قد تمخضا عن مشهد ثالث فُهِمَ حدوثه من الحوار دون أدنى تدخل بالوصف ، وهو ما يعبر عنه فى فن المسرح « بتوارى شخصية المؤلف » !

الثانى : أن الخطاب الذى توجه به رب العزه إلى الأخوين فى المشهد المذكور قد تم بقوله تعالى﴿ **إنا قد أُوْحِيَ إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ وجاءت الأية التاليه مباشرة برد فرعون على الرسالة﴿ **قال فمن ربكما يا موسى** ﴾ واستمر الحوار بين فرعون وموسى بعد ذلك فأين فرعون من هذا المشهد الذى يناجى الأخوان فيه ربهما ؟ إننا مازلنا معهما وهما يتلقيان الأمر بما يقولانه لفرعون تبليغا لرسالة ربهما ، وفرعون فى عالمه الخاص لا يعلم بعد بمقدم موسى وأنه سيلقاه ويرد عليه ، إنها هى النقلة ذاتها ، دون ما حاجة إلى تدخل بالوصف ، من مشهد إلى مشهد تال من مشاهد القصة تطوى فيه المسافات والأزمنة ويدفع الحدث قدما نحو ذروة التعقيد ، لنجد

أنفسنا مع موسى وأخيه فى مواجهة الطاغية ، دون إبطاء أو انتظار !

إن هذا الانتقال يدل حتما على أن ثمة كلاما محذوفا من السرد ومن الحوار ، وقد نذهب بعيدًا فى تقدير هذه المحذوفات ، وتختلف بيننا التقديرات ، وقد يقدرها بعض البلاغيين بكلمة أو كلمات ، ويقدرها النقاد بأكثر من ذلك قليلا ، ويقدرها العامة - إذا قدر لهم إدراكها - بما يساوى بضعة أسطر ، ويتناول أديب قصصى شاب قلمه ويشرع فى إجرائه بالقصة كما يمليها عليه خياله ، فلا يفرغ منها إلا وقد شابت ذوائبه ، فما أحسبه يترك مقام موسى بين يدى ربه أول مرة وهو تائه شريد معوز فى بطن الوادى المقدس إلا أوسعه وصفا وتفصيلا ولا سيما حالته الذهنية والنفسية بعد انقضاء هذا اللقاء المهيب الرهيب وتوزع نفسه بين التصديق بالواقع الذى كان ، والتعلة بالهواجس والأحلام ! ، وماذا قال لأهله ؟ وكيف كانت رحلته وكيف واجه أخاه بعد غيبة هذه الأعوام ؟ وكيف صدَّقه أخوه ولم يتهمه بالهوس أو الجنون أو « التطرف » ؟ وكيف أُذِن له فرعون بلقائه ولم يأخذه بمن قتله قبل فراره ؟ كل ذلك سيلح على هذا الكاتب كما ألح سلفًا على بعض المفسرين والمؤرخين فقالوا فيه كلاما كثيرًا ، ونسبوا بعضه إلى السلف والصحابة والله تعالى أعلم به ، وما أحسبه إلا من الإسرائيليات .

لقد اختصر القرآن الكريم كل ذلك ، وترك لنا أن تنشط أذهاننا بالتأويل فيه وجعل القصة تنتقل من ذروة إلى أخرى مستعلية فوق مثل هذه التفصيلات لتصل بنا بين مهم من الأحداث ومُجْدٍ ، وما هو أهم وأجدى ، أما كون موسى قد رجع إلى أهله وهو يرتعد بردًا أو يتفصد عرقا ، أو بهما معا أو غير ذلك ، وإن كان قد قال لهم دثرونى وزملونى ! كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى مبدأ بعثته ، فقد ترك أمر ذلك ، وعدل عنه إلى غيره من الأحداث لا بهدف الحذف لعدم الجدوى كما قد يظن الباحثون ، وإنما لأمور أخرى تتعلق بمقاصد القرآن من جهة ، وتتعلق بالأثر الفنى الناتج

من مجريات القصة وتعاقب أحداثها على هذا النحو المقصود المطرد فيها وفى غيرها من قصص الكتاب العزيز من جهة أخرى

مثل هذا الإضمار ، وقفز الأحداث التى نعلم بالضرورة أنها قد كانت لا محالة ، يأتى جنبًا إلى جنب مع مواقف من كل مشهد من المشهدين الكبيرين ، يتوقف عندها رب العزة ويعطيها حقها من الحوار أو من الوصف كالذى مر بنا فى حديث العصا[1] وقد طال هذا المشهد أكثر من كثير من المشاهد فى قصص القرآن ، والله تعالى يردد على مسامع موسى تعريفه برب العزة ويكرر عليه : إنى أنا ربك – إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، كما يكرر عليه الأمر : اذهب إلى فرعون إنه طغى – اذهب أنت وأخوك بآياتى – اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، ويتسع المقام لهذا ، كما يتسع لتذكير موسى برعايته له صغيرًا وكبيرًا ، مثلما اتسع لحديث العصا من قبل ، ولكنه ضاق عن ختم هذا المشهد ووصف ما جاء بعده حتى لقى موسى أخاه !

ولم يتسع المشهد الكبير الثانى لوصف دخول موسى وأخيه على فرعون وما ابتدراه به ، ومع هذا اتسع للتبليغ المطنب الذى قام به موسى لفرعون حيث قال ﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدًا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾[2] وكل ذلك جاء ردًا على سؤال من فرعون لموسى : فما

(١) انظره فى آخر الفصل السابق على هذا .

(٢) أيا كان توجيه هذه الآيات فإنها وردت فى ثنايا القصة ، ونحسب أنها من مقالة موسى عليه السلام ، وعدل بها القرآن إلى الخالق جل وعلا لما فيها مما يتعلق بالخلق والقدرة ، وغنى عن الإيضاح أنها فى كلام موسى بلفظ الغيبة كسابقتها .

بال القرون الأولى ؟ فجاء الجواب بزيادة فى التعريف بعالِمِ هذه القرون الأولى !

إن اتساع الأسلوب لهذا وذكره ، وعدم اتساعه للمحذوف وإضماره وراءه علل فنية تتعلق بالبناء القصصى الأمثل ، حيث يجىءحبك أطراف المشاهد كما هو آت :

تأخذ المحاورة نهجا بين قول وقول وسؤال وجواب وطلب وتعقيب حتى تأتى على عبارة قرب نهايتها التى ينتهى بها الموقف (وفى المسرحيه المشهد) وهذه العبارة تتعلق على نحو ما بعبارة أخرى ستجىءفى الموقف التالى أو المشهد التالى ، فتعمل الحرفة عملها فى ربط تلك العبارة بنظيرتها فى المشهدين برباط معلق فوق رءوس الأحداث التى تتصاغر دون بلوغ قدر من الأهمية يبيح لها الفصل بين حدثين رئيسين فى القصة

وفى المشهد الأول الذى معنا أشرفت المحاورة الأولى على نهايتها بقول الرب جل وعلا « أذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى » وأبقى المذهوبَ إليه مجهولًا ولم يتم العبارة ، ولكن كر عليها من أولها ليعيدها إمعانا فى توكيد الأمر ، ولكنه توجه بالأمر له ولأخيه هذه المرة فجاءت العبارة التالية : اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، وإلى هنا مازال الأسلوب يحتمل أن الكلام موجه إلى موسى وحده ، وأنَّ إضافة هارون إليه فى الأمر هى التى اقتضت التثنية ، ولكنا نفاجأ بهما يردان معا على الأمر ﴿ **قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى** ﴾ وتحدث المفاجأة فعلها فى السامع فيعود أدراجه إلى نهاية المشهد ليكتشف أن الأسلوب قد نقله إلى مشهد جديد حدث بعد زمن ، واختلف مكانه ، وهى نقلة استغلت فيها مناسبة اللفظ المعبر عن إضافة هارون إلى موسى فى تبليغ الرسالة وتوجيه الخطاب الآمر بلفظ التثنية الذى يحتمل وقوعه فى المشهد الأول مخاطبا به

موسى وحده ، ويحتمل أيضا وقوعه فى المشهد الثانى مخاطبا به مع أخيه ، وهذه الآية المشتركة بين المشهدين جعلتهما متداخلين كأنهما مشهد واحد كما سبق أن بينا !

وتجيءالمناسبة أكثر وضوحًا وبيانا بين المشهدين الثانى والثالث حيث ختم المشهد الذى خاطب رب العزة فيه الأخوين معًا بقوله تعالى :﴿ **فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ أى بتلك العبارة التى أمر الله تعالى بها الأخوين لينقلاها حرفيا إلى فرعون ، ونحن نعلم أن كل رسول لابد أن يؤدى رسالته بنصها عن مرسله أيا كان مرسله هذا ، فما بالك برسول رب العالمين ، لاشك أنه أولى الناس بذلك فإذا جاءت رسالته المُبلَّغَةُ مطابقة لما أُمِرَ به ، فلا ضرورة لإعادتها حيث إنها مشتركة تماما بين المشهدين ، ولهذا جاء الرد عليها مباشرة عقب ذكرها فى المشهد الأول من قول رب العزة للأخوين ، ولكن الرد لم يجيءمن الأخوين النبيين ، وإنما جاء من فرعون ، ردًا عليها مباشرة ، بمعنى أنهما قد سمعا امر الله لهما ووعياه وذهبا إلى فرعون متخطيين كل العقبات والحجب التى مرت بهما ومتغلبين عليها حتى لقياه ، وقالا له ذلك فجاء رده : « فمن ربكما يا موسى » أى أن الحرفة قد تدخلت فى ربط المشهدين المختلفين زمانا ومكانا من فوق رءوس الأحداث الأخرى من خلال العبارة التى يفترض أنها ونظيرة لها قد قيلتا فى المشهدين كل على حدة ، وهما على نحو من الاتحاد ، حال دون تكرارهما ، فكانت الحرفة بالمرصاد لتؤدى بالنقص فى العبارة إلى زيادة الحبك والربط والامتزاج بين المشهدين مع تصعيد الحدث ، وجعل العبارة الرابطة فاصلة ، ومازجة فى آن واحد ، حتى لا يكاد السامع يدرك من أى المشهدين هذه العبارة التى إذا ربطها مع الاول وجدها منه ، من قول رب العزه ، وإذا ربطها مع الثانى وجدها هى العبارة التى

جاء قول فرعون الملعون ردًا عليها ! ! وبهذا جاء الحذف بزيادة التأكيد على حسن أداء الرسول لما أمر بتبليغه أيضا .

تلك هى الحرفة القصصية لا ما يسطرون ! !

ولأذهان السامعين بعد ذلك أن تعمل ما تشاء فى تقدير المحذوف من الأحداث والأقوال ، فهذا شأنهم ، وهو من مقاصد القرآن أيضا !

***

ويجىءالمشهد ذاته ، وقد تكرر فى سورة الشعراء ، ضمن ماورد من مجريات القصة فيها ، ليكرر الحبكة نفسها التى جرت بين المشهدين الثانى والثالث فى السابق ، ولكنه « يكاد » يلغى المشهد الثانى ، ليصل بين الأول والثالث ، الذى صار ثانيا ، بالطريقة عينها وبألفاظ تقرب من سابقتها أيضا ، وذلك حيث يقول تعالى :

﴿ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِأَيَـٰتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ . فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَائِيلَ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ . قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾(١) .

فعبارة « إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل » نهضت بصورة مطابقة تماما من الحرفة لما قامت به العبارة السابقة من سورة طه وهى قوله تعالى : **﴿ إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحِىَ إلينا أن**

---

(١) سورة الشعراء : ١٥ - ٢٠ . « ويروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب إن ههنا إنسانا يزعم أنه رسول رب العالمين ، فقال ائذن له لعلنا نضحك منه ، فأديا إليه الرسالة فعرف موسى فقال له (ألم نربك) حذف : فأتيا فرعون فقالا له ذلك ، لأنه معلوم لا يشتبه ، وهذا النوع من الاختصار كثير فى التنزيل » (الكشاف ٣ /٣٠٥) .

العذاب على من كذب وتولى ﴾ حيث وصلت بين المشهدين :

الأول : الذى جرى فى بطن الوادى المقدس طوى بطور سيناء .

والثانى : الذى جرى فى البلاط الفرعونى بمصر ، على حدما وصفنا من الصنعة المازجه من خلال عبارة واحدة قيلت فى المشهد الأول فى صورة رسالة تلقى على الرسول ليعيها وينقلها كما سمعها ، فنقلها وأداها كما فعل فى السابقة وجاء الرد عليها ، فأوردها الحكيم الخبير مرة واحدة شغلت المشهدين وربطت بينهما من عَلٍ فوق ذرى ما بينهما من أحداث أضمرت مع العلم بوقوعها .

وفى هذه القصة أيضا أُفسح الأسلوب وأتسع لكثير من أحداث القصة التى هى من مقاصد السورة الكريمة والقرآن .

وجدير بالملاحظة أن السورتين مكيتان ومتقاربتان جدًا فى ترتيب النزول فسورة طه هى الخامسة والأربعون والشعراء السابعة والأربعون .

***

وفى سورة يوسف الحافلة بصور شتى من الحذف ، موقف آخر مشابه لهذه المواقف فى الحرفة القصصية ، وقد بلغ من دقة تصميم القصة فى مراحلها المختلفة أن فيها موقفا آخر يماثله ويوازيه ، ولكنه لم يقع فيه من الحذف ما وقع فى الأول ليس فقط لعلة أن ثمة أمورًا واجبة الذكر ، وأنما لأن طبيعة المرحلة من القصة تختلف عن الأولى ، وعرض الموقفين معا سيفتح المجال واسعا أمامنا لمعرفة كيفية تناسب أسلوب الحوار والسرد مع كل مرحلة من مراحل القصة بدقة متناهية وصنعة يفتقر إليها المبدعون من القصاص ويعييهم ويعجزهم الوصول إلى نظيره .

فالموقف الأول يقع فى مرحلة الذورة من القصة ، حيث يعود الأسباط إلى أبيهم وقد أُخِذ منهم أخوهم وهم لا يعلمون أنه مع أخيه يوسف

بمصر ينعم بالأمن ، بل لقد ذهبت بهم الهواجس والمخاوف مذاهبها على مصير أخيهم من جهة ، ومن مغبة دخولهم بدونه على أبيهم من جهة أخرى .

أما الموقف الثانى فيقع فى مرحلة الانفراج حيث قد علموا أن هذا العزيز الذى أخذ أخاهم هو يوسف ، وقد من عليهم بالعفو وهم فى الطريق إلى حيث أبوهم ليبشروه بنجاة ولديه جميعا ويصطحبوه إلى مصر ليلقى أولاده بعد طول حرمان وعذاب .

فإذا نظرنا فى الموقف الأول المتأزم ، الذى تتلاحق فيه الأحداث ، ونظرنا نظرة فى صفوف النظارة من حولنا وجدنا الانفاس تتلاحق وتنبهر مع تلاحق الأحداث ووجدنا الدموع فى المآق والحسرة والتساؤل فى القلوب والأذهان ، ونحن جميعا نتساءل : لماذا فعل يوسف ما فعل ، وأخذ أخاه ؟ ألا يشفق على أبيه من هذه القسوة التى يعامل بها أهله ؟ هل تراه ينوى أن يعاقبهم على ما فعلوه به صغيرًا وينتقم منهم بهذا الموقف الذى سيواجهون به أباهم ، مما جعل أخاهم الأكبر يبقى خوفا من مواجهة أبيه ويأبى أن يصحبهم ! !

إن الأسلوب هنا لا يحتمل مثل هذه التحليلات التى نقوم بها نيابة عن النظارة أو السامعين الذين يتلقون القصة ، ولكنه ينطلق مع الأحداث طاويًا المسافات والزمان فى سبيل الوصول إلى ذروة التأزم ونقطة الانقلاب التى تنفرج بعدها الأزمة ويأتى الحل ، هكذا :

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ . ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ . وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ . قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن

﴿يَأْتِيَنِى بِهِم جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ ٱلعَلِيمُ ٱلحَكِيمُ﴾[1] .

ففى هذه المرحلة من القصة نجد أمامنا مشهدين أولهما فى مصر والثانى فى أرض يعقوب عليه السلام وبينهما ما بينهما من المسافات التى تقطع فى زمن طويل فى ذلك العصر ، ويحدث فى الطريق من الأحداث ما يحدث ، ولكن القصة لا تكتفى بطىٍّ كل ذلك واضماره لتتواصل الأحداث بالانتقال من المشهد الأول إلى الثانى ، وإنما هى علاوة على ذلك تجعل المشهدين يتداخلان على النحو الذى وصفناه آنفا فى قصة موسى ، مضمرة فيما طوته جزءًا من كل من المشهدين ، وإنا لنعلم من سماعنا لما يسرد منها أن نهاية المشهد الأول قد استمرت بعض الشىءبعد النهاية التى وضعتها له القصة ، ونعلم كذلك أن بداية المشهد الثانى قد كانت قبل البداية التى وضعتها له القصة ولكن الأسلوب طرح من السرد كل ذلك لكى ينقل إلينا الإحساس بتلاحق الأحداث ويُبقى حواسنا على قدر من الانفعال والتوهج ، ويدفعنا إلى التفكير فيما وراء ذلك ، بأن جعل العبارة التى أمر الأخ الأكبرُ باقى إخوته أن ينقلوها إلى أبيهم هى ذاتها متداخلة بين المشهدين حيث يفترض أن الإخوه قد أعادوها كما هى بين يدى أبيهم : « يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون » ليجىء بعد ذلك رد الأب مباشرة دون ما حاجة إلى إعادتها فى صدر المشهد الثانى مع ما يصاحبها من وصف لدخولهم الوَجِلِ على أبيهم بهذه الفاجعة الجديدة .

إن السياق يدلنا على أن الإخوة قد أعادوا العبارة بنصها ، حيث جاء رد الأب عليهم دليلا على ذلك ، ولنا بعد ذلك أن نبحث عن السر فى

---

(١) يوسف : ٨٠ – ٨٣ .

وجوب إعادتها بنصها أمام الأب ، وسنرى أن داعية ذلك هى ما فيها من مضامين وما حملت ألفاظها من حجج كثيرة مقنعة على الرغم من قلة هذه الألفاظ

فقولهم :« يا أبانا إن ابنك سرق » يغنى عن تفصيل ما حدث لأن الأب يعلم أن جزاء السارق عندهم أن يؤخذ بما سرق ، فلا حاجة به إلى تفصيل ، ولا شك أن الأسلوب يحتاج إلى أداة التوكيد ، فلا وجه لأن يقال : سرق ابنك ليكون أوجز وأخصر ، والحاجة إلى التوكيد على الحدث ، لا تقل عن الحاجة إلى القصر بتقديم الاسم على الفعل تأكيدًا على أنه هو لاغيره الفاعل وألا أحد معه[1] كما أن تقديمه هنا يأتى استجابة لحاجة المخاطب إذ هو شغله ، وهو المطلوب معرفة حاله وسر غيبته وعدم قدومه معهم .

ومثل ذلك فى الأهمية حاجتهم إلى الدفاع عن أنفسهم عند سوق الخبر إلى أبيهم ، ولهذا جاءت الجملة التالية أسلوب قصر أيضا ﴿ **وما شهدنا إلا بما علمنا** ﴾ أى مارأينابأ عيننا وتيقناه حال إخراج الصواع من وعائه[2]، ولا شك أن هذا الأسلوب أقوى فى الدلالة على هذا القصر من حصر نسبة المقصور للمقصور عليه واختصاصه به بالإضافة إلى التوكيد المفاد من الأسلوبين كليهما .

وقولهم﴿ **وما كنا للغيب حافظين** ﴾ إشارة إلى الميثاق الذى أخذه عليهم أبوهم ، أى أنهم عندما أعطوه هذا الموثق لم يكونوا يعلمون بما صار إليه الأمر من تعذر انقاذ أخيهم وفاء بهذا الموثق ، وهو كذلك تذكير منهم لابيهم بقوله لهم عندما طلبوا ذهابه معهم : ﴿ **إلا أن يحاط بكم** ﴾ فقد أحيط بهم فعلًا أو كاد .

---

(١) علوم البلاغة ١٣٨ .
(٢) الكشاف : ٢/٤٩٥ .

والقسم الثانى من العبارة يتضمن آية صدقهم فيما قالوا إذ طلبوا إليه أن يستوثق من صدقهم بسؤال أهل القرية التى كانوا فيها عندما وقعت حادثة أخذ أخيهم ، ومن صحبوهم فى القافلة التى كانوا فيها ووقع أمامهم ما حدث ، ولسنا فى حاجة إلى تكرار ما قاله البلاغيون فى الايجاز والمجاز الذى انطوى عليه التعبير بـ﴿ **اسأل القرية والعير** ﴾ ثم ختم كلامهم بالتوكيد بإن واللام ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ وهو ما يفهم منه شعورهم بالذنب لما ارتكبوه فى حق أبيهم وأخيهم يوسف من قبل ، وعلمهم بأن أباهم لن يصدق مقالتهم ، كما لم يصدقها أول مرة عندما قالوا له﴿ **وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** ﴾[١] فكان أسلوبهم فى هذه المرة فيه زيادة فى التوكيد على أنهم صادقون ، وعلى الرغم من هذا نرى الأب لا يصدق ما قالوه وما ساقوه ، بل إنه أعاد ماقاله لهم أول مرة :﴿ **قال بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل** ﴾[٢] وهذه العبارة بظلها الكئيب الملىء بالشك والألم والنفور من فعلهم القبيح الذى ارتكبوه أول مرة نقلها الأسلوب القرآنى بحذافيرها لتلقى بظلالها هذه على الحادثة الثانيه ، على الرغم من أنها ليست كالأولى ، فلابد أن تبقى الأحداث متوترة لسبب ما ، فالجمهور يعلم صدقهم ، فلوصدقهم الأب كما صدقهم جمهور النظارة الذى شاهد المشهد السابق لانهارت العقدة وفقدت القصة علة استمرارها وكان تصديق الأب لهم غير معلل بعلة منطقية ، على الأقل حتى يتثبت من صحة ما قالوه بوسائله الخاصة أو بالوسيلة التى استشهدوا بها ، ولهذا تحولت العقدة التى كادت تحل من وجهة نظر الجمهور إلى عقدة أخرى يلهث وراءها من جديد طالبا لها حلًا ، وهى : كيف يصدقهم الأب حتى يسهل عليه الوصول إلى أولاده ؟

---

(١) سورة يوسف آية ١٧ .
(٢) سورة يوسف آية ١٨ . آية ٨٣ .

كل ذلك أعان عليه إلغاء تكرار رسالة الابن الأكبر فى السياق والبدء مباشرة فى المشهد الثانى برد أبيهم على هذه المقالة المدبَّجة المحبوكة الأطراف .

وقد كانت العبارة المشتركة بين المشهدين على حدما وصفنا فى قصة موسى فى موضعين من سورة طه وموضع من سورة الشعراء ، وبالطريقة ذاتها مما يؤكد على أن هذا أسلوب من أساليب الحرفة فى القصة أرشدنا إليه القرآن الكريم .

ويضاف إلى ذلك أن الموقف المناظر له من القصة نفسها فى مرحلة ما بعد التأزم(الانفراج) لم يقع فيه مثل هذا الحذف ، لعلة تتعلق بمجريات الأحداث ووصف الجو النفسى المحيط بالأب المفجوع تأكيدا على إيمانه بالله وثقته به ، وعاقبة الصبر الجميل على البلاء ، وعلة أخرى تتعلق بطبيعة المرحلة من القصة . وهذا هو الموقف بمشهديه : ﴿ **ٱذهَبُواْ بِقَمِيصى هَـٰذا فَأَلقُوهُ عَلَىٰ وَجهِ أَبِى يَأتِ بَصِيرًا وَأتُونِي بِأَهلِكُم أَجمَعِينَ . وَلمَّا فَصَلَتِ ٱلعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ . قَالُواْ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَـٰلِكَ ٱلقَديمِ .فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلبَشِيرُ أَلقَـٰهُ عَلَىٰ وَجهِهِ فَارتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَم أَقُل لَّكُم إِنِّى أَعلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعلَمُونَ** ﴾ [يوسف ٩٣ – ٩٦] .

فالمشهد الأول فى مصر ، والثانى فى أرض كنعان حيث يعقوب وقومه وإخوة يوسف يرجعون إلى بلادهم بأمر يوسف حاملين قميصه ليلقوه على وجه أبيهم ، ولو أعملت الحرفة المشار إليها فى المواضع السابقة لسارت على النحو التالى :

يقول يوسف لإخوته : اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرًا وأتونى بأهلكم أجمعين ، فارتد أبوه بصيرًا

وهذا لاشك أوجز وأخصر ، ولو كان الهدف من الحذف فى القرآن الكريم هو الإيجاز وتقليل عدد الحروف والألفاظ فحسب لكان ينبغى فى

هذا الموقف أن يكون هكذا على حد مقتضى الحرفة وعلة الايجاز بالحذف فى المواقف السابقة ، ولكن الأمر ليس كذلك !

فمقتضى الحال فى سياق الأسلوب القرآنى يقتضى فى مواقف منه الايجاز والحذف مع تمام المعنى ، ويقتضى كذلك تمام المعنى وزيادة فى مواقف أخرى بالذكر أو بالاطناب فى الأسلوب ، مع علمنا بأن كل ما يذكر منه لا يعدم صفة الإيجاز فى كل حال[1] ولكننا هنا وضعنا يدنا على ما يثبت بجلاء أن التوقف عند ما سيق من علل للحذف عند البلاغيين ما هو إلا علة ظاهرة تتعلق بقياس عدد الألفاظ على ما تحمل من معنى ، وأنه قصور دون إدراك كثير مما وراء هذا الحذف من أسرار تتعلق بالمضامين الكلية للأساليب ، وببناء فنون أدبية لم تكن موجودة عند نزول القرآن ، وأن ما توصل إليه البشر من القواعد الفنية التى ترشد إلى حرفة هذه الفنون تتصاغر وتسلم بالعجز إذا ما قيست على ما جاء فى القرآن من وجوه الحرفة فى هذه الضروب من الفنون والأجناس الأدبية .

نعم لقد كان لذكر المجريات فى هذا الموقف بين المشهدين مع حذف نظيره من المواقف الأخرى بين مشاهدها علة تتعلق بزيادة فى المعنى ، ولكننا نرى أن التعبير بالزيادة فى المعنى يتضاءل بإزاء الدلالة الفعلية للعبارات المذكورة بين المشهدين ، حيث إن دلالتها لم تكن مجرد سرد لبعض المجريات الضرورية مما قد يفهمه السامع تلقائيا إذا أعمل الفكر واجتهد فى التفسير ، وإنما هى ذات دلالات عميقة فى ذاتها ، ووراءها ما هو أكثر عمقا منها من الدلالات والاستنتاجات فيما يتعلق بحرفية القصة من جهة ، وبالجانب العقدى منها من جهة أخرى .

---

(١) وهذا الموقف نفسه فيه صور كثيرة من الإيجاز لا يتسع المقام لتفصيلها ، ويتصل بالمشهد الذى يليه من خلال حذف ما بين ارتداد يعقوب بصيرًا ودخولهم على يوسف فى قصره بمصر ، وهو حذف طوى فيه من الزمان والمكان والمضمون الكثير ، راجع : المثل السائر ٢ / ٢٧٧ ، ٢٧٨ .

وهذه الدلالات تتلخص فى ثلاثة أمور :

الأول : يتعلق بنفسية يعقوب علية السلام حال ابتلائه .

والثانى : يتعلق بالجو المحيط به

والثالث : يتعلق بتحقق المفاجأة القصصية .

فيعقوب رسول أرسله الله تعالى إلى قومه ليثبتهم على دين أبيه وجده ، وأمته كسائر الأمم التى جاءها أنبياء ورسل ، ولم يكونوا أكثر إيمانا من غيرهم على الرغم من أن النبوة فيهم كانت على نحو متوافر فى ثلاثة أجيال متعاقبه من جيل ابراهيم الذى عمر طويلا إلى جيل يعقوب ، ولم يقصص القرآن علينا قصة يعقوب مع قومه فلعلنا نظن أن يعقوب لم يُكذَّبْ ولم يعان ولم يبتل مثلما كُذِّبَ النبيون من قبله ومن بعده ، بل قد نذهب أبعد من ذلك فنقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم ربما يكون قد ظن هذا الظن أول أمره ، فجاءت هذه الآية﴿ **تالله إنك لفى ضلا لك القديم** ﴾ على لسان قومه فى غيبة بنيه لتعطى النبى صلى الله عليه وسلم وتعطينا من بعده دليلا وانطباعًا واضح الدلالة على أن محنة يعقوب عليه السلام وصبره الجميل وثقته بالله لم تكن مقصورة على امتحانه بفقد ولديه فحسب وإنما تعدت ذلك إلى الدعوة والتبليغ فيما يتعلق بما أرسله الله إلى قومه من أمر الدين ، إذ لو كان قومه على درجة عالية من الإيمان واليقين لما جرؤوا على أن يتهموه بالضلال ، حتى ولو كان ذلك فيما يتعلق بأمر ولده المفقود الذى يثق تماما بأنه لم يمت على حد وصف أولاده كذبا وبهتانا !

فيعقوب هنا نموذج النبى المبتلى الممتحن فى أولاده وفى دعوته وهو صابر على البلاء صبرًا جميلا ، ولا يخالجه شك فى أن الله تعالى سوف يحسن عاقبة صبره هذا على ما ابتلاه به ، وهو أيضا مازال يؤيده الله تعالى بالدليل تلو الدليل على صدق نبوته ، فيعلن ما علمه بظهر الغيب بتعليم الله تعالى إياه

﴿ **إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون** ﴾ يقول هذا ومازالت العير فى الطريق لم تصل بعد بالمفاجأة المذهلة لهؤلاء المكذبين من حوله ، الذين يقولون له مكابرين ببهتان عظيم غير آبهين بمنزلة النبى بينهم ولا بما هو فيه من كرب﴿ **تالله إنك لفى ضلالك القديم** ﴾ ! لتكون هذه العبارة ذات دلالة عميقة على ما ذكرنا من تكذيب قوم يعقوب إياه كغيره من المرسلين ، حتى تجىءالمفاجأة التى تخرسهم وتذهلهم بتصديق ما أخبر به يعقوب آنفا ، وليقول لهم بعد : ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون !

أما ما يتعلق بالمفاجأة القصصية فهنا ثلاثة أمور :

أولها : الاستعانة بالعناصر الغيبية وهو مما يستملح فى فن القصة التى تكون من الخرافات ، فكيف به فى القصة التى تكون حقا(وهذا هو القصص الحق) .

ثانيها : جو التكذيب الذى جعل المتلقى يعود إلى التوتر من جديد بإزاء التحدى الطارىءمن عناصر ثانوية فى القصة ، وهو ما يضاعف من قيمة المفاجأة التالية .

ثالثها : المفاجأة المتحققة عندما ألقى القميص على وجه يعقوب فارتد بصيرًا .

وهنا طريفة جديدة تضاف إلى ما سبق ، إذ يتبين لنا أن الحذف فى المواقف السابقة هو الذى جعل التوتر فى مرحلة الذروة يستمر ويتصاعد ، وهو عين ما قام به الذِّكْرُ فى هذا الموقف ، حيث لو حذف ما بين المشهدين لضاع التوتر والترقب ، لأن المتلقى يعلم من كلام يوسف الذى يخبر بالمغيبات ولا يكذب أن يعقوب سوف يرتد بصيرًا وذلك عندما قال ﴿ **اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرًا** ﴾ فأى الموقفين أولى بالقصة ، وبمرحلة الانفراج ، أن يأتى هذا الانفراج على نحو معلوم

سلفا ، أخبر به يوسف ، فيكون فاترًا أو أنه يأتى بعد معاناة وتوتر على نحو غير متوقع ، يجعل الفرحة مضاعفة بتحقق المفاجأة . لاشك أن الثانى أولى ، ولاشك أنه يتناسب مع طبيعة المرحلة ، وأن ماسبق من المواقف أيضا يتناسب بالحذف مع طبيعة مرحلة التشابك والتعقيد المؤدية إلى التأزم ، حيث تتلاحق الأحداث متشابكة متعاقبة متعارضة يأخذ بعضها بأطراف بعض ويتلاطم بعضها ببعض كأمواج عاتية تعصف بشخوص القصة وتأخذ بألبابهم وتفقدهم رشدهم ، ولا يستطيع الأسلوب أن يعبر عن هذه المرحلة إلا بأسلوب القفز فوق رءوس الأحداث ، والانزلاق فوق ذرى أمواجها المتلاطمة من قمة إلى قمة ، أما فى مرحلة الانفراج فإنه يدغدغ حواس المتلقين ويرشدهم إلى أن النهاية قريبة ولكنه لا يلقى بهم من القمة إلى السفح دفعة واحدة وإنما يأخذ بأيديهم ويسير بهم الهوينى حتى يفضى بهم إلى قاعدة تثبت فيها أقدامهم مطمئنة ، ومشاعرهم كذلك .

هذا أمر يطرد فى الأسلوب القصصى فى القرآن على نحو ما وصفنا وبهذه الطريقة ، وبغيرها من الطرق التى سيعرض لنا بعض منها فيما هو آت من ظواهر الحذف فى القصة القرآنية .

***

وكل هذه المواضع التى عرضنا لها تتعلق بالانتقال بالحوار المتداخل عبر المكان ، وثمة مواضع أخرى يتعلق الانتقال فيها بعنصر الزمان ، وهو الوحدة الثانية من الواحدات الثلاث التى يركز عليها أصحاب نظرية الأدب فى الأجناس القصصية والمسرحية ، وسنرى كيف أن الحوار فيها قد قفز فوق مراحل زمنية طويلة دون أن يكلفنا مؤنة تعقب تلك المراحل التى أضرب عنها ، وأنه قد أضمرها فى هذا الوضع من القصة ليصلنا مباشرة بمواطن الإثارة فيها والذى من أجله جيءَ بالقصة فى القرآن الكريم ، وهو لا يعير المكان انتباها ولا يذكره ولا يركز عليه .

ففى قصة مريم وعيسى عليه السلام ، انتقل السياق القرآنى من محاورة مريم مع رسول ربها مباشرة إلى حديث عيسى لقومه بعد أن كبر وكلفه ربه بتبليغ دعوته حيث قال تعالى : ﴿ **إذ قَالَتِ ٱلمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلمَسِيحُ عِيسَى ٱبنُ مَريَمَ وجِيهًا فِي ٱلدُّنيا وَٱلأَخِرةِ وَمِنَ ٱلمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلمَهْدِ وَكَهلًا وَمنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . قَالَت رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَم يَمسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللهُ يَخلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ . وَيُعَلِمُهُ ٱلكِتَٰبَ وَٱلحِكْمَةَ وَٱلتَّوْراة وَٱلإِنجِيلَ . وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسراءِيل أَنِّي قَد جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُم إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لأَيَةً لَّكُم إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ . وَمُصَدِّقًا لِمَا بَينَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّورَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعضَ ٱلَّذى حُرِّم عَلَيكُم وَجِئتُكُم بِأَيَةٍ مِّن رَّبِّكُم فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ .إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُم فَٱعبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّستَقِيمٌ . فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنهُمُ ٱلكُفرَ قَالَ مَن أَنصَارِى إِلى ٱللهِ قَالَ ٱلحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشهَد بِأَنَّا مُسلِمُونَ** ﴾[1] .

كانت المحاورة بين مريم والروح القدس مازالت فى أوجها ، وهذا معلوم بالنظر إلى المحاورة التى وردت فى سورة مريم بينهما ، فاستطرد الملك الكريم فى حديثه إلى وصف المسيح وصفا طويلا أعقبه بقوله﴿ **ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية . . .** ﴾ فحكى عن عيسى مقالة : أنى قد جئتكم ، حاذفًا من اللفظ ما قدره المفسرون : أرسلت بأنى قد جئتكم ، أو وأرسلت رسولآ بأنى قد جئتكم أو وناطقا بأنى قد جئتكم ، حيث نصب

(١) آل عمران ٤٥ – ٥٢ .

﴿ رسولًا ﴾ مضمر على إرادة القول ، فى كلام كثير لم يخرج عن محاولة تقدير المحذوف والمضمر وما عمل فى المنصوبات وتصحيح بعض ورد بعض[1] ولكن الذى نحن بصدده أمر آخر .

إن دخول حديث عيسى فى كلام المَلَكَ بطريق الحكاية فى أوله ، إيا كان تأويل ذلك من المحذوفات المقدرة ، قد نقلنا من حيث لا ندرى ، من قصة مريم العذراء القانتة فى محرابها إلى ذروة المواجهة بين عيسى وقومه ، حيث إن حديث عيسى الذى هنا لم ينته إلى ما يفهم منه أن المشهد مازال على حاله فى أول الكلام بين مريم والملك ، وإنما أنتهى إلى قول الله تعالى﴿ **فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله . قال الحواريون نحن أنصار الله . . . .** ﴾ ومعلوم أن عيسى عليه السلام فى مهده لم يكن له حواريون بعد ، فهذا دلالة على أن هذا الحديث قد كان فى تلك المواجهة الكبرى ، ولا يحتج بالشبه الذى بين هذا الحديث وحديثه فى المهد الذى ورد فى سورة مريم[2] فهو قد كلَّم الناس بالبلاغ والدعوة﴿ **فى المهد وكهلًا** ﴾[3] كما نص القرآن الكريم .

إذا لقد قفز بنا الحديث فى هذه المحاورة المتداخلة بين المشهدين ، من ذروة الإثارة فى حياة السيدة مريم العذراء يوم زارها روح القدس مبشرًا إياها بعيسى ، إلى ذروة الإثارة فى حياة عيسى عليه السلام ، ليقف بنا فى قلب المشهد الذى واجه فيه نبى الله عيسى قومه وقد جاءهم بالآيات البينات

---

(١) الكشاف ١ /٣٦٤ - الرازى ٨ /٦٠ ، البيضاوى ٧٤ . ولا وجه لما حكاه الرازى عن الزجاج من أن تقديره : ويكلم الناس رسولا . حيث أن السياق قد فصل بين قوله ﴿ **ويكلم الناس** ﴾ وهذا بما ردت به مريم ﴿ **قالت رب أنى يكون لى ولد ..** ﴾ إلا أن يكون قدر ﴿ **يكلم** ﴾ مضمرة غير الأولى ولا أدرى صحة هذا التقدير من عدمه .

(٢) مريم ٣٠ - ٣٦ .

(٣) آل عمران ٤٦ .

على صدق نبوته ، ودعاهم إلى عبادة الله الواحد ، لينكر منهم من ينكر ، متطرفا فى الكفر به ، ويعتقد بألوهيته من آمن به ، ليتطرف فى الكفر بربه ، فأحسَّ عيسى منهم ذلك ، فنادى فيهم متبرئا من هؤلاء وهؤلاء ، قائلا : من أنصارى إلى الله ؟ فقال الحواريون : نحن أنصار الله .

وبين المشهدين ثلاثون عاما[1] ، حقق الحذف القفزة بينهما ، وكانت عبارة الملك المحكية عن عيسى نقلة رائعة ، سبقت بقرون طويلة أرباب الفنون الحديثة الذين يفتعلون مشهدًا مشتركا بين مرحلتين من مراحل حياة شخوص القصة وأبطالها لينتقلوا من خلاله عبر مرحلة مطوية إلى المرحلة المتأخرة التى تقع فيها الأحداث المثيرة التى أُنشئت القصة من أجل عرضها وكرست لها .

وسيأتى مواقف مشابهة لهذا فى الحرفة ، ولكن ليس من خلال تداخل الحوار وإنما فى الحوار المتواصل أو غيره تعضد الفكرة التى تبين العلة الأساسية للحذف ولاتقف عند حدود تقدير المحذوف أو التصفيق إعجابا بقدرة الإسلوب القرآنى على الإيجاز ، ومعالجة مثل هذه المواقف تدخل ضمن موضوعات الفصل التالى .

❊❊❊

---

(١) ويكون بينهما أقل من العامٍ وهى مدة الحمل بعيسى لمن اعتقد أن كلام عيسى هذا كان فى مهده . وهو ما لا نقول به .

الفصل الثانى

وحدة المكان
والقفز بالحدث عبر الزمان

لم يشغل أهل الأدب بمثل ما شغلتهم به الوحدات الثلاث فى القصة والمسرحية ، وانقسموا على أنفسهم فيها ، وأدلى كل بدلوه ولم تقل فى شأنها كلمة أخيرة حتى الآن ، أما القرآن الكريم ، فقد عالج هذه المسألة على نحو بديع ، بحيث طويت الأزمان والأماكن فى قصصه على نحو لا يؤثر على مجريات القصة ولا يشعر بغرابة فيها ، بل إنه خدم القصة وأبرز أبدع مواقفها وأكثرها تأثيراً على اختلاف أزمانها وأماكنها دون أن يشعر المتلقى بتجاوز أو غرابة فى الانتقال من زمن إلى زمن أو من مكان إلى مكان ،فتجنب بذلك ما تفرضه وحدتا الزمان والمكان بالمفهوم « الكلاسى » من ضيق وحرج فى العمل الأدبى ، وأيضا لم يفرط فى إظهار الفوارق الزمانية والمكانية فى القصة الواحدة ، وتناول ذلك بحرفية بديعة كما رأينا فى المواقف والمشاهد السابقة ، وكما سنرى فيما يأتى من صور الحذف بين المشاهد أو فى ثنايا المشهد الواحد من وجوه الإبداع التى اتسمت بها القصة القرآنية فى هذا الفن

وأقرب هذه المَشَاهد إلى ما سبق ما جاء فى سورة النمل فى قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس ، التى تبدأ بتفقد سليمان مملكة الطير ، وتبين عدم وجود الهدهد ، الذى يصل بعد وقت قليل ، فيخبره بأمر مملكة سبأ من خلال محاورة تنتهى بتكليف سليمان لهذا الهدهد بأن يحمل رسالة إلى الملكة التى ادعى وجودها فى اليمن وبهذا ينتهى المشهد الأول .

ويحمل الهدهد الرسالة ويطير بها من الشام إلى اليمن حيث يصل إلى قصر الملكة ويلقى إليها بالرسالة فى قصرها الذى تعتكف فيه فلا يصل إليها إنسان[1] وتأخذ الملكة الرسالة وتقرأها وتنزعج لمضمونها العجيب ، وتخرج

---

(١) الكشاف ٣ /٣٦٤ .

بها إلى مجمع قوادها لتخبرهم بهذا المضمون وتشاورهم فى الأمر لتدور المحاورة الثانية فى المشهد الثانى !

هذان المشهدان فيما يظهر : فى الشام فى بلاط سليمان ، وفى اليمن فى بلاط بلقيس ، يقعان فى صورة محاورتين تكادان تكونان متصلتين ، لما وقع بينهما من حذف فى السرد ، وإن لم تتداخلا كما حدث فى المحاورات السابقة فى قصتى يوسف وموسى ؛ قال تعالى : ﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ . ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ . قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[1] .

هكذا ألغى القرآن الكريم كل ما وصفنا من مجريات القصة فيما بين هذين المشهدين المتباعدين مكاناوزمانا مستغنيًا عنها ببضع إشارات أوردها فى المحاورة الأولى على لسان سليمان ، وفى الثانية على لسان الملكة .

وفى فن المسرح يتفنن الكاتب فى انتقاء العبارات التى يلخص بها الأحداث التى تحدث خارج خشبة المسرح أو قبل زمن الأحداث التى تعرض عليها ، بحيث تنقل إلى المتلقى صورة لتلك الأحداث التى لا يتسع زمن العرض أو مكانه لها ، ولا يجوز إغفالها لأنها أصلية ؛ ومؤثرة فى القصة ينقطع بدونها الحدث وترتيبه ، وهذه الجزئية من حرفية العمل من أكثر الأمور حساسية فيه وهى معيار من معايير جودة العمل الفنى وبراعة الأديب الذى ينبغى أن يختفى تماما ولا يتدخل بسرد أحداث ،ولكنه يلقيها على ألسنة شخوص العمل الفنى بحيث لا تجىء مفتعلة أو دخيلة أو تقطع ترتيب الأحداث وتعطل تصاعدها[2] .

---

(١) سورة النمل ٢٧ - ٣٠ .

(٢) النقد الأدبى الحديث ٦٣ وما بعدها .

وهذه الإشارات التى جاءت فى كلام سليمان وبلقيس جاءت من صميم المحاورة لم تزد حرفًا عما ينبغى أن يقال ، ولم يقصد بها غير مادلت عليه فى المحاورة ، ومع هذا دلت على ما وقع وراء المشهدين ووراء الأحداث دون أدنى افتعال ، فجاءت ذورة فى « الحرفة المسرحية » ، فى عمل لم يقصد به أن يكون مسرحًا او قصة ، ولكنه إعجاز بلاغى من نوع لم يصنف من قبل ضمن علوم البلاغة العربية ، ويحسب للقرآن الكريم ويقاس عليه فيه .

قال سليمان عليه السلام : ﴿ **اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم** ﴾ . وقالت الملكة : ﴿ **إنى ألقى إلى كتاب كريم** ﴾

وهكذا اتصل الحوار ، وعلمنا أن الهدهد قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، على نحو يحسده عليه البشر ، كما أنه قد نقل إلى سليمان خبر ما دار بينها وبين قومها تنفيذًا لأمره ﴿ **ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون** ﴾ ، ولهذا جاءه رسولها ودخل عليه فلم ينتظر سليمان أن يسمع منه خبر ما أرسل به وإنما قال له : ﴿ **أتمدونن بمال** ﴾ وفى هذا باب جديد من وجوه الإيجاز ليس هذا موضعه .

ولكن إذا رجعنا إلى المشهد الأول الذى معنا هنا ، وجدنا الهدهد العجيب يخبر سليمان بأمر الملكة وقومها الذين يسجدون للشمس من دون الله ، فلا يكتفى بمجرد الإخبار وإنما يستطرد فى حديث لم يسأله عنه سليمان نبى الله الذى هو أعلم من الهدهد وغيره به ، فنراه يقول لسليمان متعجبا من هؤلاء القوم وكفرهم﴿ **ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾ ! فما شأن الهدهد بهذا ؟ ولمن يوجه حديثه ؟ وإذا كان الكلام خبرًا عن غائب فلمن يقول : « تخفون » ، و« تعلنون » ؟ وما علاقة كلامه هذا بسياق القصة ؟ وما العلة فى حكايته على لسان هدهد فى الكتاب

العزيز ؟ وعلاوة على ذلك كيف يتفق استطراد فيه إطناب كهذا مع ما وصفنا من الحذف بين هذا المشهد والمشهد التالى له ؟

وجواب كل هذه التساؤلات يكمن فى علتين اثنتين بنى عليهما هذا الكتاب المعجز :

أولاهما : أن الغاية من إنزال هذا الكتاب تتعلق بالعقيدة أولًا وقبل أى هدف آخر يتفرع عليها من أهداف ومقاصد القرآن ، فإثبات وحدانية الله ، والحديث عنها فى كل مناسبة ترد فى الكتاب يعد مقصدًا أساسيًا ينبغى تسخير النص له ، ولو أدى ذلك إلى تعطيل تصاعد أحداث القصة ، فلم لا تكون المناسبة هنا محققة للغرض بالإضافة إلى إصحابها بعجيبة أخرى تزيد الفائدة ولا تؤدى إلى تعطيل الحدث ، ومجىءالحديث على هذا النحو فى موقف من شأنه أن ينعكس الوضع فيه ليكون المذكر والمبلِّغ والناصح هو النبى لا الهدهد هو المفارقة التى نعنيها ، فالهدهد وهو من أتباع سليمان الذين سخرهم الله تعالى له يقف منه موقف المذكر بالله تعالى ، المتعجب من كفر الكافرين به ! فهو الطائر الأعجم الضعيف صغير الجرم قليل الجدوى ، يطير من الشام إلى اليمن وهى رحلة يقطعها الإنسان فى شهور فى ذلك الزمان ويأتى سليمان بخبر لا يعرفه ولا يدرى عنه ، ثم هو يعلن أمامه وأمامنا نحن نظارة هذا المشهد استنكاره لمسلك هذه الأمة فى الشرك بالله ، ويلتفت إلينا بعد ذلك قائلًا : ﴿ .... **ويعلم ما تخفون وما تعلنون** .... ﴾ ذلك لنتوقف عند هذا الحدث الثانوى والحديث الأصلى متعجبين متسائلين ، ونبقى هكذا حتى تنتهى القصة ، لندرك فى نهايتها أن هذا الهدهد كان سببا فى تلك الهداية التى حلت بملكة ومملكتها وأن مجىء مثل هذا الحديث فى هذا الموضع ليس إقحاما ، وإنما هو حث لسليمان على أن يتخذ موقفا إزاء هذا الشرك البين ، وكما سخر

الله الهدهد لتلك الأفعال التى ذكرناها ، سخره أيضا ليحث نبى الله على القيام بهذه المهمة[1] .

أما العلة الثانية فهى أن الوسيلة التى اختارها الله تعالى لبيان الغاية من إنزال القرآن ، وإثبات صدق دعوة هذا النبى الذى جاء ليبشر بهذه الدعوة ، هى لغة القرآن نفسه الذى جعله الله تعالى معجزة ودليلا على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبلاغة القرآن هى رأس هذه المعجزة كما نعلم ، ولا شك أن إعمال الحرفة العالية فى القصة القرآنية جزء من هذه البلاغة ، وبهذا تجاورت الظاهرتان البلاغيتان الموصوفتان : الإطناب ، والإيجاز بحذف بعض مجريات القصة وطيها ، وهو أمر كثر وروده فى القرآن الكريم وقد تعرضنا لبعضه فيما سبق[2] .

إن الحذف يظهر من المعانى والمضامين التى وراء المعانى ، مثل ما يظهر الكلام المذكور ، وربما أكثر ، وقد يظهر الحذف هنا أن الله تعالى سخر لسليمان من القوى أكثر مما ذكر فى هذه السورة وغيرها بتمكين الهدهد من قطع المسافات الطويلة فى زمن وجيز[3] ، وقد يكون فيه دلالة على امتثال الهدهد وتأدية الرسالة على الوجه الأكمل مثله فى ذلك مثل موسى وأخيه وأخوة يوسف فى المواقف المذكورة آنفا .

وقد يكون الإيجاز بحذف ما يدرك من السياق من أغراضه أيضًا ، ولكن الدلالة الواضحة للحذف فى مثل هذا الموقف تبقى كامنة فى النقلة الحرفية فى « العرض » للتغلب على الصعوبات التى تكتنف ما يسمى بوحدتى الزمان

---

(١) علل سيد قطب هذا الحديث بأنه اعتذار من الهدهد لسليمان عن غيابه انظر الظلال جـ٥ ص٢٥٣٩ .

(٢) تحت عنوان : « التفصيل والاجمال » فى الباب الأول .

(٣) فتحى إسماعيل : من أسرار الحذف . مجلة كلية اللغة بالقاهرة ع٨ ص١٦٥ .

والمكان ، من تلاحق المشاهد والمناظر ، واختلاف الأمكنة مع تباعدها ، وما يفصل بينها من أوقات ، مع إضافة عنصر الإثارة والتركيز بين طرفى العمل الأدبى : المُرسِل والمُستَقْبِل ، مما يدعونا إلى التذكير بطبيعة المرحلة التى يقع فيها المشهد من العمل الأدبى وهى مرحلة « التصعيد » التى تستدعى تتابع الأحداث وتدفقها لكى تتصاعد ولتبقى المشاعر ساخنة والانتباه والتركيز منصبا على العمل ومجرياته . ويسوقنا هذا إلى الاعتقاد بأن هذا الجزء الذى يعتقد أنه جرى فى قصر ملكة سبأ هو فى الحقيقة داخل فى رواية الهدهد لسليمان ، بعد عودته من رحلته وتأدية الرسالة ، أى أن المشهد هنا يجرى كله فى قصر سليمان ، وعليه فلو أننا قدرنا المحذوف بين الآيتين كالآتى لتحقق هذا الاعتقاد : ﴿ **اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون** ﴾ فذهب ورجع فقال إنها﴿ **قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم** ﴾ . وستتجمع لدينا أدلة صحة هذا التقدير فيما يأتى من هذه الدراسة . ومثل هذا يقال فى قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأويلِهِ فَأَرسِلُونِ . يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأكُلُهُنَّ سَبعٌ عِجَافٌ وَسَبعِ سُنبُلَٰتٍ خُضرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَعَلِّى أَرجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُم يَعلَمُونَ** ﴾[1] .

فلو كان الغرض من الحذف بين المشهدين الإيجاز بمعنى تقليل عدد الكلمات مع تحميلها الكثير من المعانى ، لكان أولى مما حذف بالحذف ما قال الساقى ليوسف ، إذ هو تكرار لما قاله الملك قبل ذلك بآيتين ، وهو نص رؤيا الملك ؛ فأية جدوى تعود علينا نحن المتلقين من سماعنا نص هذه الرؤيا مرتين لا يفصل بينهما سوى كلمات قليلة ، مع حذف مجريات تهمنا من القصة فى هذا المشهد وذاك ! !

---

(١) سورة يوسف ٤٥ – ٤٦ .

مثل هذه الملاحظة يحتم علينا أن نبحث عن علة أخرى لهذا الحذف غير الإيجاز ؛ وإلا لكان ثمة تناقض فى تعليلاتنا للظواهر المتجاورة فى القرآن الكريم ، التى يدفع بعضها تعليلاتنا لبعضها الآخر .

إن استحضار المَشَاهد لدى المُتَلقِّى ، وكأنها تعرض عليه من خلال آلة عرض كفيل ببسط العلة الحقيقية للحذف فى تلك المواقف كلها ، وعلة ذكر ما يمكن حذفه من المجريات فى تلك المواقف أيضا ، ونحن فى هذا المشهد من قصة يوسف نراقب حدثا ثانويا من أحداثها يقع فى بلاط ملك مصر ، الذى يقص على حاشيته رؤيا رآها وينزعج لها ، ويطلب منهم أن يبحثوا لها عن تأويل ، فلا يجد عندهم بغيته ، فإذا الساقى ، الذى كان حاضرًا المحاورة يتذكر ، ما دار بينه وبين يوسف فى السجن ، وما بشره به من الفرج بعد سجنه ، ويعلم أن رؤيا الملك لا يعبرها إلا يوسف فيطلب الإذن بالذهاب إلى حيث يأتيهم بتأويل تلك الرؤيا . وينتهى المشهد الذى نجح بكلمات قليلة فى جعل هذا الحدث الثانوى سببا فى خلاص يوسف ونجاته من الكرب الملم به سنين طوالا ، ولا ينبغى أن نحسب أن المشهد قد انتهى حقيقة بهذه الكلمة التى قالها الساقى﴿ **أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون** ﴾ ، ولكن الأحداث تسير بحسب ترتيب منطقى ، يقتضى ألّا يرسلوه حتى يعرفوا ما وراءه : كيف تعرف تأويله ، ومن الذى يفعل ذلك . وكيف عرفت بمقدرته على التأويل ، وأين هو ؟ ، وما سبب سجنه ؟ وبعد الإجابة على هذا السيل من التساؤلات يسمح له بأن ينطلق إلى السجن الذى كان فى مكان بعيد[1] ليطلب من آمر السجن أن يسمح له بلقاء يوسف بأمر الملك ، ويؤذن له ، ويدخل إلى يوسف ويحييه ويشكره على حسن صنيعه معه ثم يبدأ فى سرد ما جاء من أجله : ﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا** ﴾ ويسرد عليه رؤيا الملك بحذافيرها ولا

---

(١) الكشاف : ٢ /٤٨٦ .

يكاد ينتهى منها حتى يأتيه تأويلها من فم يوسف دون تريث أو انتظار أو طويل تدبر وتفكر ، وكأنه يعلم سلفا ما جاء به الساقى ، ويجىء تأويله موازيا تمامًا للرؤيا .

ولكن الآيات كما رأينا قد أضمرت معظم هذه الأحداث ، وحذفت تماما ما جاء فيما بين المشهدين مع جزء من المشهد الأول من نهايته ، وجزء من المشهد الثانى من صدره ! !

إن الباحث عن علة هذا الحذف كمن يمشى على الأشواك ، وإطلاق أى تعليل قد يقابل فورًا بما يخطئه وينفيه ، فلو قلنا مثلا فى تعليل تكرار الرؤيا : إن الرجل اشتاق يوسف ، فأراد أن يطيل المقام ليبل شوقه وشوقنا إليه[1] ، جاء الرد على ذلك بأن الساقى لابد سيقص الرؤيا على يوسف سواء أذكرت فى السياق أو حذفت ، ولو كان الغرض إطالة المقام مع يوسف لما حذف ما حذف من صدر المشهد الواقع فى السجن ، ولكان ذلك أولى بالذكر من تكرار ما سبق ذكره !

وبعد استنفاد كل أنواع العلل المطروحه على ساحة البحث ، لا يبقى أمامنا إلا الحرفة القصصية ، وما يسمى« بتصميم المشاهد فى العرض » لنعلل من خلالها تلك المشاهد التى صممت لتحريك مُخيلة السامع ليستحضر الصور والمشاهد وكأنه يراها وينتقل معها حيث تنتقل ، وبهذا جاء بتر المشهد الأول بمجرد إتمام عملية الاتصال بين الحدث الفرعى والحدث الأصلى من خلال الساقى وجملته المقتضبة الكاشفة عن علاقة رؤيا الملك بمجريات القصة ، حيث قال﴿ **أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون** ﴾ ، لينطلق بنا مباشرة إلى يوسف فى سجنه ليزيد آصرة الحدثين الفرعى والأصلى ليدخل ببلاط الملك وشخوصه فى مجرى الأحداث الرئيسى مباشره ، ونحن معه فى الطريق إلى

---

(١) قياسًا على ما علل به بعضهم موقف موسى عندما سأله ربه عن العصا فى سورة طه ! .

السجن نعمل فكرنا بأعلى طاقاته لربط كل تلك الأحداث ببعضها ، منذ رؤيا يوسف فى صغره إلى لحظة دخول الساقى إليه فى سجنه للمرة الثانية مرورًا بتلك الرؤيا التى عبرها آنفا لهذا الساقى ورفيقه ، ومرورًا بقوله لهذا الساقى : ﴿ **اذكرنى عند ربك** ﴾ ، ونسيانه الذى تسبب فى بقائه فى السجن بضع سنين !

كل ذلك بالإضافة إلى أن الأحداث كانت آخذه فى التصاعد ، وهذه الملاحظة لابد أن تبسط قبل الأحداث وبعدها لنكتشف أنها كانت هادئة تتشابك بشيء من البطء والحذر حتى خروج الساقى من السجن ولُبث يوسف فيه بضع سنين ، ولكنها بعد ذلك تنطلق متسارعة فى مرحلة خروج يوسف من السجن ، وتردد الرسل بينه وبين الملك وتعدد المشاهد التى كانت جميعا من النوع المبتور الذى يقفز السياق فوقه قفزًا ويتخطى من ذروة إلى ذروة كما سنرى فيما بعد ، أى أن طبيعة المرحلة وهى مرحلة التصعيد أيضا تدخلت فى تشكيل السياق وتنفيذ المشاهد على هذا النحو من خلال الاضمار والحذف وطى الحدث .

أما لماذا تكرر ذكر الرؤيا فى المشهدين ، وهل يتفق هذا مع طبيعة مرحلة التصعيد ؟ فمن البين أن يوسف عليه السلام كانت آيته التى أرسله الله بها لتكون دليل نبوته هى القدرة على تأويل الأحاديث أى تعبير الرؤى ﴿ **ويعلمك من تأويل الأحاديث** ﴾[1] ، ﴿ **وعلمتنى من تأويل الأحاديث** ﴾[2] وهى تلك الصفة التى جعلته فى نظر الساقى « صديقا » ، وألجأته إليه فى المرة الثانية لكى يعبر له رؤيا الملك ، ومن البين أيضا أن قصة يوسف قد بنيت الحبكة فيها على هذا المحور ، فالقصة كلها من أولها إلى آخرها

---

(١) سورة يوسف : ٦ .

(٢) سورة يوسف ١٠١ .

تحقيق لرؤياه الأولى[1] ، كما كانت الرؤيا الثانية وهذه الثالثة ؛ من صاحبيه فى السجن ومن الملك نقطتى تحول جوهريتين فيها وكلتاهما كانت من تأويل يوسف وقد تحققتا كما أوّلهما ، على الرغم من أن الرؤيا الثانية التى فى السجن كانت مفتعلة كما ذكر المفسرون[2] ، ولعل هذا هو السر فى وصف قدرة يوسف على تعبير الرؤى بأنها « تأويل الأحاديث » لتكون أعم وتشمل الرؤى والأحاديث التى كالرؤى .

ولأجل هذا يشاء الله تعالى أن يجىء السياق دالا على هذه الصفة فى يوسف من خلال الصياغة الأسلوبية ، بالإضافة إلى المضمون ، زيادة فى بيان هذه الصفة فى يوسف الصديق عليه السلام ، فيضع الرؤيا على لسان الساقى ، يتبعها – مباشرة وبدون أى فاصل تأويلها لكى يوضح لنا ثلاثة أمور :

أولها : أن يوسف عليه السلام بادر بتأويل الرؤيا تلقائيا ومباشرة ودون أدنى تريث أو تمهل أو إعمال فكر أو رَوِيَّة بمجرد انتهاء الساقى من سردها وكأنه كان يعلم بالأمر من قبل ، ولم لا وقد أوحى الله تعالى بالرؤيا للملك خصيصا لأجل يوسف ؟ وهذا أمر لا يتأتى بيانه للمتلقى إلا من خلال هذه الصياغة التى توالى بين سرد الرؤيا وسرد التعبير على هذا النحو .

الثانى : ليتضح الفارق بجلاء بين ما أجاب به الملأ من حاشية الملك ووزرائه على طلب الملك عنهم تعبير الرؤيا ، وما أجاب به يوسف عليه السلام الساقى فى أمر تعبير الرؤيا نفسها !

الثالث : إظهار المطابقة والتوازى الدقيقين بين الرؤيا وتعبيرها من خلال وضع كل منهما بإزاء الآخر فى مشهد واحد ، دون ما حاجة إلى إرجاع

---

(١) انظر ما سبق فى هذا ، فى الفصل السابق تحت عنوان : التفصيل والإجمال .
(٢) الكشاف ٢ /٤٧١ .

المتلقى مستمعا كان أو مشاهدًا إلى المشهد السابق الذى كان الحدث فيه ثانويا ولم يكن هذا المتلقى قد أدرك بعد المغزى من الإتيان برؤيا الملك فى هذا المقام .

يضاف إلى كل ذلك ما أفاض فيه المفسرون[1] والبلاغيون جزاهم الله خيرًا - من الحديث عن أن تعبير الرؤيا جاء بزيادةٍ صدَّقها الواقع فيما بعد لم ترد فى الرؤيا نفسها وهو قوله تعالى على لسان يوسف﴿ **ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون** ﴾ ليدل على أن رؤيا الملك ليست هى الصادقة وإنما هى سبب ، وأن تأويل يوسف هو الصادق الذى تحقق فيما بعد بفضل الله تعالى وبما علمه من الحكمة وتدبير الأمور .

ولسنا نريد أن تجرنا عملية مطابقة الألفاظ على المعانى والسياق على المضمون ، بعيدًا عن الهدف الأساسى من هذه الدراسة ، وإنما نتناول ذلك بالقدر الذى يعين على تصور كيفية صياغة الأسلوب والسياق لخدمة الحرفة القصصية وتصميم المشاهد وعرض المواقف ، وأيضا بالقدر الذى ألزمنا أنفسنا به منذ البداية وهو ألا نفرد ظاهرة قرآنية بالدراسة دون نظيرتها الملازمة لها ، ولا شك أن وجود الحذف كما صنفه البلاغيون تحت باب الإيجاز ، مع الإطناب ، الذى جعله البلاغيون صنوا مقابلا للإيجاز ، يفرض علينا أن نبحثهما معاوإلا كنا عرضة للقصور والخطأ فى التفسير والتعليل ، كما أن هذا المنهج قد أفاد كثيرًا فى تقويم بعض المفاهيم الشائعة حول الإيجاز والحذف كما رأينا .

ونعود إلى مرحلة الذروة من قصة يوسف عليه السلام لنتابع تسلسل السياق فى قفزاته بين ذرى المشاهد ما بين قصر الملك والسجن البعيد حيث يوسف عليه السلام ، حيث كنا قد انتهينا إلى زيارة الساقى له فى سجنه مكلفا

---

(١) تفسير الطبرى ١٢ /٢٣٤ .

بمهمة رسمية من الملك بسؤال يوسف عن تأويل الرؤيا ، وهو ما أخبره به يوسف ، ولنمض مع السياق بدءًا بهذا التأويل : .

﴿ قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم . قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم . وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾[1] .

فى هذه المرحلة من القصه نرى أكثر المفسرين يركزون كلامهم على نقطتين : .

الأولى : أن يوسف لم يستجب لدعوة الملك للخروج من سجنه والقدوم عليه على الرغم مما وراء هذه الدعوة من فك أسره وسجنه والكرامة بالدخول على الملك .

الثانية : دفاعهم المستميت عن نسبة الآية الكريمة **﴿ وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء . . . ﴾** إلى يوسف واستعانتهم فى هذا برواية منسوبة

---

(١) يوسف ٤٧ – ٥٤ .

لعبد الله بن العباس[1] .

والنص القرآنى منذ بداية هذه المرحلة بقول الملك ﴿ **إنى أرى سبع بقرات** ... ﴾ يتخذ بلاط الملك مرتكزًا للأحداث إلى غاية المرحلة التى انتهت بتولية يوسف خزائن الأرض ، لتنتقل الأحداث بعدها إلى مرحلة جديدة ، ومشهد آخر فى زمان ومكان مختلفين .

ويتخلل هذا المشهد الطويل المفعم بالأحداث والمفاجآت ، حوادث قليلة دارت خارج المكان ، وقد اعتمد القص على وحدة المكان فى هذا المشهد لتجسيم ما وقع فيه من أحداث وإبرازها على غيرها من الأحداث التى أضمر وحذف كثيرا منها ، وأبقى بعضا آخر لضرورته وتأثيره ، ولكن جاء به بأسلوب يشبه أن يكون من قبيل قص الحدث البعيد ، ولكن ليس بالأسلوب المسرحى ، وإنما بطريقة القرآن فى استحضار الأحداث وعرضها بعيدا عن التكلف الذى يتسم به استحضار الأحداث فى العرض المسرحى مهما كان مؤلفه من البراعة .

ولهذا فأننا لا نكاد نشعر بالانتقال أو بالغربة فى هذا المشهد على الرغم من أن الحوادث أوحت بمبارحته أكثر من مرة فى المواضع الآتية :

أولًا : الساقى يرحل إلى السجن ليلقى يوسف مكلفًا من الملك لأجل تأويل الرؤيا .

ثانيًا : رسول الملك يطلب إلى يوسف أن يقدم على الملك .

ثالثًا : رسول الملك يطلب إلى امرأة العزيز وباقى النسوة الاجتماع عند الملك .

---

(١) قاله ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم وتبعهما فيه بعض المفسرين . انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١ /١٩٦ . وجوز الوجهين ومال إلى الأول صاحب التحرير والتنوير : ١٣ / ٥ - ٦ وذكر آراء المفسرين فيه .

رابعًا : رسول الملك يعود مرة أخرى إلى يوسف ليوافى الملك به هذه المرة .

والناظر فى النص متعقبا هذه المواضع يتبين له أن الحذف قد توافر فيها على نحو غريب ، حيث وقع أولًا الحذف الذى وصفناه آنفا فى الانتقال من قصر الملك إلى سجن يوسف .

ثم يقع الحذف الثانى بين السجن وقصر الملك وهى رحلة العودة بتأويل الرؤيا ، لنفاجأ بعد انتهاء يوسف من التأويل مباشرة بقوله تعالى ﴿ **وقال الملك ائتونى به** ﴾ وهذا يعنى أن عودة الساقى وإخباره الملك بالتأويل قد أضمرا(1) .

ومعنى هذين الحذفين قبل مشهد السجن وبعده أن هذا المشهد يظل معلقا فى الهواء دون رابط لفظى من السياق بما قبله وبما بعده ، ولكن الرابط المعنوى متحقق ولنا إليه عودة .

ونمضى مع المشهد من قول الملك : « ائتونى به » فى المرة الأولى ، ليذهب رسول إلى يوسف مع سرد وجيز ينفى الحذف أو يجعله كلا حذف ، فى قوله تعالى ﴿ **فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم** ﴾ وهنا يقع الحذف الثالث الموازى للحذف الثانى تماما ، حيث إنه جاء ما بين السجن وقصر الملك إذ نفاجأ بالملك « قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله . . » بمعنى أن هذا الحذف الكبير قد تناول أحداثا كثيرة ، تبدأ برجوع الرسول إلى الملك ، ثم إخباره بما قال يوسف واستخبار الملك عن القصة ، ثم إرساله

---

(1) قال ابن الأثير : المثل السائر ٢ /٢٧٧ بعد أن ذكر تقديره : والمحذوف إذا كان كذلك دل عليه الكلام دلالة ظاهرة ، لأنه إذا أثبتت حاشيتا الكلام وحذف وسطه ظهر المحذوف لدلالة الحاشيتين عليه .

فى طلب النسوة ومجيئهن . ومثولهن بين يدى الملك ليسألهن هذا السؤال عن القصة التى شاعت فى المجتمع من حوله[1] ، وهنا نلاحظ مالاحظه المفسرون من إضراب يوسف عن الخروج من سجنه حتى تتبين براءته مما نسب إليه ، ونؤكد على أنه لم يبارح سجنه ، وأن المشهد يجرى فى قصر الملك ، وأن ما دار بين النسوة وبين الملك كان يوسف غائبا عنه ، وأن لقاء الملك بهؤلاء النسوة قد أنهاه الملك حيث قال تعالى ﴿ **وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى** ﴾ تعبيرا عن مزيد شوقه إليه ورغبته فى لقائه بعد أن ثبتت براءته وما تكبد من كرب ومشاق وآلام . وكل ذلك يعنى أن يوسف كان غائبا عن المشهد المثير المفعم بالأحداث إلى هذه اللحظة على الرغم من أنه هو محوره . ويجىء الحذف الأخير هنا فى نهاية قول الملك ، حيث قال تعالى : ﴿ **فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ حيث حذف رحلة الرسول ذهابا وإيابا مصطحبا يوسف فى عودته إلى بلاط الملك ، ولكنه يدخل هناكلمة جديدة لها دلالتها على طول اشتياق الملك ليوسف حيث قال « فلما كلمه » حيث إنها تدل على ما ذكرنا من عدم تصديق الملك أن يوسف أخيرًا قد حصل عنده ، وتدل أيضا على أنه بتكليمه إياه قد عاين منه أكثر مما كان يعتقد فيه من صفات الكرامة والشرف والعقل والحكمة ، حتى قال له : إنك اليوم لدينا مكين أمين .

وبهذا نجد بين يدينا فى المشهد أمرين :

أولًا : حذف كثير فى الأحداث التى تقع خارج بلاط الملك ولا سيما فيما فيه حركة ، وعندما تعاظمت الحركة حذف معها ما تخللها سواء داخل قصر الملك كطلبه النسوة ليمثلن بين يديه ، وما كان خارجه كالرسالة الأخيرة

---

(١) دلَّ ابن الأثير على بعض ذلك الحذف وقدره . انظر : المثل السائر ٢ /٢٩١ وكذلك الطبرى فى تفسيره .

ليوسف فى المرة التى قدم فيها على الملك .

الثانى : أن كل ما ذكر مما دار خارج بلاط الملك قد حذف ما حوله مما يربطه بما قبله وبعده لفظيًا فصار معلقًا كما ذكرنا فى الحذفين الأول والثانى .

وهذا كله يؤكد على ما تبين آنفا من أن :

– الحذف يكثر فى مرحلة الذروة ليقارب بين الأحداث ويحفظ عليها إثارتها وتأججها ويكثف الأحداث بالتركيز والقفز فوق ذراها .

– الحذف يطرأ على ما يراد إضماره مما يحدث خارج مكان الحدث (المشهد) . وأنه تركز فى هذه المرحلة على المكان أكثر من الزمان .

– هذا الحذف يحيط بما يراد ذكره مما يقع خارج المكان من أجل أن يجعله فى حكم ما يروى رواية من قبل من جاء بخبره ، وهذا يقتصر عادة على الأحداث المؤثرة وذات التفصيلات الدقيقة التى ينبغى أن يحيط بها الحاضرون من شخوص القصة ويحيط بها السامعون كذلك ، ولهذه النقطة بالذات تفصيل لا يتأتى إلا للمجيدين من الكُتَّاب حيث إن إحاطة السامعين دون شخوص القصة بالحدث له طريقة تختلف عما إذا كان الأمر على العكس أى إحاطة شخوص القصة دون السامعين ، وتختلف أيضا عما إذا أريد إحاطة الجميع ، وسيأتى تفصيل بعض ذلك فى مواضعه من هذه الدراسة ولا سيما عند الحديث عن « الحديث الجانبى » ، « وحديث النفس » فى أخريات هذا الباب[1]

---

(١) راجع : قضايا النص المسرحى المعاصر بمصر – رسالة عالمية « دكتوراة » كلية اللغة العربية – القاهرة ١٤٠٢ ، ١٩٨٢م للمؤلف ، وقد كنا استعنا فى المبحث الخامس من الفصل الثانى منها (ص٢٧٦ : ٣٢٤) برسالتى ماجستير ودكتوراة لباحث واحد هو : جمال شلبى ، أولاهما فى لغة التأليف المسرحى ١٣٩٨ ، ١٩٦٩م والثانية مذاهب الحبكة فى المسرح =

وأخيرًا فإن ما أوضحنا من طبيعة المحاورات وحركة الحدث فى هذا المشهد المثير من قصة يوسف ، وكذلك طرائف الحذف فيه ، تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن يوسف عليه السلام لم يقل هذه الكلمات التى قالتها امرأة العزيز « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم » وأنه برىء منها براءة الذئب من دمه – كما يقولون – وأن هذه الكلمات هى من صميم كلام امرأة العزيز ، توضح الانقلاب الذى وقع فى موقفها حيث يظهر فرق ما بينهما من الموازنة بين قولها فى مجلسها الأول مع النسوة اللاتى قطعن أيديهن : « فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » وهذا القول الواقع فى موقفها بين يدى الملك : « الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء . .

ولقد استند من ادعوا أن هذا من كلام يوسف إلى دليل من النص ، وهو بحسب زعمهم أن ضمائر التكلم تعود عليه لا على غيره وهى (أنى ، أخنه ، أبرىء نفسى ، ربى) وأن ضمير الغيبة فى (ليعلم ، أخنه) عائد على العزيز ، وليس ثمة دليل واحد يدل على ذلك ، فأين العزيز من هذا الموقف ، وهل يمكن فيما عرفنا من قواعد اللغة أن يعود ضمير على ما لم يرد له ذكر فى الكلام ولو تلميحا . وهذا الكلام أيضا يرد به على الدليل العقلى الذى ساقوه وهو أن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن مؤمن بالله ، فهو أليق

= المصرى ١٣٩٦ ، وهما بجامعة الاسكندرية ، وقد استعان الباحث فى بحثيه الجادين ، وتبعناه فى ذلك ، بأساليب الحوار ومجريات الأحداث فى القصة القرآنية ، ولكننا كنا آنذاك غافلين عن فعل خاصية الحذف فى مجريات القصة وحوارها ولذلك خلت تلك الدراسات كغيرها من كل ما يتعلق بما نحن بصدده الآن .

بيوسف منه بامرأة العزيز ، زاعمين أن امرأة العزيز ليست مؤمنة ، ونحن نزعم أن امرأة العزيز لم تغير موقفها ، ولم يحدث هذا الانقلاب فى حياتها ، ولم تقر بما فعلت بيوسف بعد ما تجلى من امره ولم تصف أمره بأنه « الحق » وبأنه صادق ، إلا بعد أن آمنت وكان هذا دليل إيمانها ، ولهذا اتصل بكلامها ما يدل على ندمها وحرصها عليه ، وهو ذلك الكلام الذى نسب إلى يوسف بلا دليل ، وعليه فالضمائر كلها عائدة عليها وعلى يوسف ضمائر التكلم عليها ، وضمائر الغيبة على يوسف الذى لم يكن حاضرًا هذا الموقف ، لأنه كان فى سجنه ساعتئذ ، ولهذا ادعى بعضهم أن المشهد الذى بين يدى الملك قد توقف عند نهاية اعتراف امرأة العزيز بقولها ﴿ **وإنه لمن الصادقين** ﴾ وأن قوله ﴿ **ذلك ليعلم أنى لم أخنه** . . ﴾ إلى قوله ﴿ . . **إن ربى غفور رحيم** ﴾ قاله يوسف وهو فى سجنه بعد أن نقل إليه الرسول كلامها ، وهذا مردود بطبيعة المشهد التى تدل على أن جميع الأحداث من أول رؤيا الملك إلى أن صار يوسف وزيره تجرى فى بلاط الملك ، وأن ما يجرى من الأحداث خارجه إنما يرويه راو بين يدى الملك ، وهو فى الغالب الرسول الذى يتردد بين القصر والسجن ، وكل ما نقل عن يوسف فى المشهد كان تاليًا لإرسال الرسول ، وليس هذا القول مسبوقا بما يدل على أن ثمة رسولا إلى يوسف أو عائدًا أمن عنده ، فطبيعة المشهد هنا تشهد ضد من تبنى هذه المقولات وترد قوله بالدليل العقلى ولا يصح عقلا أيضا أن يكون هذا الكلام من يوسف مقصودًا به العزيز ، لأن العزيز يعلم براءة يوسف منذ حادثة القميص ، وليس فى حاجة إلى مثل هذا الاستجواب[1] ، وقد رأى من قبل آية بينة تغنيه عن الاستجواب والإقرار معا .

---

(١) بهامش الزمخشرى ٢ / ٤٨٠ مناقشة جيدة لهذا الرأى من صاحب كتاب الانتصاف الإمام أحمد بن المنير الإسكندرى ، تؤيد مذهبنا هذا .

أما الدليل النقلي الذى استدل به هؤلاء ، فهو بيِّنُ البطلان ، وعلامات الوضع فيه لا تخفى ، وهو ما روى عند الطبرى وغيره[1] منسوبا إلى ابن عباس ، وهو قوله : حدثنا أبو كريب قال حدثنا وكيع عن إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : لما جمع الملك النسوة فسألهن : هل راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴿ **قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ قال يوسف : ﴿ **ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين** ﴾ قال : فقال له جبرئيل : ولا يوم هممت بها ؟ فقال : ﴿ **وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾ .

وهذه الرواية تتعارض مع التفسير الصحيح لقصة الهم وفى تعدد رواياتها ، وما يحمله بعضها من سوء أدب وتطاول سفيه على مقام النبوة ، ما يردها ويكذبها وينسبها إلى الاسرائيليات ، وإن ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير برآء منها ، والله تعالى برىء منها ومن واضعها ، ولا أدرى كيف دخلت على الطبرى ومن تابعه ، وهى تعارض النص معارضة فاضحة وتعارض أيضا طبيعة المشهد كما صورناه آنفا ، وقد ردها كثير من المفسرين والمؤرخين ولم يأخذوا بها ، ومال أكثرهم إلى أن الكلام لامرأة العزيز ، لأن نظم الكلام لا يحتمل غيره[2] ولولا أن نخرج من إطار الدراسة لأفضنا فى بيان الوجوه التى يرد بها هذا ومثله ، ولكنا اكتفينا فى رده بما يليق بدراستنا ويتعلق بها من الوجهة الفنية لأجل أن يظهر مدى فائدة الدراسة فى رد مثل هذه القصص المحشوة فى تراثنا وحشرت فيه حشرا[3] ، ولسنا نريد أن نتجاوز ذلك

(١) رواه فى تاريخه ١ /٣٤٦ ، وتفسيره ١٣ /٣٢٢ .

(٢) قصص الأنبياء – عبد الوهاب النجار ص١٦٦ .

(٣) شكك الشوكانى فى التفسير المنسوب لابن عباس لوروده من طريق الكذابين « الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة » ص٣١٦ .

لنتوغل فيما عرضت هذه الآية عليه من مسائل العقيدة وعلم الكلام ، وإنما نتوقف عند حدود الدراسة الفنية ولمن شاء من العلماء التوغل فى مسألة العصمة أن يستدل بما ذهبنا إليه من رأى يؤيد تلك العصمة بجلاء ، أو يخالفنا إذا شاء

***

وقد يرد الحذف فى الحوار المتواصل لأجل الدلالة على النقلة الزمانية كما ورد من قبل فى الحوار المتداخل ، وعلى النحو الذى وصفناه هناك ، ولكن النقلة تجيء هنا شديدة وعاصفة ومثيرة للانتباه أكثر من نظيرتها فى الحوار المتداخل ، التى تنساب مع نبرة صوت البشير التى كانت مرتفعة ثم تأخذ فى الخفوت رويدًا ويعلو صوت الآخر بنفس القدر لنجد آخر الكلام له ، وكان أوله لغيره ، ونرى المسيح بن مريم ماثلًا أمامنا يبلغ قومه ما أرسل إليهم به ، أما هذا الموقف فإن يحيى يمثل أمامنا فجأة وبلا مقدمات فيما يشبه أن يكون حوارًا – وهو ليس كذلك وسيتبين ذلك بعد عرض الايات التى تصور محاورة ربانية مع زكريا عليه السلام الذى يطلب إلى ربه أن يهبه وليا ، فينعم الله عليه بولد ، ويجعل له آية لذلك ، فيخرج على قومه من محرابه الذى ناجى فيه ربه ، ليوحى إليهم أن يسبحوا ربهم بكرة وعشيا ، ثم نفاجأ بنداء ربانى يوجه إلى يحيى الذى لم يولد بعد :

﴿ قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا . فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا . وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا . وبرًا بوالديه ولم يكن جبارًا عصيا . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا ﴾(١)

---

(١) مريم ١٠ – ١٥ .

إن السامع هنا مازال متأثرًا بروح تلك المحاورة الربانية ، التى انتهت توًا ، وزكريا يخرج من محرابه ليواجه من ينتظره من قومه ليصلوا معه ،وهو يوحى إليهم (يشير) أن يسبحوا بكرة وعشيا ، ولنا أن نتصور نوع الحوار الذى كان دائرا فى المحراب وطريقته ، ثم نوع الحوار الصامت الذى دار بعده خارج المحراب ، لندرك طبيعة النقلة التى حدثت وأثرها فى المتلقى ، عندما نفاجأ بنداء لا ندرى مصدره يخاطب يحيى ، ويقول له : ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** ﴾ ! ليتبين لنا أن يحيى هذا هو من بُشّر به زكريا قبل قليل ، وأنه صار من الادراك والقوة والفتاء بحيث يصح تكليفه[1] ويخاطب بهذا القول . وللوهلة الأولى يحسب السامع أن هذا القول متمم للحوار السابق ، ولكن تكملة السياق تدل على أنه قد انتهى وأن ما وراءه من السرد هو وصف ليحيى ، وأن أصح ما يقال فيه هو أنه طريقة للانتقال ، أى أنه من جنس الحذف الانتقالى الذى نحن بصدده ، إذ انتقل بنا من زكريا وقصته إلى يحيى على النحو الموصوف آنفا فى الحذف الذى وقع فى قصة مريم وعيسى فى مرماه ، مع اختلاف الطريقة هناك من الحوار المتداخل عنها هنا ، إذ تشبه أن تكون من نوع الحوار المتصل وليس يكفى فيه أن يقال إن الحذف كان لما دل الكلام عليه[2] ، وطلبا للإيجاز ولا يصح أن يقال إن ما حذف جملة غير مفيدة[3] ، حيث إن القرآن ذكر نظيرًا لها فى موضع آخر فى قوله تعالى ﴿ **ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما** ﴾[4] فى شأن يوسف ، وقوله تعالى :

---

(١) اختلف العلماء فى السن التى كلف فيها يحيى . انظر : قصص الأنبياء لابن كثير ص٥٤٧ ، تفسير الرازى ٢١ /١٩٢ .

(٢) وهو ما ذهب إليه الفخر الرازى . انظر : الرازى ٢١ /١٩٢ .

(٣) وهو ما ذهب إليه ابن الأثير فى المثل السائر ٢ /٢٨٠ .

(٤) يوسف ٢٢ .

﴿ **ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما** ﴾[1] فى شأن موسى عليهما السلام ، والذى يصح أن يقال فيهما من أن النص على بلوغ الأشد ، لأن ما يأتى بعده من السياق يستدعى أن يكون قد بلغ كل منهما مبلغ الرجال ؛ الأول لتراودة امرأة العزيز ، والثانى ليصح الاستعانة به على دفع الأذى والتمكن من قتل رجل بوكزة ، يصح مثله مع يحيى وأكثر ، إذ إن الآية لم تشر إلى مولده ووجوده أصلًا ، وتنص بعد على تكليفه ، فكان الأولى أن يرد ذكر لميلاده على الأقل . ولكن الأمر ليس كذلك ، وإنما الأسلوب القرآنى المنزه عن العبث وعن التناقص شاء أن يطوى السياق على نحو فنى بديع ، بتقديم وتأخير وحذف ، حيث إن مفهوم الوحى فى الآية السابقة يدل على أن يحيى قد وجد فعلًا جنينًا فى بطن أمه ، لأن احتباس صوت زكريا هو آية ذلك ، ففهم السامع من السياق أنه قد كان ، ثم حذف ما بعد ذلك ليكون معنى السياق : وآتيناه الحكم صبيا قائلين له يا يحيى خذ الكتاب بقوة[2] ، فقدم النداء وما قيل وراءه على الخبر فجعلها ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا** ﴾ إذ لو بقى على أصله من الحذف ما كان فيه من الحرفة العالية مثل ما فى هذا من تنبيه السامع إلى تلك النقلة التى أشرنا إليها . وهى نقلة زمانية كما اتضح من طبيعة ما حذف من الأسلوب . ويصح بعد هذا أن يقال إن الله تعالى قد أشار بذلك إلى مسارعته إلى إنجاز وعده لزكريا[3] وهذا يحمل معنى النقلة الزمانية بوجه من الوجوه ونظيره ما حذف فى قوله

---

(١) القصص ١٤ .

(٢) سيأتى إن شاء الله رأينا فى أن قائل ﴿ **يا يحى خذ الكتاب** ﴾ وقائل ﴿ **يا ذكريا إنا نبشرك** ﴾ قبلها ، هو المتكلم بالقرآن أصلًا فى قوله ﴿ **ذكر رحمة ربك عبده زكريا** ﴾ وهو الله تعالى ، وما لهذا من دلالة فى توجيه الخطاب القرآنى الذى اختلف فيه المفسرون . انظر الرازى ٢١ / ١٩٠ .

(٣) الألوسى ١٦ /٧٢ .

حذف فى قوله تعالى ﴿ **قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك – فلما رآه مستقرًا عنده** ﴾ إذ هو دلالة على انعدام الزمن ، وكذلك قوله ﴿ **اضرب بعصاك الحجر فانفجرت** ﴾ ، ﴿ **اضرب بعصاك الحجر فانبجست** ﴾[1] فالحذف هنا وهناك لبيان قرب هذا من ذاك وكلها فى ذات الوقت دلالات على سرعة الإجابة وتحقق المراد ، ومثله أيضا قوله تعالى ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون** ﴾[2] حيث حذف ما يقع بين الدعاء والإجابة للدلالة على سرعة الإجابة وكذلك فى قوله تعالى ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون** ﴾[3] حذف للتحقيق الدلالة على امتثال الملائكة وسرعة إجابتهم وأنهم ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم** ﴾) وكذلك قوله ﴿ **قالوا حرقوه وأنصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .قلنا يا نار كونى بردًا وسلامًا** ﴾[4] ونستطيع أن نقول مثل ذلك فى كثير مما مضى وما هوآت من المحذوفات فى القرآن الكريم ، ولكن الحذف على هذا النحو الذى نصفه هو حرفه قصيصة عالية تتوخى تحقيق ضروب مختلفة وأساليب متنوعة من الانتقال القصصى ، بين مشاهد العرض ومواقع أحداثه ، وأوقاتها ، يليق كل منها بموضعه ، وطبيعة موضوعه ، وكذلك تقسيم المشاهد وأماكن الحوادث فى القصة ، ومراحلها الزمنية ، وقد بات واضحا بعد هذا العرض أن المشهد الذى عرضناه من قصة يوسف فى هذا الفصل جرى من أوله إلى آخره فى مكان واحد ، أى منذ أن قال الملك : إنى أرى سبع بقرات سمان . . إلخ إلى أن جعل يوسف وزيرًا له ، وأن كل ما تخلله من أحداث

---

(١) النمل ٤٠ .

(٢) البقرة ٦٠ ، الأعراف ١٦٠ .

(٣) الدخان ٢٢ – ٢٣ .

(٤) الأنبياء ٦٨ – ٦٩ .

وقعت خارج بلاط الملك ، جاءت فى حكم المروية بين يديه ، وأعان على تحقيق هدف وحدة المكان فيه الحرفة العالية التى استعملت ضروب الحذف المختلفة وسيلة لها ، وكذلك الأمر فى مشاهد قصة سليمان مع ملكة سبأ ، على النحو الذى سيتبين فى آخريات هذه الدراسة .

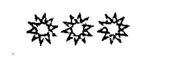

الفصل الثالث

فنون من الحذف
لتحقيق الحضور فى العرض

إن ورود الحذف لأجل الحرفة القصصية بطريق الانتقال الذى رأيناه فى الفصلين السابقين لا يمنع أن يرد الحذف بهذه الطريقة لتحقيق غاية أخرى ، بخلاف ما سبق ، أو بالإضافة إليها فيكون الحذف فى ظاهره للانتقال لأجل الحرفة القصصية . فإذا فتشت وراء ذلك وجدت علة أخرى تتعلق بالانتقال بوجه ما أو بظاهرها ، وهى فى الحقيقة ترمى إلى غاية بعيدة تتعلق بتحقيق الغرض الدينى للقصص القرآنى كما بيناه فى صدر هذه الدراسة ، أو لتحقيق التكامل للعمل الفنى فالانتقال قد يتعلق باختلاف الزمان أو المكان أو وحدته . ويمكن أن يضاف إلى ذلك دلالات أخرى للدين أو للفن ، وكذلك التحول والتغير فى المشهد والتحول فى حال المتكلم أو المخاطب وسائر أطراف المحاورة دون لجوء إلى وصف هذا التحول أو ذاك وهذا الباب فيه لطائف طريفة من الانتقال ، كالانتقال من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، ومن البلاء إلى الجزاء فى قوله تعالى عن حبيب النجار فى سورة يس ﴿ **إنى آمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومى يعلمون** ﴾[1] فصدر هذا الكلام فى مشهد وقع فيه الأذى برسل عيسى عليه السلام إلى انطاكية ومعهم حبيب النجار الذى قيل إن أهل انطاكية قد رجموه لما أعلن إيمانه[2] ، وعَجُز هذا الكلام يروى مشهدًا من عالم الغيب ، وليس بين المشهدين أى سرد يدل على هذة النقلة ، فالرجل يوجه كلامه إلى رسل عيسى معلنا إيمانه ، والسامع منا يترقب الجواب من هؤلاء الرسل ، فإذا الجواب يجىء من عالم الغيب ، ليبشر الرجل بدخول الجنة ولا ندرى من القائل ، ومازلنا فى شك من أن الكلام على وجه التحقيق فى وقوعه ، ولكن جواب الرجل يدلنا على

---

(١) سورة يس ٢٥ - ٢٦ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (البيضاوي) ٥٨٣ .

أنه لما قيل له « أدخل الجنة » قد دخل فعلًا ورأى ما فيها مما وعد به المؤمنون فكان رده« ياليت قومي يعلمون . . » وهنا ندرك أن الرجل ما دخل الجنة إلا بعد ما قتل ، وقُبر وغُفر له وأدخل الجنة بعد ذلك ، فأين خبر القتل ؟ ، هذا المحذوف أضرب عنه الخبر وطواه لبيان أن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأن هذا الرجل بمجرد إعلانه الإيمان كوفىء بالجنة ، وأن الأحداث المتسارعة بعد هذا الإعلان : ما وقع به من الأذى والقتل ، لم تكن شرًا أو شيئا مخيفا ينصرف الناس ضعاف النفوس عن إعلان إيمانهم خوفًا منه ، وإنما هو خير لأنه أدى إلى دخول الجنة ، ولهذا قال تعالى على لسانه : « يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين » ، وعلاوة على هذا يمكن أن نعلل هذا الحذف بعلة من قواعد الفن الكلاسى ، وهى أنهم لا يستحبون عرض الفظائع من مشاهد الحرب والمبارزات وسفك الدماء على خشبة المسرح ، وإنما يفضلون أن يشار إليها إشارات عابرة[1] .

ومن هذه اللطائف أن الحذف فى المحاورة بين موسى وربه جاء للدلالة على العلم وسرعة الإجابة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون** . . ﴾[2] فقوله تعالى ﴿ **فدعا** ﴾ لم يجىء بعده ما دعا به ، وإنما جاء بعضه فقط أو صدر الدعاء ولم يتمه ، لأنه ليس يعقل أن تكون الدعوة مقصورة على قوله : ﴿ **هؤلاء قوم مجرمون** ﴾ . . ثم ماذا ؟ إذ لابد أن يأتى بعدها طلب ينبنى على هذه الشكوى . . ولكن المطلوب فى دعوة نبى الله موسى حُذف من سياق القصة ، للدَلالة على علم الله تعالى بما سيدعو به موسى ويطلبه ، وللدَلالة أيضا على سرعة الإجابة ، فكأن الله تعالى قطع عليه كلامه كما نفعل نحن

---

(١) النقد الأدبى الحديث ص٧٢ ، ٧٥ .

(٢) سورة الدخان ٢٢ - ٢٣ .

فى محاوراتنا ليبشره بأنه أَذِنَ بنجاته وهلاك فرعون وملائه . ولسنا نريد هنا أن نستطرد فى المفارقات الحوارية التى تنتج من الحذف وما تدل عليه من دلالات على حيوية الحوار ودلالالته الكثيرة على ما وراء الألفاظ من حضوز المشهد ، فهذا له موضعه من دراستنا وإنما نضم هذه إليه لكى لا نضطر للتكرار والإعادة .

٭٭٭

ومن ألطف لطائف الحذف فى المحاورة ما يقصد به الدلالة على الحديث الجانبى فى المشهد بين بعض حضوره دون بعض ، أو الإسرار بحديث والجهر بآخر ، أو دخول شخص لم يكن حاضرًا فى بداية المحاورة ، وهذه من الأمور الحرفية الدقيقة فى الكتابة القصصية والمسرحية ، وحيث تدور أحداث المشهد فيما يفترض أنه بين اربعة جدران أى أنه ليس هناك نظارة وهذا الجدار الرابع الوهمى واقع بين الممثلين والنظارة[1] ، إلا فى شىء واحد وهو أن يقال حديث هامس للنفس أى فى داخل الشخص ، أو جانبى بين شخصين أو أكثر ولا يسمعه شخص آخر أو أكثر فإذا كان المقصود فى الحديث أن يعلمه النظارة فإنه يقال بطريقة معينة ندرك منها أنه سر لا يعرفه شخص معين مع أننا نحن الجالسين بعيدًا عن خشبة المسرح قد سمعناه ، فهنا ينقل الجدار الرابع يرفع مؤقتا ليوضع بين الممثلين وزميلهم لنسمع نحن أما هو فلا !

أما فى حال دخول شخص إلى ساحة العرض أو خروجه منها فلا يفترض أن ينبه إلى ذلك إلا من خلال المحاورة نفسها ، وكذلك حال حدوث أى تغير فى المشهد وهو ما رأينا بعضه فى المواقف المعروضة آنفا فى قصص موسى ويوسف وسليمان عليهم السلام .

وفى قصص القرآن الكريم مواقف وقع فيها الحذف ليدل على مثل ما ذكرنا

---

(١) معجم مصطلحات الدرامة . إبراهيم حمادة ص١٢٥ .

فى ثنايا الحوار ، الذى دل من خلال هذا الحذف على التغير الذى وقع فى المشهد ونوع هذا التغير ، حتى ما كان منه داخليا ، أى داخل نفس المتكلم دون اللجوء إلى قطع الحوار بسرد يصف الحالة الحادثة ، وهذه عجيبة من لطائف الحذف لم يتنبه لها إلا قليل .

فإخوة يوسف جلسوا يتناجون فى أمر يوسف وأخيه اللذين أوغرا صدورهم حقدا عليهما ، لما استأثرا به من حب أبيهما ، وائتمروا بينهم فى أمر التخلص من يوسف وبدأوا مباشرة فى تنفيذ المؤامرة دون إبطاء بأن طلبوا من أبيهم أن يدعه يخرج معهم فى الغد ليتم ما أزمعوا أن يفعلوه به ، فجاءت المحاورة هكذا فى السياق القرآنى : ﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون** ﴾(١)

فهذا إما أن يكون مشهدًا واحدًا وإما أن يكون مشهدين ، لأنه لابد من وضع فاصل من نوع ما بين محاورتهم ومؤامرتهم أولًا فى غيبة أبيهم ، ومحاورتهم مع أبيهم تنفيذا لمؤامرتهم بعد ذلك .

إذ لا يعقل بحال أن تتم المؤامرة فى حضرة الأب ، فأين كان الأب ساعتئذ ؟ إنه إما أن يكون غائبا ثم حضر فيكون المشهد واحدًا طرأ فى أثنائه دخول يعقوب على أبنائه ، وبعد ذلك بادروه بقولهم : « يا ابانا ما لك لا تأمنا . . إلخ » .

---

(١) يوسف ١٨ - ١٢ .

وإما أنهم ائتمروا فى مكان بعيد ثم دخلوا على أبيهم ليقولوا له ذلك ، فالموقف إذًا وقع فى مكانين وانقسم إلى مشهدين ،فكيف يدل السياق القرآنى على هذا التغير دون أن يضطر إلى قطع الحوار بسرد التغير الذى طرأ فى أى من الحالتين ، إنه ما زاد على أن أدخل لفظة (قالوا) فى ثنايا كلامهم ليدل بها على هذا التغير ، ولعلنا ندرك بسهولة أن اللفظة لا تعنى أن عشرة من البنين قد كونوا فرقة إنشاد ليقولوا معا هذه المقالة ، وإنما أنابوا واحدًا منهم ليقول هذا عنهم ، فإذا كان القائل واحدًا فلماذا عبر بصيغة الجمع عن الواحد ؟ من اليسير أن نقول أن الواحد عبر عن الجماعة وتكلم بلسانهم فجاز ذلك وهو الصحيح ، ولكن يضاف إلى ذلك أنه قد استغنى بكلمة قالوا عن سرد كثير من التفاصيل التى تتعلق بشخص الذى تكلم ، وسبب اختياره وغير ذلك . . وفوق كل ذلك ، وقبل كل ذلك أن كلمة قالوا هنا جاءت فاصلًا بين مشهدين أو دالة على دخول الأب ، حيث إنَّ ما قبلها من التآمر بينهم كان فى غيبته ، وأول كلمة جاءت بعدها هى النداء الموجه إلى الأب ، وهى بالطبع لم تدل على هذا التغير بنفسها وإنما دلت عليه من خلال موضعها فى السياق ، وبدلالة هذا السياق على ما حذف من تفصيلات وصف المشهد .

ويتبين لنا من هذا الموقف وظيفة جديدة للحذف تختلف عما ذكرنا آنفا ، وتضاف إليه ، لتفتح أمامنا بابًا جديدًا من أبواب الحرفة القصصية كنا عنه غافلين ، ولننظر فى أساليب القرآن كرة أخرى لنجد له نظائر ، تحمل من الدلالة على التغير الطارىء على المشهد مثل ماله ، تؤكد عليها كما فى قوله ﴿ **فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى . فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى . قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما**

أن نكون أول من ألقى ﴾[1] .

فالمشهد هنا واحد يوم اجتمع السحرة ووقفوا أمام موسى ، الذى قال لهم محذرًا ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى** ﴾ ففعلت كلماته فعلها فيهم ، ووقع الخلاف بينهم ﴿ **وأسروا النجوى** ﴾ لكى لا يظهر الخلاف أمام موسى ، ونجح أئمتهم فى رأب الصدع وجمع الكلمة بتخويفهم من أن يشتهر موسى بسحره وينتشر خبره وينصرف الناس عنهم إن هم امتنعوا عن أن يباروه ، أو انهزموا أمامه ، فأجمعوا على إتمام المواجهة ، وانتهت النجوى ، والتفتوا إليه قائلين : ﴿ **يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى . قال بل ألقوا** ﴾ ، وهكذا نرى أن وصف المشهد فى أوله قد استعان بالسرد ليصف المنازعة التى وقعت بين السحرة وبيَّن أن حوارًا جانبيًا قد دار بينهم ، ولم يسمعه موسى ، ولكننا نحن المتلقين قد سمعناه ونقل إلينا ، وعندما انتهت المُسارَّةُ والحوار الجانبى استغنى السياق عن وصف ذلك واكتفى بكلمة « قالوا » التى جاء بعدها النداء « يا موسى » ، لنعلم أنهم قد التفتوا إليه منفذين لما اتفقوا عليه سرًا : ﴿ **فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى** ﴾ وبهذا جعل السياق كلامهم يصف الحركة الواقعة أثناء المشهد دون ما حاجة إلى وصف ذلك بسرد يقطع الحوار اللهم إلا كلمة « قالوا » وهى ضرورية فى أسلوب القصة ، ولا شك أنها تعد أقل قدر من السرد فى النص ، إنْ جاز وصفها بذلك ، فإنها بالكاد تعدل أسماء الأشخاص التى توضع بإزاء أقوالهم التى تحرك الحدث فى النص المسرحى .

ويحدث مثل ذلك تمامًا من جهة الحرفة القصصية ، فى قصة إبراهيم عليه

---

(١) سورة طه ٦٢ - ٦٥ .

السلام فى مواقف عدة يدل كل منها على مثل دلالة المواقف السابقة وينفرد كل منها بخصوصية ليست للباقى ، وذلك فى قصة خليل الله مع أصنام قومه ، وقد توزعت هذه المواقف فى المشهد الذى يصف محاجة إبراهيم لقومه فى شأن هذه « الآلهة » وبعد أن قام بتحطيم هذه الأصنام ، وقد سيقت القصة بالأسلوب الآتى : قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا اجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾[1] وأول ما يلاحظ على هذه القصة أن المكان الذى وقعت فيه من أولها إلى آخرها واحد ، باستثناء احتمال أن تكون الآية الأخيرة خارجة عن المكان ، وحتى على هذا الاحتمال ففيها لطيفة من لطائف الحذف أيضا تضاف إلى أخواتها فى القصة .

ونظراً لكثرة مواضع الحذف فى هذه القصة يجدر بنا أن نبرزها متوالية

---

(١) سورة الأنبياء : ٥١ – ٦٩ .

كلًا على حدة قبل أن نمضى فى تحليلها واستنباطِ ما فيها من قواعد الحرفة والأسلوب القصصى الأمثل : -

١ - قوله : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ .

حذف قبله ما يشير إلى أنه قد أسرّ هذا القول .

٢ - قوله : ﴿ **فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم** ﴾ .

حذف قبله ما يشير إلى انتظاره حتى خروجهم قبل أن يكسر الأصنام .

٣ - قوله : ﴿ **قالوا من فعل هذا بآلهتنا** ﴾ .

حذف قبله ما يشير إلى خروجه ورجوعهم بعد مدة إلى مكان الحدث .

٤ - قوله : ﴿ **قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم** ﴾ .

حذف قبله ما يشير إلى انتظار مجيئه ودخوله المكان .

٥ - قوله : ﴿ **ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾ .

حذف قبل قولهم « لقد علمت » ما يشير إلى المتكلم والمخاطب .

٦ - قوله : ﴿ **قلنا يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم** ﴾

حذف قبله ما يشير إلى الانتقال . زمانا ومكانا - إلى المكان الذى أعدت فيه النار المذكورة .

٭٭٭

لقد حققت هذه المواضع من الحذف فى القصة على هذا النحو الفريد ما يسمى عند القصاصين بجاذبية التشويق[1] ، لما فى تلاحق الأحداث فيها

---

(١) السرد القصصى فى القرآن الكريم - ثروت أباظة ص٤٢ .

وسرعتها من الحاح على تحريك ذهن السامع لمتابعتها ومحاولة استنباط ما وراء السياق من الأحداث المضمرة والمطوية ،والإبقاء على المثير منها ، والانتقال من مثير إلى مثير يشد من يتابعها ويلهب مشاعره ، وهذا يتحقق من هذه المواقف مجتمعة ، بالإضافة إلى ما يختص به كل منها من سمات يتفرد بها فى مضاعفة التشويق والإثارة والدلالة على ما يطرأ على هذا المشهد الواحد من التغيرات الحادثة من تحرك الحدث وتصاعده ، والمسببة لهذه الحركة وهذا التصاعد .

فالموقف الأول لم يتخذه إبراهيم عليه السلام إلا بعد أن خاض فى الجدال مع أبيه وقومه محاولا إقناعهم بالحقيقة الواحدة التى آمن بها ، وبأن ما هم عليه باطل ، فلما رأى من طبيعة جدالهم استعصاء إدراك عقولهم لهذه الحقيقة قرر أن يضع أمام أعينهم دليلًا ماديًا ملموسًا على أن هذه الأصنام ليست آلهة ، بل إنها لا تستطيع أن تدفع عن أنفسها أى أذى يراد بها ، فقال : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ ، وتدلنا مجريات القصة بعد ذلك على أنهم لم يكونوا يعلمون بما أزمع إبراهيم بشأن هذه الأصنام ، ولكنهم فقط تذكروا مناقشته معهم وجدالهم إياه بشأنها ، وذلك فى قولهم « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم » . كما أنه لا يصح عقلا أن يسمعوا هذه المقالة منه ، وهى تحمل تهديدًا صريحًا بكيد آلهتهم ، ثم يدعوا هذه الآلهة حراسة أو حماية من هذا الكيد والتهديد ، أو يتركوه يصل إليها بهذه السهولة التى حدثت ، والذى نراه أن إبراهيم قد قال هذا سرًا فى نفسه ، بعد أن انتهى من جدالهم ليضعهم أمام أمر واقع ، فالسياق هنا ترك العبارة تجىء على لسان إبراهيم مكملة لسابقتها . تاركًا للسامع إدراك أن هذا من قبيل الحديث الجانبى ، دون أن يقطع ذلك بسرد ما يشير إلى هذه النقلة كأن يقول : ثم أسر إبراهيم فى نفسه أو قال لنفسه أو حدثته نفسه[1] ، إمعانا

(١) السرد القصصى فى القرآن ص٤٣ - ٤٤ .

فيما يسمى فى دنيا المسرح : اختفاء صوت المؤلف ، من أجل أن يدع للحوار المترتب منطقيًا ، أن يدل على الحركة وتطور الحدث ، ما أمكن ، وهذا أمر تختص به المسرحية ، ويحسن فى القصة . والمشهد هنا واحد من أول القصة إلى آخرها ، فهو أقرب إلى روح العرض ومجرياته ، منه إلى القص . وأكثر ما حذف منه كان سردًا حتى ينهض الحوار بالقصة من أولها إلى آخرها ، اللهم إلا أقل القليل كما سنرى من متابعة الحذف المتلاحق فى المواقف التالية .

ولا نكاد ننتهى من سماع ما أسر إبراهيم فى نفسه من العزم على الكيد لهذه الآلهة حتى يتدخل السرد بعبارة مقتضبة ، لا تشير إلى ما سارت عليه الأمور بعد ذلك فى المكان ، من بقية المحاورة وما انتهت إليه أوأنها توقفت عند هذا الحد ، ومن الذى خرج من المكان ومن بقى ، وكيف انفرد إبراهيم بالأصنام ، ولكنها اقتصرت على ما حدث للآلهة بعد ذلك بيد إبراهيم إذ ﴿ **جعلهم جذاذا إلا كبيرًا لهم** ﴾ ، وكأن ما أوردته العبارة السابقة على لسان إبراهيم من أنه سيفعل بهم ما عزم عليه« بعد أن تولوا مدبرين » ، فأفهمنا السياق أنه ما جعلهم جذاذا إلا بعد أن ولوا مدبرين ، ولو كان الغرض الإيجاز فقط ما قال : ﴿ **إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون** ﴾ ؛ وإنما الغرض الحقيقى من الحذف ترك الأحداث تتحرك وتتصاعد من خلال الحوار فقط ، وهو ما أتى بكلمة ﴿ **لعلهم إليه يرجعون** ﴾ إلا ليرينا مبلغ ما أوقعه إبراهيم بهم من الاستهزاء والسخرية ، وبأصنامهم من الكيد الظاهر ، ليلقنهم درسًا يوافق عقولهم ومنطقهم الساذج المكابر ، لعلهم يفقهون ويهتدون .

ومن أجل ترك الحدث للحوار يحركه ينتقل مباشرة من هذه العبارة القصيرة ﴿ **فجعلهم جذاذا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون** ﴾ إلى قولهم ﴿ **قالوا من فعل هذا بآلهتنا** ﴾ فأين تراهم كانوا عند ما أوقع إبراهيم بآلهتهم التى انفرد بها وهو الفتى الصغير وفعل بهم ما فعل ، فلم يدفعوا عن أنفسهم

أذى هذا الفتى ، لقد كانوا خارج المكان الذى تقع به الأحداث ، وبمبعدة منه بحيث يقع ما وقع من التحطيم دون أن يشعروا به فأين كانوا ؟ ومتى جاءوا ؟ وكيف اطلعوا على ما حدث ؟ لقد تخطى السياق ذلك لينطق الأشخاص بما وقع مباشرة . لينطلق بعد ذلك مع المحاورة التالية بين الملأ من قوم إبراهيم ليقول بعضهم :

﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ .

ويلى ذلك مباشرة خطابهم لإبراهيم :

﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ .

أى أن إبراهيم لم يكن حاضرًا حال دخولهم المكان ، وأرسلوا من يأتيهم به ، وانتظروا حتى جاءوا به ثم بادروه بقولهم هذا ، وقد تخطى السياق ذلك ، قافزًا فوقه ، ولم يلجأ إلى سرده اطمئنانًا إلى أن فى الحوار دلالة مباشرة عليه ، سواء فى قولهم قبله « فأتوا به » ، وفى قولهم مخاطبين إياه بعد قدومه : أأنت فعلت .

وغنى عن التكرار أن الحذف لم يكن للإيجاز بقدر ما كان للحضور ، أى لاستقلال الحوار بالحدث وتصعيده ، والدلالة على وحدة المكان وأن التغير الذى طرأ على المشهد هو دخول إبراهيم .

ولا شك ان هذا الحذف قد منح المحاورة قوة بما أوصل الحوار المباشر فى مكان واحد ومشهد واحد به الأحداث إلى ذروتها دون فتور ليواجه القوم منطقهم المعوج بالتجربة المعاينة المادية الملموسة ، وبهذا نجح إبراهيم فى إبلاغ حجته إلى قومه ، بما منحه الله من العلم وأيده من الحجة !

وقد فعلت حجته هذه فعلها فيهم وجعلتهم يرجعون إلى أنفسهم قائلين : « أنكم أنتم الظالمون » يردون على أنفسهم فيما قالوا آنفًا ، عندما رآوا آلهتهم

المحطمة : « من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين » ، وأتهامهم أنفسهم بالظلم ، أو اتهام بعضهم بعضابه ، أظهرهم وكأنهم ثابوا إلى رشدهم ، والذى يفهم من تصوير القرآن لهم بأنهم كأنما كانوا منقلبين ثم اعتدلوا ، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى الانقلاب مرة اخرى ، وفى هذا الموضع من المحاورة تتدخل رواية القصة بالوصف لحالهم عن طريق سرد قصير جدًا يقطع سياق الحوار مرتين للضرورة القصوى ، أولاهما قوله ﴿ **فرجعوا إلى أنفسهم** ﴾ ليدل على أن حديثهم هذا قد دار بينهم دون إبراهيم ، يتلاومون ، والثانية : قوله : ﴿ **ثم نكسوا على رءوسهم** ﴾ ، فإذا ما قسنا كلا من الجملتين على الأخرى فى سياقهما ، وجدنا أولاهما قد أتبعت بقوله ﴿ **فقالوا إنكم أنتم الظالمون** ﴾ أما الثانية فقد خلت من لفظ القول ، هكذا ﴿**لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾ لنجد أنفسنا بهذه المقايسة بين العبارتين بإزاء حذف آخر مما عمرت به القصة من الحذف ، هو حذف ضئيل جدًا ، ولكنه دال دلالة مباشرة على ما نحن بصدده من أن إدارة الحوار فى المشهد هى التى تتولى تحريك أحداث القصة والإشارة إلى ما يطرأ على هذا المشهد من تغيرات فى أثنائه استغناء عن السرد ما أمكن ذلك ، وهاهنا نجد البراعة الأسلوبية تلجأ إلى السرد فى الموقف الأول احترازًا من أن يكون قولهم هذا موجها إلى إبراهيم الذى يمكن أن يفهم ساعتها أنه قد انضم إليه جماعة منهم أو إلى الأصنام أو غيرهم ، فجاء فى السياق « فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا » زيادة فى التأكيد على هذا المعنى لكى يتحدد المقصود بالضمير فى كلامهم ، سيما أن كلامهم السابق عليه كان موجها إلى إبراهيم أى أنهم أداروا محاورة فيما بينهم هذا مؤداها .

أما فى الثانية فالضمير واضح أنه موجه إلى مخاطب واحد ، ولا واحد منفردًا بينهم إلا هذا الفتى الذى دوخهم : إبراهيم ، فقالوا له « لقد علمت » ولم يحتج السياق ، إلى أن يقول : فقالوا له لقد علمت وهنا يعلم من

يستحضر المشهد أن البراعة فى سياقة المحاورة وتصويرها قد بينت من خلال الحوار وحده تلك الالتفاتة ممن يحاور إبراهيم منهم إلى إبراهيم موجها خطابه هذا بعد أن كان يشاركهم حوارهم الجانبى السابق .

ويستمر إبراهيم بعد ذلك فى تقريع هذا الملأ المكابر حتى يصل بهم عنادهم إلى تقرير حرقه انتقاما منه وتخلصا من جرأته على آلهتهم ، ليأتى الموقف الأخير من مواقف الحذف فى القصة ، وهو الموقف الوحيد الذى يدل على الانتقال المكانى أى تغير المشهد بالإضافة إلى عنصر الزمان ، حيث يضمر القرآن كل ذلك فى السياق قافزًا إلى النتيجة المباشرة وواصلاً إلى نهاية القصة التى تتدخل فيها العناية الإلهية لإنقاذ إبراهيم مما دُبِّر له من فظائع كيد القوم له .

﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا ياناركونى بردًا وسلاما على إبراهيم ﴾ .

لقد كان رب العزة حاضرًا ، وهو لايغيب ، يسمع ويرى ، حتى إذا ما صرحوا بعزمهم على إحراق إبراهيم قال الله تعالى للنار **﴿ كونى بردًا وسلاما على ابراهيم ﴾** هذا إذا كان قول رب العزة دالًا على مشيئة قبل أن يقدموا على التنفيذ .

ويحتمل أن يكون هذا القول مرادفا للحدث نفسه ، الذى يقع بعد إعداد طويل ، أفاضت الكتب فى وصفه ، ثم أشعلوا النار وقذفوا فيها ابراهيم مكتوفا بالحبال ، وعندئذ جاء أمر رب العزة للنار : **﴿ كونى بردًا وسلاما على ابراهيم ﴾** . وهذا أولى من التأويل الآخر ، حيث إن الخطاب موجه للنار بعد حضورها وصيرورتها نارًا أما على الأول فهو خطاب موجه لها قبل أن تكون .

وفى هذا المقام نرى أن الحذف قد أصاب كل الوقائع التى حدثت بين المشهدين ، وهنا نجد أنه لم يكتف بالانتقال من المشهد الأول إلى مقدمة

المشهد الثانى وإنما انتقل إلى نهايته مباشرة ليأتينا بما يطمئن على هذا الفتى الجرىء ، حيث إن طاقة الانسان محدودة وصبره قليل ، فكيف نصبر على مشاهدة كل هذه الفظائع ولا تتقطع أكبادنا إشفاقا على الفتى من مصير من يُلْقَى فى هذه النار !

***

إن الإبداع ليس شيئا يسيرًا ، فكيف بالإعجاز !

هذا أمر يدركه من عانى مرارة اقتناص عناصر الإبداع الأدبى من الخيال البشرى ، ويعرفه مثله أو أكثر من عانى صعوبة اقتناص عناصر الإعجاز فى النص القرآنى ، ويحاول أن يوازن بين المواقف المتشابهة ويرصد وجوه الاتفاق والاختلاف ، وتبين أسرار هذا التوافق المطرد وأسباب الاختلاف ، وقد حاولنا فيما مضى التعليل لظواهر الإطناب مع الحذف ، وبعض المظاهر الأخرى التى عرضت لنا ، ولكنا هنا فى هذه القصة نجد أنفسنا نواجه بسيل من الحذف فى قصة واحدة اتحد فيها المكان الذى وقعت فيه أحداثها من مبدأها إلى منتهاها أو قرب ذلك ، وقد سارت الأحداث فيها متصاعدة فى هدوء حذر فى البداية ، والموقف متعادل تقريبا بين عنصرين أو قوتين : إبراهيم فتى ضعيف وحيد ، ولكنه يتسلح بقوة العقل والمنطق والحق ، والملأمن قومه . على العكس منه تماما : قوة وعدد ولكن مع سفاهة وضعف عقل وانعدام وزن ، فنتج عن المواجهة الأولى ما يشبه الجمود ، الذى عزم الفتى العاقل على كسره لتسير الأحداث بعد ذلك متصاعدة فى أى اتجاه تؤدى إليه ومهما كانت النتائج . فحطم الأصنام ، وتصاعدت الأحداث ليحدث ما يشبه الانقلاب فى اتجاه الحق ، ثم تعود من جديد إلى سيرها الأول فى تصاعد البطش والطيش ، لتؤدى إلى نهاية ظنوا أنها فاصلة حاسمة ، وهنا تجىء القوة الغيبية التى كان إبراهيم ينتصر لها منذ قليل ، لتنصره وتخرجه من محنته ، وتنتهى القصة بعكس ما كان يُظَنُّ لها عندما تعقدت أحداثها .

وجاء السياق فى القصة متمشيا مع الأحداث لحظة بلحظة مصعداً إياها من خلال تحريك الحوار لها ، وإدارة هذا الحوار بما يجعله ينطق بالحركة الواقعة فى المشهد أو يؤدى إليها أو يدل عليها كما فى قوله ﴿ **بعد أن تولوا مدبرين ، من فعل هذا ، فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، فعله كبيرهم هذا** ﴾ ولهذا استغنى السياق عن كثير من سرد الوقائع واقتصر فيها على المحاورة الحية ، وهذا من المقامات التى تفردت بهذا بتركيز شديد فى القرآن الكريم ، وهذا التفرد يظهر واضحا عند الموازنة بين قوله ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ وقوله عن يوسف فى حادثة صواع الملك ﴿ **فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شرٌ مكانا والله أعلم بما تصفون** ﴾ وبقوله عن السحرة ﴿ **فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما** ﴾ ، لأنها تدل على أن السياق يراعى بدقة متناهية المواقف فيما يحذف من السرد وما يذكر ، فإبراهيم قال لقومه عبارته تلك مسرًا فى نفسه ، نفهم هذا من مجريات الحوادث ولا يذكره السياق ، أما فى الموقفين الآخرين ، فنرى السياق يذكر الإسرار والنجوى ، فلابد أن ثمة فارقا بين طبيعة الموقف الأول ، وكل موقف من التاليين ، وإذا فتشنا فى طبيعة المواقف الأدبية للنماذج البشرية فى القصص الثلاث على نحو من التجريد تبين لنا الآتى :

١ – يوسف فى مقام قادر قوى مسيطر لايهاب ولا يخشى .
– أما إخوته ففى مقام ضعف وفقر وذله وتهمة .

٢ – السحرة جماعة قوية مجربة ذات سطوة ، وتستند على سلطان قوى قاهر .
– موسى وهارون منفردان ضعيفان غريبان مستضعفان .

٣ – إبراهيم : فتى وحيد ضعيف لا نصير له ولا مجيب .
– الملأ من قومه : جماعة قوية قاهرة مسيطرة .

وقد أشار السياق إلى أن يوسف « أسرها فى نفسه ولم يبدها لهم » ، كما أشار إلى أن السحرة « أسروا النجوى » وهما فى موقف القوى القاهر الذى لا يخشى من أن يجهر بكلمة ، ولهذا لو أتى قول كل منهما غفلا من الإشارة ، لما شككنا لحظة فى أنه جهر بها ، فإذا تسرب الاعتقاد إلى نفوس السامعين بأن كلمة يوسف كانت جهرًا بحيث يسمعها إخوته ، كان هذا مدعاة لتسرب الشك إلى نفوسهم فيه وهو أمر يفسد خطة يوسف المحكمة التى تبنى عليها حبكة القصة ، وبهذا يتغير مجرى الحوادث ، وتلك هى العلة فى تكرار المعنى بما يؤكده من قوله﴿ **ولم يبدها لهم** ﴾ بعد أن قال ﴿ **فأسرها يوسف فى نفسه** ﴾ وكان يمكن الاستغناء عن إحداهما إيجازا – ارضاء للبلاغيين – ولكنه عمد إلى الثانية بعد الأولى ليوضح للسامع أن خطة يوسف وتدبيره المحكم لا يمكن أن يتعرض للفشل إثر انفعاله واستثارته بما رمى به من قولهم ﴿ **إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** ﴾ دون أن يدروا أن هذا الأخ المشار إليه[1] هو العزيز الواقف أمامهم ، فأى انفعال يظهر عليه يعرض أمره للانكشاف وخطته للفشل . أما السحرة فهم أيضا فى موقف قوة ، ولكن طرأ عليهم مثل ما طرأ على يوسف مما يدعوهم إلى الإسرار ، وهو ذلك النزاع الذى دب بينهم إثر تحذير موسى لهم ، فلم يشاءوا أن يظهر الخلاف والتنازع بينهم على الملأ من قوم فرعون الذين اجتمعوا ليشهدوا هذه المواجهة العجيبة بين عدة الآف من السحرة ، وبين رجلين اثنين ، فلو ترك السياق مادار بينهم دون هذا الاحتراز بقوله ﴿ **وأسروا النجوى** ﴾ لفهم أن ذلك كان على الملأ لأنهم فى موقف القوى الذى لا يخشى أن يجهر بما يشاء ، وهذا الفهم يفسد أمرهم كسابقه .

---

(١) فى كتب التفسير والتاريخ قصة ملخصها أن عمة يوسف كانت تحضنه فأراد يعقوب أن يسترده منها ، فأدعت أن يوسف سرقها لتأخذه بما سرق – حبًا فيه ، فظل متهما بذلك بعـد .

أما إبراهيم عليه السلام ، ذلك الفتى المسكين الذى لا يملك إلا حجة الله التى آتاه إياها فلا طاقة له بهم ، ولا يملك أن يتحداهم جهارة أن يكسر آلهتهم ، والسامع يدرك ذلك جيداً ، فإذا تدخل راوى القصة فى السياق ليقطع الحوار بعبارة (وأسر إبراهيم فى نفسه) التى لا ضرورة لها ، فإنه يطعن السامع فى فهمه ويتهمه بالغباء ، كما أنه يقطع السياق فى قصة ترك زمام الأمور فيها للحوار يأخذ به ويمضى فيه بنجاح إلى نهايته[1] . ولهذا كله تركت عبارة إبراهيم ليفهم السامع منها ذلك المعنى مستعينا بفهمه للسياق وحده ، ونظير ذلك عندى مقالة إبليس بين يدى رب العزة ، عندما أمره أن يسجد لآدم ﴿ **قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرءيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلًا** ﴾[2] .

فقد أغفل المفسرون أمرين مهمين فى هذه الآيات :

أولهما : أنهم لم يعللوا لتكرار لفظة (قال) فى الآيتين المتتاليتين مع أن الفاعل لهما واحد وكذا المقول له فى الحالين ، ولم يفصل بينهما فاصل يستدعى تكرار القول ليتبين القائل كما فى المحاورات الكثيرة التى بين يدينا .

---

(١) وقد يزين لنا الجرى وراء قواعد فن المسرح أن نقول إن المشهد فى قصة يوسف كان فى مكان ناء وأكثر أحداث القصة يدور ما بين أرض كنعان ، وقصر العزيز بمصر . فلا يصلح للعرض ، ولا تنطبق عليه قواعده وكذلك المشهد فى قصة السحرة يضم عددًا لا يمكن أن يستوعبه عرض مسرحى مهما اتسع ، فلا تنطبق عليه قواعده ، وكلاهما ينتقل إلى فن القصة ويدخل فيه ، ولا حرج فى السرد فيه بدون حوار أو فى ثنايا الحوار ، أما موقف قصة إبراهيم فقد دللنا على أنه يتحرك بالحوار وحده ، فهو كالعرض تماما ، وتنطبق عليه قواعده ولهذا ترك السرد واعتمد على الحوار وحده ، وقد يقبل مثل هذا الكلام عند المسرحيين وأضرابهم ، ولكننا نحترز فيه ولا نلجأ إليه إلا بقدر ، مع يقيننا بأن القرآن الكريم سابق فى كل فن وجنس من فنون البلاغة وأجناس الأدب ، قديمها وحديثها وهذا من وجوه إعجازه التى لم يكشف عن أكثرها بعد .

(٢) سورة الإسراء : ٦١ - ٦٢ .

الأمر الثانى : أنهم لم يربطوا بين هذه الآيات فى قصة الخلق وبين موضوع السورة وماقبلها وما بعدها من آيات فيها ، وهكذا بقيت معلقة كأنها فى الهواء لا يحملها شيءولا تستند إلى شئ !

ونحن ندعى أن إدراك الأولى يفضى إلى الثانية لأننا سندرك مغزى القصة الذى استدعاها إلى هذا الموضع من القرآن الكريم ومن هذه السورة ، كما لنظائره فى سور : البقرة والأعراف والحجر وص[1] .

والذى نعتقده أن طبيعة مقالة إبليس تشير إلى أنه لم يكن ليجرؤ على أن يجهر بها بين يدى رب العزة ، لقد قالها سرًا ، أى أنه قال أولًا ردًا على استفسار رب العزة منه عن سر امتناعه عن السجود : ﴿ **أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾ ، ثم انتقل من الجهر إلى السر ليقول : ﴿ **أرءيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ تماما كما فعل إبراهيم مع قومه ، ولكن مع فارقٍ سيكشف لنا عجبا من أمر النظم القرآنى ، فقوم ابراهيم لم يكونوا يملكون القدرة على علم الغيب وما يُسِرُّ القائل وما يُعلن ، أما رب العزة فهو مطلع على ما فى نفس إبليس وعلم ما قال فى نفسه ورد على مقالته كما لو كان قالها جهرًا ، ليعلم إبليس قدرة ربه ، ولنعلم نحن أنه ساق القصة لعلة ، من بين علل كثيرة لوجودها فى هذا الموضع ، هى إعلامنا أنه يعلم السر وأخفى من السر ، ويعلم ما نسر وما نعلن ، فكيف نعلم أن هذا مغزى القصة إذا سيقت مقالة إبليس على طريقة مقالة إبراهيم أى دون فصل الحديث الجهرى عن حديث النفس لهذا أورد السياق كلمة قال بين مقالتى إبليس وليس ثمة ما يدعو إليها إلا أن تكون فاصلًا بين ما قيل جهارة من إبليس وما حدثته به نفسه ولم يجرؤ على الجهر به .

---

(١) البقرة ٣٤ – ٣٦ ، الأعراف : ١١ – ٢٠ ، الحجر ٢٨ – ٤٢ ، ص : ٧١ – ٨٥ .

وسورة الإسراء تركز على صفة العلم بالغيب عند الله تعالى حيث نرى فى أولها قوله تعالى : ﴿ **إنه هو السميع البصير** ﴾ ثم قوله﴿ **ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا** ﴾ وقوله﴿ **وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا** ﴾ وقوله ﴿ **ربكم أعلم بما فى نفوسكم** ﴾ وقوله ﴿ **إنه كان بعباده خبيرًا بصيرا** ﴾وقوله ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ وقوله ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ وقوله : ﴿ **نحن أعلم بما يستمعون به** ﴾ وقوله ﴿ **ربكم أعلم بكم** ﴾ وقوله ﴿ **وربك أعلم بمن فى السموات والأرض** ﴾ ، وعندما يقترب السياق من هذه القصة يفضى إلى الحديث عن آيات الله التى ينزلها مع الانبياء دليلا على نبوتهم وتثبيتا ، وكأن الحديث يعرض بأمنية تمناها الرسول لما طلب منه قومه آية ، وقالوا لو شاء الله لبعث مَلكا رسولا ، وقالوا له : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة . . . إلخ والقرآن يرد على كل ذلك فى هذه السورة المباركة ، وجاء السياق حول هذه الآيات ليبرر بعض ذلك ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون** ﴾ ثم دلل على ذلك بناقة ثمود ، ثم استطرد للتدليل على قدرته على إرسال آية بأنه قد أرى النبى صلى الله عليه وسلم مصارع القوم قبل غزوة بدر فتحققت كفلق الصبح ، فكأن السياق هنا يقول ما يلى :

إننا لم نرسل اليك آية من نوع الآيات التى نرسلها إلى الأنبياء لأنهم كُذِبوا بها كما فعل العرب البائدون من ثمود بناقة صالح ، وإنا لقادرون على أن ننزل الآيات وقد فعلنا معك قبلا ، ألا تذكر يوم أريناك مصارع قريش ، وكذلك ما خوفنا هم به من أمر النار التى أريناك إياها لتنقل إليهم خبرها ، كل ذلك ما زادهم إلا افتتانا وطغيانا ، وإنا لنعلم من أمور عبادنا أكثر مما يظن هؤلاء ، ولقد علمنا ما فى نفس إبليس عندما امتنع من السجود لآدم وأسر فى نفسه

العزم على أن يفتنه وذريته فقلنا له :﴿ **اذهب فمن تبعك منهم ...** ﴾ وتتوالى الآيات الدالة على قدرة الله بعد ذلك حتى ينتهى إلى اخباره بأن القرآن آيته وما عليه للاستدلال على ذلك إلا أن يطلب منهم أن يأتوا بمثله ، فإذا عجزوا يخبرهم بأن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وبهذا يتبين أن هذه الآيات وضعت فى هذه السورة لتدل على قدرة الله تعالى على معرفة ما تُحدث إبليس نفسُه به ، ولولا إدراك ما بين مقالتى إبليس﴿ **قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرءيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ من اسرار تتعلق بوضع لفظ (قال) مع أن القائل هو عين من قال الأول ؛ ما أدركنا هذا المعنى ، الأمر الذى لا يتأتى إلا إذا قدرنا محذوفا بين الآيتين﴿ **ثم أسرها فى نفسه ولم يبدها قال أرءيتك . . .** ﴾ أو ما فى معنى ذلك .

وموقف إبليس من رب العزة فى ضعفه ، كموقف إبراهيم من قومه فى ضعفه ، جل الله وخليله عن ذلك ، وإنما نرمى إلى وصف حال صاحب القول من المخاطب .

وشبيه بهذا الموقف فى ورود قولين متتاليين لقائل واحد للدلالة على تغير حال المتكلم فى مشهد واحد ، ما ورد عن سليمان عليه السلام إذ جاءه رسول بلقيس بالهدايا ليفاجئه بقول الدال على سابق علمه بما جاء به . ﴿ **فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ آتَانِىَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ . ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ . قَالَ يَآأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ** ﴾(١) .

---

(١) سورة النمل : ٣٦ – ٣٨ .

إن أول ما يتبادر إلى الذهن عند قياس هذه الآية على ما سبق أنه لو حذف لفظ القول من الآية الأخيرة لكان أحسن ، لأن المقول يوضح تماما أن القول الأول لسليمان موجه إلى رسول الملكة ، والأخير موجه إلى حاشيته ومستشاريه ووزرائه ، حيث قال فى الأول ﴿ **ارجع إليهم** ﴾وقال فى الثانى ﴿ **يا أيها الملأ** ﴾ ، فحذف ﴿ **قال** ﴾ الأخيرة لا يؤثر على السياق بل يزيده ترابطا ويفسح المجال للحركة بالحوار كما سبق .

وهذا كلام بين الخطأ لأننا إذا ما نظرنا نظرة أخرى فى الآيات لنتبين أبعاد السياق ، وجدنا أن آخر قول لسليمان فيه لا يصح عقلا أن يقال بمحضر من رسل هذه الملكة التى يدبر أمر الإتيان بعرشها ، وليس هذا فحسب ، بل إن هذا الكلام لا يصح أن يكون قد قيل إلا بعد أن ورد خبر لسليمان بأن الملكة قد عزمت على المسير إليه ، لأنه لا يقول ﴿ **قبل أن يأتونى مسلمين** ﴾ إلا بعد أن وصلها رسلها قافلين من رحلتهم الفاشلة إلى سليمان ، وتدبرها أمرها وعزمها على الخروج[1] ، بل خروجها فعلا ، بحيث احتاج سليمان إلى من يأتيه بالعرش فى أقل وقت ممكن قبل أن تصل إليه ، لقد مضى إذا بين قول سليمان الأول وقوله الثانى زمن ليس بالقليل ، فلئن كان المشهد واحدًا (أى وحدة المكان) فالزمان مختلف ، العبارة الأولى﴿ **أرجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾ قالها سليمان ورسل الملكة عنده ، وهى فى اليمن ، والعبارة الثانية ﴿ **يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين** ﴾ قالها والملكة على وشك الوصول إليه والمثول بين يديه مسلمة له بالسطوة والسلطان ، وطالبة منه الحماية والصفح والرضوان ! لهذا فصل بين المقالتين بكلمة

---

(١) ذكر الزمخشرى أخبارًا فيما فعلت الملكة بعرشها قبل خروجها إلى سليمان ولم يعرض لشىء مما ذكرنا . الكشاف ٣ /٣٦٧ .

(قال) هذه ، بعد أن حذف كل ما بينهما من مجريات دالة على الزمان والمكان والموضوع والأشخاص والمواقف .

وإذا ما وازنا بين هذا الموقف الخالى من السرد وموقف إبراهيم السالف الذكر الذى ورد فيه السرد وهو قوله تعالى ﴿ **فجعلهم جذاذا إلا كبيرًا هم لعلهم إليه يرجعون** ﴾ ، وجدنا أن ما حدث بين خروجهم ودخولهم قد وقع فى المكان نفسه ، وهو تحطيم إبراهيم للاصنام ، دون أن ينطق بأى كلام يمكن أن يوصف به الحدث ، فتحتم أن يسرد ولو كان ثمة مؤلف عرض لقصة كهذه لاضطر اضطرارًا إلى وصف فعل تحطيم الآلهة الذى يقع على خشبة المسرح ، لأن الحوار يصف ما يحدث خارج خشبة المسرح أما ما يحدث عليها وفى زمن العرض فلابد من وصفه ليقوم الممثلون عند تنفيذ العمل المسرحى بفعله ، أما فى قصة سليمان فما بين قول سليمان الأول وقوله الثانى أحداث وقعت بعيدًا عن المكان فلا توصف ، وإنما يشير إليها الحوار فقط .

وهكذا نرى أن مشهد قصة إبراهيم قد تحتم فيه سرد على الرغم من أن الحوار نهض به تماما ، وعلى العكس حذف السرد من هذا المشهد من قصة سليمان ونطق الحوار بما يقع خارج مكان وقوع الأحداث . وهذا يدلنا على مدى الدقه البديعة المعجزة التى اتسم بها الأسلوب القرآنى فى عرض قصصه .

✵✵✵

وقبل أن ننهى هذا الفصل من هذه الدراسة نختمه بلطيفتين من دقائق الحذف فى الحوار المتصل ، إذإن لهما من الدلالات التعبيرية الواصفة لحالة المخاطب مالهما ، وسنحاول وصفه سائلين الله تعالى التوفيق . .

قال تعالى مخبرًا عن موسى مع فرعون وملائه : ﴿ **فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ . قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ**

﴿ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُونَ ﴾[1] وقال عن لوط وهو يدفع قومه عن ضيفه : ﴿ **قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد** ﴾[2] يكاد المفسرون يجمعون على أن مفعول (أتقولون) محذوف[3] ، فى قول موسى استغناء بما قبله وبما بعده فى الدلالة عليه .

ويكادون أيضا يجمعون على أن جواب (لو) فى قول لوط محذوف[4] ، وقدره كل منهم بوجه من الوجوه ، ولم يعلل للحذف إلا قليل منهم .

وأمر هذا الحذف ، باختصار شديد ، يتعلق بالحالة النفسية لقائله ، وأحاسيسه التى جَمَّدَت الكلام على لسانه .

وبيان ذلك أن موسى عليه السلام كانت فيه عقدة فى لسانه ، والله تعالى جعل معه أخاه هارون وزيرا لأنه أفصح منه ، وقد ذكروا أن عقدة لسانه لم تكن قد حُلَّت بالكلية ، وأنه قد بقيت منها بقية ، لأنه دعا ربه قائلا ﴿ **واحلل عقدة من لسانى** ﴾ ولم يقل (عقدة لسانى) أو (العقدة من لسانى) فأجيب إلى ما سأل بحل عقدة ، وبقاء غيرها ما شاء الله[5] .

والأسوياء من الناس عندما ينفعلون ويشتد بهم الغضب يصعب عليهم السيطرة على مخارج كلامهم ، وربما يحتبس الكلام منهم ويعجزون عن النطق لفترات تتراوح مابين لحظات وساعات ، وقد عرف عن موسى عليه السلام

---

(١) يونس ٧٦ - ٧٧ .

(٢) هود ٨٠ .

(٣) الرازى ١٧ /١٤٨ ، الألوسى ١١ /١٤٥ ، البيضاوى ٢٨٥ ، سيد قطب ٣ /١٨١٣ ، أما الزمخشرى ٢ /٣٦١ فيجوزه .

(٤) المثل السائر ٢ /٣٠٩ ، الكشاف ٢ /٤١٥ ، الرازى ١٨ /٣٥ - البيضاوى ٣٠٢ - الألوسى ١٢ /٩٧ .

(٥) الرازى ٢٢ /٤٧ - ٤٨ .

شدة الانفعال والغضب فى الحق ، إلى درجة أنه ألقى من يده الألواح التى فيها التوراة وأخذ برأس هارون يجره من ناصيته ومن لحيته ، عندما وجد أن السامرى قد أضل قومه بالعجل فى وجود هارون واستسلم موسى لغضبه ولم يهدأ إلا بعد حين ووصفه رب العزة بقوله﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح** ﴾ ، فموسى كان فى غضبه يكاد يفقد رشده ، فماذا نظن بمنطقه ، وهو الذى كان مريضا أصلا بلسانه ؟ !

وفى ضوء هذه الحقائق التى بسطناهايمكن أن ننظر فى الموقف الذى وقف فيه موسى أمام فرعون وملائه ليدعوهم إلى عبادة الله الواحد ، ويريهم آياته البينة ، فقالوا له : أن هذا لسحر مبين فكبر عليه وصفهم للحق المبين بأنه سحر ، فأراد أن يراجعهم فى هذا مستنكرًا ما قالوه ، فقال : « أتقولون للحق لما جاءكم . . » ثم استعصى عليه النطق لبشاعة الوصف وبعده عن الحق ، فسكت واستجمع قواه ليسأل مستنكرًا : « أسحر هذا » فظهر الكلام وكأن فيه حذفًا ، وليس بحذف[1] ، ولكنه انقطاع للدلالة على ما ذكرنا من شدة انفعال موسى لبشاعة الوصف وعجزه عن أن يعيد بلسانه نطق هذه الفرية . إن صياغة الأسلوب وطريقة إلقائه بالإضافة إلى الاستفهام الاستنكارى ، كل هذا بالإضافة إلى انقطاع موسى عن إكمال استفهامه الأول بعجزه عن حكاية قولهم ، ضاعف من إحساسنا بمدى هول هذه الفرية ، وعظم وَقْعِها على نفس نبى الله وكليمه موسى عليه السلام فأين الإيجاز من هذه العلل لما حذف من هذا الأسلوب[2] !!

---

(١) هو حذف قطعا من جهة السياق الأسلوبى ، ونفى الحذف أمر يتعلق بطبيعة الإلقاء التعبيرى على لسان موسى كما بيناه ، وقد ذهبت بعض أقوال للمفسرين إلى أن : أسحر هذا ؟ هو مقول : « أتقولون » وهو مردود بسياق الآية وبما احتج به المفسرون . انظر : الكشاف ٣٦١/٢ ، الرازى ١٧ /١٤٧ .

(٢) إن تعليلنا هذا يتفق بوجه من الوجوه مع بعض ما علل به البلاغيون للحذف ؛ بأنه قد يحذف من الأسلوب ما يستكره ذكره « صيانة للسان عنه » . انظر : البرهان فى علوم القرآن جـ٣ ص١٠٧ .

أما قول لوط عليه السلام لقومه وهو فى الشدة التى أوقعه فيها قدوم هؤلاء الضيوف عليه ، ومحاولة الفساق أن يصلوا إليهم ، وما عاين من نفسه من العجز عن إقناعهم بالمنطق والحسنى ، والعجز عن دفعهم بالقوة ، لكل ذلك زفر زفرة ألم من أعماقه وتمنى قائلًا : « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » ، ففى هذا القول حذف جواب لو كما بينا ، وكان أقصى ما قيل فى علة حذفه . ما حكاه الرازى عن الواحدى من أنه قال « وحذف الجواب ههنا لأن الوهم يذهب إلى أنواع كثيرة من المنع والدفع[1] وأكثرهم على تقدير لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد لفعلت بكم وصنعت ، على حد الحذف فى قوله تعالى ﴿ **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال** ﴾ أى لكان هذا القرآن[2] :

وعلة هذا الحذف عندى تكمن فى أمرين : -

أولهما : التعبير عن مدى الألم والأحساس بالعجز الذى استولى على لوط فى هذا الموقف ، وهذا من الشائع فى مثل هذه المواقف ، لأن الجواب المحذوف هنا معلوم أنه دال على جنس ما عجز القائل عنه وتمناه .[3]

وثانيهما : أن الموقف لا يحتمل أن يستعدى لوط هؤلاء الفسقة المارقين

---

(1) الرازى ١٨ /٣٥ .

(2) الرعد : ٣١ - والرازى ١٨ /٣٥ ، ١٩ /٥٤ ، والكشاف ٢ /٤١٥ ، ٥٢٩ . والمثل السائر ٢ /٣٠٩ ، ٣١٠ ، أما سيد قطب فقد ذهب مذهبا غريبا فى تفسير الآية فى الظلال ٤ /١٩١٤ ، حيث أشار إلى أن لوطا قد توجه بهذا الكلام للرسل أنفسهم قائلا لهم : لو كان لى بكم قوة أى لو أننى كنت أتقوى بكم ، ظانًا أنهم فتيان ضعاف لا حول لهم ولا قوة ، وأنهم لهذا أجابوه قائلين : ﴿ **يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك** ﴾ ، ولست أدرى ما حجته فى هذا أو مصدره !

(3) انظر ما ذكره ابن الأثير فى هذا - المثل السائر ٢ /٣٠٧ - ٣١١ .

فيه على نفسه ، فلو أتى بجواب مؤداه أنه يقاتلهم أو يفتك بهم أو ينكل بهم ، لكان فيه استعداء لهؤلاء عليه لأن شرعهم يحل لهم منه ، ما يحل له شرعه منهم ، بفارق أنهم يملكون الكثرة والقوة وهو لايملك .

وبهذين الموضعين يتبين لنا أن للحذف وجوها يمكن أن يراعى بها ما صارت إليه نفس المتكلم من انفعالات أو من غضب أو يأس . . إلخ ويجيء الحذف فيها دالًا على أشياء فى النفس قد يعجز الأسلوب التام عن بيانها أو لا يدل على مثلها ، وكثير من هذا يراعيه الكتاب المسرحيون ولكن ليس بالدرجة التى تجعل التوقف عن إتمام الحوار دالًا على ما فى نفس المتكلم ، بما يغنى عن تخلل السرد فى ثنايا الحوار بوصف تلك الحالة ، وهو ما تحقق بيسر متناه فى المحاورتين القرآنيتين السابقتين وليس معنى هذا أن المحاورات القرآنية قد سارت على وتيرة واحدة فى تناول ما يستدعيه الموقف من أيضاحات تتعلق بالأحداث والأشخاص ، ولكن طبيعة المشهد كانت دائما هى التى تملى طريقة الأداء الأسلوبى فى السياق . وهذا أمر غاب عن كثير من المفسرين والبلاغيين مما أوقعهم فى أخطاء فى التفسير والجأهم إلى قبول روايات عجيبة للأحداث وأكثرها من الإسرائيليات ، وجعل بعض البلاغيين كذلك يخطئون فى تقدير الظاهرة الأسلوبية ، وتقدير محذوفات فيها بعض التناقض والتكرار لما فى نظرتهم إلى الأسلوب من جزئية وعدم إدراك لتكامل السياق القرآنى ، فابن الأثير نظر فى قوله تعالى ﴿ **ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن أفعصيت أمرى** ﴾[1] فاعتقد أن السياق يقتضى تقدير جملة محذوفة ، غير مفيدة ، تقديرها « فلما رجع موسى ، ورآهم على

---

(١) سورة طه ٩٠ – ٩٣ .

تلك الحال من عبادة العجل قال لأخيه هارون : ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني ؟ »[1] وليس الأمر على ما ذكر ابن الأثير بالمرة ، فليس ثمة حذف في هذا الموضع ، وإنما نظرته الضيقة إلى النص وتوفره على الجزئيات هو الذى حدا به إلى هذا الاعتقاد الخاطىء ، ولو أنه راجع القصة من أول هذا المشهد ، لوجد أن هذا المشهد يبدأ بعودة موسى ولومه لقومه واستمرار المحاورة بينه وبينهم ، حتى اقتضى السياق أن يعترض المحاورة بسرد واقعة حدثت فى غيبة موسى وقبل عودته ، أى قبل هذا المشهد ، بطريقة (الاسترجاع Playback) التى تعرضنا لها فى الباب الأول من هذه الدراسة ، ثم يعود إلى المحاورة مرة أخرى ، وذلك بهدف إظهار مجاهدة هارون لهم ، وضعفه عن منعهم من عبادة العجل ، وذلك قبل أن يلتفت موسى إلى هارون معنفًا ومعاقبًا وهارون يعتذر له ، فقول الله تعالى ﴿ **ولقد قال لهم هارون** ﴾ . . . إلخ إلى قوله : ﴿ **يرجع إلينا موسى** ﴾ وقع بين شقين للمحاورة ، أولهما بين موسى وقومه والثانى بين موسى وهارون أى أن ثمة إضافة فى المحاورة وليس فيها حذف ، وليس لنا أن نقدر مثل هذا الحذف أذ لو فعلنا لاقتضى ذلك أن يكون موسى قد ذهب مرة واحدة ورجع مرتين ، ثانيتهما هذه المحذوفة ، وأولاهما المذكورة قبل فى أول المشهد فى قوله تعالى ﴿ **فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى . قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارًا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى فأخرج لهم عجلًا جسدًا**

---

(١) المثل السائر ٢ /٢٨٠ - ٢٨١ . وانظر : الكشاف ٣ /٨٣ ، الرازى ٢٢ /١٠٥ - ١٠٦ - أبو السعود ٣ /٣٢٠ - البيضاوى ٤٢١ . وفى كلامهم نظر حيث إن المنطق يقضى بأن تحذير هارون جاء بعد أن قال السامرى : هذا إلهكم لا قبله أما قوله تعالى ﴿ **من قبل** ﴾ فمعناه : من قبل أن يرجع موسى وتدور بينهم وبينه تلك المحاورة .

له خوار فقالوا هذا آلهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولًا ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا . ولقد قال لهم هارون من قبل ﴾ . . . الآيات .

ومثل هذا تمامًا وقع لابن الأثير أيضًا فى تقدير محذوف فى قوله تعالى **﴿ قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾**(1) حيث قدر : فلما جاء به قال نكروا لها عرشها وعلل ذلك بأن تنكيره لم يكن إلا بعد أن جىء به إليه(2) ، وغفل الشيخ عن قوله تعالى قبل **﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرًا عنده قال هذا من فضل ربى ﴾** . . . الآيات فسليمان عليه السلام لم يقل ما قال أولًا وثانيًا إلا والعرش مستقر عنده ، فخطأ ابن الأثير فى تقدير المحذوف بين قوليه ، كخطئه فى السابق ، وإنما الصواب أن نشرع فى البحث عن علة تكرار لفظ القول بين قولين لقائل واحد هو سليمان ، وهذا ما سنبحثه فى الفصل التالى أن شاء الله .

ونظير ذلك خطؤهم فى تفسير قوله تعالى **﴿ ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير ﴾**(3) حيث حاروا فى توجيه قولهم **﴿ ذلك كيل يسير ﴾** ! كيف يطلبون أخاهم ليزدادوا به كيل بعير ، ثم يقولون بألسنتهم ذلك كيل يسير تهوينًا لما يطلبونه لأجله ، فاجتهد بعضهم قائلًا فى أقوال كثيرة : إنه من قول يعقوب ، أى أن ثمة محذوفا من السياق مؤداه أنهم لما قالوا لأبيهم : « ونمير

---

(1) النمل ٤٠ - ٤١ .

(2) المثل السائر ٢ /٢٨١ .

(3) يوسف ٦٥ .

أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير » . قال لهم أبوهم : ذلك كيل يسير . تهوينا لشأن الحجة التى احتجوا بها . وليس هكذا ، وإنما المحذوف من الأسلوب همزة استفهام[1] حيث أرادوا بقولهم : ذلك كيل يسير ، أذلك ، تقريرًا لأبيهم بأنهم فى زمن مجاعة وكيل بعير ليس شيئًا يسيرًا فى هذا الزمن ، ليدخلوا على أبيهم الرغبة فى ذهابهم بأخيهم ، ودليل هذا قولهم : ونمير أهلنا .

ومثله يقال فيما ذكرنا من قول امرأة العزيز بين يدى الملك وما ذهب إليه المفسرون من قطع بعض كلامها ونسبته إلى يوسف ، مما يدل على أن النظرة الجزئية التى استولت على العلماء القدماء فى دراسة أساليب القرآن الكريم قد أذهلتهم عن كثير من مقتضيات مشاهد القصص القرآنى ، ولست بهذا أدعى عليهم بالقصور الفاضح كما يفعل بعض الباحثين المتأثرين بأفكار المستشرقين ، وإنما الذى خدمنا فى إدراك ذلك هو تطور الفنون الحديثة التى تفرعت على فنون القصة والمسرحية ، ومستحدثاتها العجيبة وما طلعت علينا به من أساليب عرض القصص ، كلها قد يسرت لنا إدراك مالم يدركه الأقدمون من القرآن الكريم ، والله أعلم بما تأتى به الأزمان التالية .

✵✵✵

---

(١) لحذف الهمزة فى هذا الموضع نظائر تسوغه فى القرآن الكريم كما فى قوله تعالى ﴿ **فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى** ﴾ الأنعام ٧٦ أى : أهذا ربى ؟ (الرازى ١٣ /٥٢) .

وقوله تعالى : (وتلك نعمة تمنها علىَّ أن عبدت بنى إسرائيل ﴾ الشعراء ٢٢ أى : أو تلك نعمة (القطع والاستئناف ص ٥٢٩) .

وقوله تعالى ﴿ **إن لنا لأجرًا** ﴾ الأعراف ١١٣ ، ﴿ **إنك لأنت يوسف** ﴾ يوسف ٩٠ بدون الهمزة الأولى فى كليهما فى قراءة ابن كثير (التذكرة فى القراءات ص١٥٤) .

الباب الثالث

أثر إضمار القول والقائل والمقول

فى مشاهد القرآن ومحاوراته

تمهيد

الفصل الأول : الوصف الناطق المعبر

الفصل الثاني : التكثيف والاسقاط والحضور

الفصل الثالث : إحياء مشاهد الغيب وتجسيدها

الفصل الرابع : بناء المشهد القصصى بين مراتب حذف لفظا القول وتكراره .

الفصل الأخير : قيمة الحذف وعمل الإضمار فى البناء الفنى للقصة .

رأينا فيما سبق ما لحذف مقول القول من دلالة ، فى قوله تعالى على لسان موسى ﴿ أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ﴾ وعرض لنا قبلها من المحاورات ما تداخل فيه قائلان لمقول واحد ، أو قيل فى مشهدين أو دخل فيه لفظ القول بين قولين لقائل واحد وتبين أن تداخل المقولات قد أحسن الانتقال بأحداث القصة ومشاهدها من حدث إلى تالٍ ، ومن مشهد إلى آخر ، وهذه الدقائق تثير مسألة حيرت النقاد قديمًا وحديثًا ولم يهتدوا إلى قول شاف فيها ، وهى مسألة تتعلق « بالإبداع » ، حيث يلجأ كاتب إلى الشكل المسرحى للتعبير ويرتاح غيره إلى القصة ، وثالث يجمع بينهما ، ولكنه يختار هذا لموضوع وذاك لآخر غيره !

ومعلوم أن طبيعة فن القصة تختلف عن طبيعة فن المسرحية إذ إن المؤلف يختفى تمامًا فى المسرحية بعد أن يضع الكلام على ألسنة أبطاله ، ليظهر هؤلاء الأبطال على خشبة المسرح ليؤدوا الأحداث وكأنها تحدث حقيقة مع فروق بين التمثيل والواقع ليس هذا مجال ذكرها ، أما القصة فأبطالها لا يتركون وحدهم يتصرفون كيف يشاءون ، وإنما هم مقودون ومقيدون بما نص عليه المؤلف أو راوى القصة الذى يتدخل بين الحين والآخر بالسرد والوصف للأحداث والأشخاص والمناظر وغير ذلك ، وكل هذه العوامل تتشارك معًا بالإضافة إلى الحوار ، لتدفع بالحدث قدمًا إلى الإمام ، بخلاف المسرحية التى ينهض الحوار فيها منفردًا بعبء دفع الحدث قدمًا إلى غايته .

ولقد يحلو لبعض النقاد أن يفاضلوا بين هذين القالبين وهاتين الطريقتين ، فينحاز بعضهم إلى أسلوب الكتابة المسرحية لأنه يفسح المجال أمام المشاهد للاستغراق فى الحدث وأبعاده الفكرية والإنسانية دون التفات إلى الوصف وسرده أو انشغالٍ به ، والآخرون يعدون القصة أفسح مجالًا حيث إنها أكثر

انطلاقًا وتحررًا من قيود المسرح ، وتعطى كاتبها فرصة ذهبية لاستعراض مواهبه الأسلوبية فى الوصف والسرد ، وهو ما لا يتيسر لكاتب المسرحية الذى يستفرغ كل طاقاته فى تحريك الحدث بالحوار على ألسنة أبطاله .

والحقيقة أن لكل من الفنين مجاله ووسائله ، وما يناسبه من الموضوعات والحبكات ، ولهذا ساق النقاد للاختيار عللًا يتعلق بعضها بالمؤلف نفسه وملكاته ، ويتعلق بعضها بالموضوع الذى يصب فى هذا القالب ، وبعض ثالث يتعلق بجمهور المتلقين وما يناسبهم من طرق التلقين ووسائل التأثير والإقناع وتحريك المشاعر !

هذا عن الفن الذى يمارسه الناس ، ويبدعون فيه ويصولون ويجولون .

أما عندما يتعلق الأمر بالقرآن ، الذى نراه يميل حينا إلى تغليب روح الحضور فى المشهد ، بتكثيف الحوار ،وتدفقه ، وتحريك الحدث من خلاله تارة ، ونراه تارة أخرى يميل إلى تغليب روح السرد القصصى وتحريك الحدث من خلاله ، فلابد من التوقف عند هذه الظاهرة كثيرًا وعدم الاكتفاء بما يسوق النقاد من علل لنظيرتها فى كلام الناس ، ولا سيما عندما يتجاور الأسلوبان معا فى القصة القرآنية ويتداخلان ، أو تساق القصة بأسلوب وتالية لها بغيره ، أو تساق القصة مرة بأسلوب وأخرى بالأسلوب الآخر !

فإذا كان الأسلوبان جميعًا قد وجدًا فى القرآن على هذا النحو ، فإن العلل التى تتعلق بالمؤلف لا يصح سوقها أو التعلل بها ، رعاية لحق رب العزة ، ولأن المتكلم بالأسلوبين معًا واحد وفى نص واحد ، كما أن العلة التى تتعلق بالجمهور أيضًا تتوارى ويتضاءل تأثيرها إلى حد ما ، حيث أن المتلقى للنص واحد ، ومن يقرأ هذا من النص يقرا ذاك ! ، ولقد يقال أن طوائف البشر تختلف باختلاف الجنس والزمان والمكان ، وأن ما يؤثر فى بعضهم لا يؤثر فى غيرهم ، وهؤلاء يؤثر فيهم غير الأول ، وأن الله تعالى راعى ذلك وأنه

داعية من دواعى التكرار فى القرآن ، فجاء بعض القصص بأساليب متباينة ليناسب كل الناس على اختلافهم ولسنا نمانع فى هذا وهو بعض ما نعتقده ، على أن يبقى القرآن واحدًا وعربى اللسان ، كما أنزله الخالق جل وعلا .

وهنا تجيء العلة الثالثة والأصلية التى تساق للتفريق بين الأداءين ، ونرتضيها ، وهى أن تغليب روح الحضور أو تغليب روح السرد أمر موضوعى يتعلق برغبة المؤلف فى التحكم فى مشاعر المتلقى بحسب ما يرتئيه مناسبا لطبيعة الموضوع ، فتارة يعمل على جذب المتلقى بعيدًا عن واقعه الذى يعيشه ليستغرقه النص الأدبى تمامًا حائلا بينه وبين هذا الواقع ، فيلجأ إلى وسائل الحضور المختلفة التى تتوافر من خلال الحرفة المسرحية التى تكفل استغراق المشاهد فى العمل حتى انقضائه ثم يبدأ بعد ذلك فى المزاوجة بين واقع حياته وبين ما تلقاه فى العمل المسرحى والإفادة منه .

وتارة يحرص المؤلف على ربط المتلقى ، وهو فى حالة يقظة تامةلواقعة ، بالأحداث التى يعرضها عليه ، فيلجأ إلى أسلوب القصة الذى يكفل حدوث هذه المزاوجة أولًا بأول مع كل مرحلة من مراحل العمل الأدبى من خلال « السرد »

والموضوع الذى يختاره المؤلف هو الذى يدفع هذا المؤلف إلى اختيار أحد هذين السبيلين .

– فإذا رأى أن الزمن طويل والمكان متسع توجه الاختيار إلى القصة ، ما لم يحتل عليهما .

– أما إذا كان الزمان والمكان محددين أو احتال المؤلف عليهما فيمكن اللجوء إلى المسرحية .

– وما يغلب عليه الفكر ، وتعارض الآراء والمواقف يصلح فيه المسرح

لأنه يثرى المحاورة ، ولا يمل المتلقى بعكس القصة .

– وما يستدعى الوصف الكثير سواء للإنسان أو للعناصر الثلاثة المعهودة : الزمان والمكان والموضوع ، (الحدث) كل ذلك يستدعى القصة ، ولا يسبب الإملال فيها ، بل إنه يتعذر تقديمه من خلال المحاورات .

وإجمالًا فإن المؤلف لا يلجأ إلى المسرحية إلا إذا ثبت لديه أن الحدث المختار يمكن تحريكه وإثراؤه عن طريق الحوار وحده ، وأن الكلام يغلب على الحركة فى أحداث موضوعه ، أما فى الحالات التى تكون الحركة فى عناصر الزمان والمكان والموضوع والأشخاص غالبة على التكلم فيلجأ إلى القصة والسرد القصصى .

ولئن كان الأسلوب القرآنى فى ظاهره يوحى بأنه قد استعمل القالب القصصى دون القالب المسرحى ، فإن كثيرًا من قصصه قد تخلله مشاهد مفعمة بالحضور والحيوية على نحو يفتقر إليه فى حِرْفِيتِّه أعظم تراث الأدب المسرحى ، ولقد سلك القرآن الكريم مسلكًا وسطًا بين هذين الفنين ومزج بينهما على نحو فريد عالج ما نسب إلى كل منهما من قصور وسلبيات وما فرض عليه من قيود أيضًا ، بل إنه قد سبق هذين الفنين إلى طرائق لم يُتوصَّل إلى مثلها إلا بعد أن تطورت « تكنولوجيا » الفنون فى العصر الحديث ، وقد تبين هذا جليا من معالجتنا لكثير من المشاهد التى مرت فى الفصول السابقة .

وليس معنى هذا أن استعمال الأسلوب القرآنى فيما بين السرد والحوار كان على نحو يمكن لبعض معاصرينا ممن يستعينون « بالتكنولوجيا الفنية » أن يضاهئوه ، فهذا أمر بعيد الاحتمال وإنما حسبهم أن يتلمذوا عليه ويقبسوا من دروسه وقواعده التى لا تجارى .

فأسلوب العرض فى القصة القرآنية لا يرمى إلى انتاج قصة أو مسرحية بالمعنى الفنى وإنما يرمى إلى تحقيق الهدف من سوق « الحدث » فى ذاته

مشفوعًا من الوسائل الفنية بما يكفل له القدرة على الجذب والتأثير فى السامع ، ونحسب أن تقديم الحدث بهذه الصورة قد تحقق من خلال سمات أسلوبية أصلية ، منها : التدفق ، والإثارة ، والعرض ، والحضور ، والتكثيف ، وهذا التكثيف يتسلط على محاور الحدث الثلاثة ، الزمان والمكان ، والموضوع ، ولئن كان ما يتسلط منه على المكان والموضوع يسهل تصور كيفية تحققه ، وقد درج عليه أرباب فنون القصص من قديم ، أما عنصر الزمان فقد اختلف فيه كثيرًا حيث إن له أبعادًا ثلاثة يتحرك فيها الحدث : أولها زمن وقوع الحدث فى الوجود الخارجى والحياة الواقعية ، وثانيها زمن عرض الحدث من خلال العمل الفنى قصة كان أو مسرحية ، وثالثها الزمن النسبى وهو ما يحدده القاص أو المسرحى لنفسه من زمن مناسب بين هذين الزمنين ليبسط خلاله أحداثه التى سيعرض الموضوع من خلالها ، بحيث إن ما وقع قبل هذا الزمن النسبى من أحداث يسحب إلى ساحة الحدث عن طريق السرد أو عن طريق أحد أطراف الحوار ، وكذلك ما يقع خارج ساحة العرض أثناء العرض ويتعارض زمنا مع أحداث أَوْلى منه بالعرض ولكنها تتأثر به ، فإنه يسحب أيضا إلى الساحة ، وما عدا هذين فالأحداث تمضى إلى نهايتها من نقطة بداية الزمن النسبى إلى نهايته ، وعلى سبيل المثال فإن مسرحية أوديب يستغرق عرضها ثلاث ساعات ، ويستغرق زمنها النسبى يومًا وليلة ، والزمن الحقيقى لأحداثها يمتد إلى عدة عشرات من السنين من قبل مولده إلى أن جاء هذا اليوم الأخير الذى ثمل فيه عينيه بنفسه وخرج منفيًا هائما على وجهه من طيبة .

ولتكثيف الحدث وسائل كثيرة لم نر أبدع مما استعمل فى القرآن الكريم منها وقد تبين هذا فيما عرضناه من هذه الوسائل .

ومن أبرز هذه الوسائل استعمال لفظ القول فى القصة القرآنية على نحو لا يجارى فى ذكره وحذفه ، وهى من الدقائق العجيبة فى الأسلوب القرآنى

حيث تبدو حينا من قبيل السرد ، وحينا من لب الحوار ، ويتصرف فيها منزل القرآن تصرفًا عجيبًا سواء فى ذكره أو حذفه .

وقد سبقت الإشارة إلى عدد من أقوال العلماء[1] ، عما لاحظوه فى أسلوب القرآن الكريم فى إضمار القول ، وهى جميعًا تؤكد أن « إضمار القول كثير »[2] وأنه « كثر فى القرآن العظيم حتى إنه فى الإضمار بمنزلة الإظهار »[3] ، غير أنهم قصروا همهم على تقدير هذا المحذوف وبيان المواقع الإعرابية به أو بدونه . وهذا يلقى علينا عبئًا كبيرًا فى استخلاص العلل وتوجيه الأساليب على النحو الذى يراعى البناء القصصى الغنى ويأخذه فى اعتباره .

وسنتتبع هنا بعضًا من المشاهد القرآنية من القصة والخبر الذى كالقصة ، وغيرها ، ورد فيها محذوفات تتعلق بالقول والقائل والمقول ، ثم نعمل على استنباط دلالات تلك المحذوفات وعللها البلاغية والحرفية وغيرها ، بموازنتها بما ذكر فى نظائر لها من آيات الكتاب العزيز ، مع مناقشة بعض الأقوال للمفسرين فى مواضع منها ، محاولين الوصول إلى الحقيقة فيها على ضوء ما قدمنا ، وما هو مبسوط لدى السابقين من دلالات النص القرآنى الكريم .

❋❋❋

---

(١) فى الفصل الأخير من الباب الأول .
(٢) تفسير الفخر الرازى ١٣ /٥٣ .
(٣) البرهان فى علوم القرآن : ٣ /١٩٦ .

الفصل الأول

الوصف الناطق المعبر

إن غزارة المادة التى بين أيدينا تدعونا إلى محاولة تصنيفها وعرضها زرافات ، كل منها تجمعها سمات معينة ، متدرجين بها ، حتى نصل من صورها المبسطة إلى الصور ذات الوجوه المتعددة والوظائف المركبة .

وأول ما نعرض له هنا مشاهد قرآنية غير قصصية ، تتناول موضوعات متباينة ، ولكن يجمعها أمران لا يخلو منهما واحد من هذه المشاهد ، أولهما أنها تصف فردًا أو جماعة من الناس ، وثانيهما أنها تقطع هذا الوصف بالقاء قول قائله هذا الإنسان أو الجماعة من الناس ، لا يُقصد به افتتاح محاورة ولا ينتظر له جواب ، وإنما هو قول معبر عن صفة ملازمة لهذا الموصوف ، ينوب مناب هذه الصفة . وهذا القول يلقى دون أن يسبقه لفظ قول أو ما يدل على القائل ، وإنما نفهم من السياق أن قائل هذا هو الموصوف بهذا الكلام ،وفى بعض المواضع نرى الموصوف هو المخاطب بهذا القول وليس هو القائل .

وأقرب ما يمكن أن نمثل به لهذه الطريقة ، هو « بطاقة » التعريف بشخص أو جماعة أو حتى بلد فإنها تقسم إلى قسمين أولهما تكتب فيه أوصاف وبيانات تتعلق بصاحب البطاقة ، وثانيهما تلصق فيه صورة هذا المعرف ، فمن أراد أن يعرف الشخص فإنه يقرأ البيانات ثم ينظر إلى الصورة ، ولعل هذه النظرة فى الصورة تكون موضحة لكثير من الأشياء التى لا تدلى بها البيانات المرافقة مهما كانت من الدقة والوضوح .

فما بالنا بالقرآن وهو يقدم لنا هذه الصورة المرافقة للوصف ، بل يقدمها صورة حية ناطقة ، نابضة بالحركة ، مسموعة ، مرئية . ولا غرابة فى هذا ، وقد عرفنا من قبل الدور الذى يؤديه ، الحذف فى تحقيق الحضور وجعل

الصورة ماثلة أمام أعيننا مؤثرة فى حواسنا ، فعرض الصورة المذكورة هنا يتحقق : أولًا بالعدول عن الوصف إلى حكاية القول الملازم للشخص المعبر عنه الذى إذا ما ذكر عرف به صاحبه ، وثانيًا بحذف لفظ القول قبله لنجده أمامنا ناطقًا حيًا معبرًا كما أشرنا من قبل .

وليست هذه الحرفة التعبيرية من الأمور البعيدة عن إدراك الناس ، حتى العوام منهم ، فإنهم يمارسونها فى محادثاتهم ، ويصحبونها أحيانا ببعض الحركات الجسدية والإشارات ، وتعبيرات الوجه التى يصورون بها ، الموصوف ويحكون حركاته ، بل إن الأطفال أكثر الناس استعمالًا لهذه الوسيلة التعبيرية أو الطريقة الوصفية ، ومع ذلك فإننا نادرًا ما نجدها فى لغة الأدب لما تحتاجه من الحرفة العالية والقدرة على التركيز فى اقتناص الصورة ، وفى اختيار الكلمات والأساليب التى تؤدى الوصف المطلوب . وهذا من المزايا المحسوبة للقرآن الكريم العامر بكثير من هذه الصور ، ومن ذلك :

١ - ﴿ **وإذا رءاك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون** ﴾ [الأنبياء ٣٦] .

٢ - ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ [التوبة ١٢٧] .

٣ - ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون أن الله لا يهدى من هو كاذب كفار** ﴾ [الزمر ٣] .

٤ - ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾ [الدخان ١٠ - ١٢] .

٥ - ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيمًا وأسيرًا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرا ﴾ [الإنسان ٨ - ١٠] .

٦ - ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار . . . . فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض . . . ﴾ [آل عمران ١٩٠ - ١٩٥] .

٧ - [والذى قال لوالديه آف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [الاحقاف ١٧] .

٨ - ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ [ص ٦ - ٨] .

٩ - ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد ﴾ [لقمان ١٢] .

١٠ - ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون ﴾ [الواقعة ٦٥ - ٦٧] .

١١ - ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ [ق ١٩] .

١٢ - ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أن لا إله إلا الذى آمنت به

بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلأن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾ [يونس ٩٠ - ٩١] .

١٣ - ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ [الإسراء ١٣ - ١٤] .

١٤ - ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون** ﴾ [الأنبياء ١٠٣] .

وكل هذه المواضع نلاحظ فيها سمة واحدة مطردة ، وهى أن الوصف فى السياق الوصفى قد تحول إلى مشهد قصصى أو أن شئنا الدقة « عرض مشهود » ، ونحن شهوده ونظارته ، بمجرد نطق تلك المقولات التى حذف قبلها جميعا لفظ القول مع توابعه ، فأصبحنا نرى ونسمع ونتابع ونتأمل ، بعد أن كنا نسمع فقط وصفا لشخص أو حدث ومن هنا صارت لهذه المشاهد طاقة تعبيرية هائلة - مهما كان المشهد قصيرًا - نظرًا لما أحدثه الحذف فيه من تجسيد وإخراج إلى حيز الوجود ، يفرضه بإلحاح مريح على نفس السامع .

ففى قوله تعالى :

﴿ **وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون** ﴾[1]

قائل ﴿ **أهذا الذى يذكر آلهتكم** ﴾ هم الكافرون . وقد نتج من حذف

---

(١) الأنبياء : ٣٦ .

لفظ القول مع الضمير الدال على القائل تحول المتلقى من مجرد « سامع » إلى متابع لمشهد هؤلاء الكافرين وقد رأوا الرسول ، فأرادوا أن يتخذوه هزوا فقالوا هذه المقالة ، فلو بقى لفظ القول لبقيت المسألة مجرد سرد حادثة عادية غاب هذا المتلقى عن مسرحها . أما الحذف فقد أوقع تغيرًا فى السياق أعطى أيحاء للمتلقى بأنه يسمع هذا القول من القائل الحقيقى له ، ولكنه ليس مشهدًا قصصيًا طويلًا كالمشاهد التى وقعت قبلا والتى ستمر بنا بعد ، إذ نفاجأ بعودته سريعا إلى السرد من جديد فى قوله تعالى : ﴿ **وهم بذكر الرحمن هم كافرون** ﴾ ، فأى جدوى إذا من اعتراض سرد الحادثة بقول مجرد من الفعل (قال) قبله وما يحمله من ضمير دال على قائله ! لا شك أن الهدف من ذلك إقامة المقول فى مقام الوصف لقائله ، أى أننى بدل أن أصف القائل وحاله ويطول معى الوصف ولا يجزىء ، اكتفى بذكر عبارة وقعت على لسانه ، إذا تفكر فيها السامع عرف ما تدل عليه من أخلاق هذا القائل وطباعه .

ونظير هذا فى دلالته تلك ، ما وصف به رب العزة بنى إسرائيل بالنص على قولهم ، فى ثنايا ما يصفهم به ، وكأن هذا القول لازمة لهم كالصفات الأخرى ، لا تبرحهم ، حتى إنه أوقعه بين معمولى « إنَّ » فى قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلًا . أولئك هم الكافرون حقًا** ﴾ وكذلك قوله تعالى واصفًا أياهم أيضًا : ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف** ﴾[1] ومثله فى دلالة القول على حال قائله ما حكاه رب العزة عن أهل سبأ حيث قال : ﴿ **وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى**

---

(١) الآيات ١٥٠، ١٥٥ من سورة النساء وما بعدها .

ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأيامًا آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾[1] وليس يعقل أن يطلبوه بألسنتهم ، وإنما حالهم من البطر والكفر بالنعمة والعناد شُبِّه بحال مَنْ يقول هذا ، لأنهم يستنزلون من غضب الله عليهم ما يوجب إزالة هذه النعمة ومحوها ، قياسًا على حديث النبى صلى الله عليه وسلم « لا يسب أحدكم أباه وأمه ، فقالوا : وكيف يسب الرجل أباه وأمه قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه » فالرجل الذى استوجب السب لأبيه وأمه جُعِل سابًّا لهما كأنه قاله ، وهذا لا يمنع الوجه الآخر الذى ذكره المفسرون[2] ، ولعل الداعى إلى أحلال القول محل الوصف فى حكاية الحال هنا أنه لما جعل ما أنزله من النعم الظاهرة عليهم موصوفا بحال رب العزة قائلًا لهم : **﴿ سيروا فيها ليالى وأيامًا آمنين ﴾** وهى نعمة جليلة أن يتوجه رب العزة إليهم بالأمر والخطاب على هذا النحو ، فجعل قولهم التالى له كالرد على الأمر الإلهى ليتبين مدى شناعة صنيعهم فى مقابلة الإحسان بالإساءة ، وبطرهم على النعمة .

فالمقول فى هذه الآيات ونظائرها ينوب مناب الوصف فى الإفصاح عن حال هؤلاء من الكفر والعناد والإصرار على مخالفة ما يؤمرون به ، فإذا أضيف إليه حذف لفظ (القول) الدال على ما ذكرنا من الحضور وتجسيد الموصوف (القائل) وهو ينطق بهذه العبارة – كما رأينا فى الأول كانت الدلالة مضاعفة والأثر مضاعفًا ، ولنضف إلى ذلك ما يتحقق من إيجاز بالحذف إرضاء لأسلافنا العظماء من البلاغيين .

ولحذف لفظ القول فى مقام الوصف نظائر فى الأسلوب القرآنى ، يستقل كل منها بخصيصة أو لطيفة أو نكته بلاغية ذات شأن عظيم ، ومن ذلك

---

(١) سبأ : ١٩ .

(٢) انظر : تفسير الفخر الرازى ٢٥/٢٥٣ .

قوله تعالى فى شأن المنافقين ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم أنصرفوا** ﴾(١) . فهل ترى أسلوبا أبلغ فى وصف نفاقهم من سياقة هذا المقول مع الفعل وضمير الفاعل قبله ، ليصبح قوله : ﴿ **نظر بعضهم إلى بعض** ﴾ بمثابة « فتح الستارة » عن مشهدهم وهم يتأهبون لفضح أنفسهم بألسنتهم ، فجعل ما حضر من قولهم بألسنتهم نائبا عن وصفهم .

ونظير ذلك وصفه للكافرين حال اعتذارهم عن سفاهة عبادتهم لشركائهم من دون الله ، حيث يقول : ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾(٢) فهو قد حذف لفظ القول ليجعل نقيصة هؤلاء وسفاهتهم ماثلة أمام أعيننا ، ناطقة بها ألسنتهم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾(٣) .

فهذا المشهد الغيبى يحتاج إلى تقريب إلى أذهان السامعين ، ولن يكون الوصف مهما بلغ كالعيان ، وما العيان إلا أن تصور المشهد يمثل فى الأذهان ، وكأنه مرئى محس ، وكل ذلك تحقق بحذف لفظ القول وإقامة المقول وكأننا نسمعه من قائليه الماثلين أمامنا فى حال الضراعة لربهم الذى ألقى عليهم هذا العذاب .

ولم يقتصر هذا النوع من الوصف الناطق ، على حكاية حال أهل المعصية وحدهم ، بل تعداهم إلى أهل الخير من الناس ، وإن كان مع السابقين أكثر وأظهر ، فالظاهرة التعبيرية لا تتقيد بالموضوع إلا بمقدار ما هى موظفة لأدائه

---

(١) التوبة : ١٢٧ .

(٢) الزمر : ٣ .

(٣) الدخان : ١١ - ١٢ .

من هذا الموضوع ، وقد وردت مواضع فى الكتاب العزيز نهضت فيها ظاهرة الحذف بكثير من الموضوعات ، بما فيها ما يتعلق بالمؤمنين ، ومن ذلك مشهد معجب لعباد الله الذين منَّ عليهم برضوانه ومغفرته وأدخلهم جنته فجاء وصفهم متضمنا ما يسمى فى «تكنولوجيا» الفن السينمائى بالاسترجاع Flash Back الذى وصفناه آنفا حيث يقول : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا** ﴾[1] .

فالمشهد الأصلى يتناول أحداث ما بعد القيامة وما يصير إليه الكافرون ، وما يصير إليه المؤمنون ، فجعل يصف بعضا مما يلقاه أهل البر من النعيم ، ثم جاء قوله (يوفون بالنذر) كأنه جواب على من يسأل عن سبب استحقاقهم ما قدم من الثواب[2] مع تقدير سؤاله المحذوف ، ثم شفع ذلك الوصف لحالهم وهم قائمون على إطعام ذوى الحاجة والانفاق عليهم ، شفع ذلك بإنطاقهم وهم يعملون هذا العمل بقولهم: إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا ، فصار المشهد مشهدين ، الأول انتقل بنا إلى الجنة ليصف لنا حالهم فيها ، والثانى رجع بنا إلى الوراء – ما وراءنا ونحن ما زلنا هناك نتابع مشهد النعيم المقيم – إلى الحياة الدنيا حيث كان هؤلاء يفعلون ذلك ، فجعل الصورة المزدوجة مبينة لكل ذى عينين أن هذا كان بسبب ذاك ، ولولا ذلك ما كان هذا ، فأى أسلوب كان يكفل لنا هذه المزاوجة !

---

(١) الإنسان ٥ – ١١ .

(٢) هكذا يفسره البلاغيون والمفسرون : انظر : الكشاف جـ٤ ص٦٦٨ .

وما ذاك إلا من الحذف ، حذف ما قدره البلاغيون من سؤال بين « يفجرونها تفجيرًا » ، و«يوفون بالنذر» ، وحذف لفظ القول قبل قوله: «إنما نطعمكم . .» . وهو من النماذج الدالة على ما استعمله القرآن الكريم من وسائل التأثير المختلفة فى المتلقين ، التى لا تكتفى بأدوات الاستقبال العادية لدى الإنسان ، وإنما تلح عليه فى إرهاف كل حواسه ومشاعره وعقله وواعيته وأيضا ما وراء الشعور بهذه الوسائل التى ما زلنا نحاول استجلاء أسرارها ، ولما نسبر أغوارها ، ونأت على آخرها بعد ، !

ولا تختلف كثيرًا الصورة المرسومة للأبرار هنا عن صورتهم الأخاذة بالألباب فى آخر سورة آل عمران ، حيث استخدم حذف لفظ القول لتحقيق الحضور فى المشهد وإنطاق الموصوفين فيه بألسنتهم دون حاجة إلى التنبيه على أنهم يقولون ذلك ، أو أن هذه مقالتهم ، فهذا فهم من السياق ، ولم تكن الفائدة التى عادت على الأسلوب هى مجرد تحقيق الإيجاز البلاغى بحذف لفظة «قائلين» من قوله تعالى:«ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا . . .» وإنما الفائدة كما بيناها آنفا هى تحويل الوصف المسموع إلى مشهد مرئى يلح على كل ملكات التصور لدى المتلقى ، حتى ليغدو وكأنه يسمع مِنْ أفواههم قولهم: ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار» . . . إلى منتهاه حيث يقولون«ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد» بل يكاد يراهم وهم يقولونه ، ويراهم أيضا إذ تتنزل عليهم رحمات ربهم بالاستجابة الفورية لدعائهم – وقد حذف لفظ القول منها أيضا ليجعل السياق كأنه محاورة بينهم وبين ربهم حيث يقول: ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى . . .** ﴾[1] .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ – ١٩٥ .

ولا شك أن الصياغة الأسلوبية ، والنظم بكل جزئياته ومكوناته من عوامل صوتية فى اللفظ والتركيب ، ولغوية فى حال الإفراد والتركيب أيضا ، وبلاغية فى التصوير الجزئى والبناء الكلى للمشهد تتآزر معا على إخراج المشهد فى الصورة التى تكفل له أكبر قدر من التأثير فى المتلقى ، يتضح ذلك فى مشهد من تلك المشاهد المؤثرة التى باتت من أسف تتكرر فى عصرنا هذا فى كثير من بيوت المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وهو مشهد الولد العاق الذى بهرته زخارف الحياة فانصرف عن الجادة ، واستمرأ حياة اللهو ، وأبواه لا يألوان جهدًا فى إصلاحه ولا يتركان وسيلة إلا أعملاها ، وهو غارق فيما هو فيه غافل عما ينتظره من سوء العاقبة . فانظر كيف عبر القرآن عن هذا : ﴿ **وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخرَجَ وَقَد خَلَتِ القُرُونُ مِن قَبلِى وَهُمَا يَستَغِيثَانِ اللَّهَ وَيلَكَ ءَامِن إِنَّ وَعدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَآ إِلَّا أَسَٰطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾[1] .

فهذا المشهد المأسوى البالغ التأثير – على الرغم من أسطره الثلاثة – نجح فى تجسيد صورة تلك الأسرة المنكوبة ، بإعمال عشرات من وسائل التعبير اللفظية والأسلوبية التى أفاض البلاغيون فى بيانها ، ومن بينها الحذف ، الذى سنركز عليه لنبيِّن شيئا من ملامح الإعجاز الأسلوبى العجيب الذى يتضمنه هذا الكتاب .

فالاستغاثة مما يكون باللسان وقد جرت فى القرآن فى مواضع ، حذف فيها جميعا ما تلفظ به فاعلها ، وهى ههنا كذلك ، وليس يعقل أن يكون قولهما: «ويلك آمن» من الاستغاثة ، حيث إنه حديث موجه منهما إلى ولدهما لا إلى الله ، وقد نص فى الاستغاثة على أنها لله ، وقد حمل بعض المفسرين الاستغاثة على الدعاء واستدل بحذف الجار للفظ الجلالة ، حيث إن الأصل

---

(١) الأحقاف ١٧ .

أن يقال (يستغيثان بالله) ، وسواء أكانت الاستغاثة كذلك أو على أصل وضعها ، فقد حذف من النص ما تلفظا به من الاستغاثة أو الدعاء .

هذا ، وقوله (ويلك آمن إن وعد الله حق) هو استئناف من قولهما بعد الفراغ من الاستغاثة ، ومعلوم من سياقه أنهما توجها به إلى ولدهما ، وليس فى الكلام ما يدل على هذا التوجه ، فعلم أنه قد حذف من السياق ما تقديره (يستغيثان الله ويقولان لولدهما ويلك آمن) ، وقد أفاد هذا الحذف والذى قبله إيجازا لاشك فى ذلك ، وحققا تناسبا أسلوبيا أيضا لا نشك فيه ، ولكن الأهم من ذلك من فائدة هذا الحذف وذاك ، تحقق ذلك الحضور المؤثر لدى المتلقى الذى تجسد أمامه مشهد الأبوين والابن ، وهما يستغيثان بالله ، ثم يلتفتان إلى ولدهما بالكلام الناطق المعبر بكل لفظة فيه دالة على شدة إيمانهما بالله الذى لم يكادا يفرغان من ضراعتهما إليه أن يهدى ولدهما ، وعلى خوفهما على هذا الولد برغم عقوقه وعناده- من سوء العاقبة .

وهكذا نرى أن حذف لفظ القول يبرز أمام أعيننا مشهد القائل وهو ينطق بالمقولة كأنه ماثل أمامنا ، مما يضاعف من تأثير تلك المقولة فينا ، كما أنه أفاد علاوة على ذلك فى هذا الموضع الالتفات – فى أثناء المشهد – من حديث الأبوين لربهما إلى حديثهما لولدهما دون أن ينص على ذلك ، وهذه أيضا من الدقائق المعجبة التى يعجز عنها كثير من أرباب صناعة الكتابة القصصية والمسرحية .

✵✵✵

ومن هذا القبيل أيضا ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنهُم أنِ امشُواْ وَاصبِروا عَلَىٰ ءَالِهَتِكم إنَّ هَـٰذا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى الْمِلَّةِ الآخِرة إنْ هَـٰذَا إلَّا اخْتِلاقٌ * أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيننا ﴾[1] .

---

(١) سورة ص : ٦ .

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَد ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ الحِكْمَةَ أَنِ اشكُر للَّهِ وَمَن يَشكُر فَإِنَّمَا يَشكُرُ لِنفسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾[1] .

ومنه قوله تَعالى: ﴿ لَو نَشَآءُ لَجَعَلنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلتُم تَفَكَّهُونَ . إِنَّا لَمُغرَمُونَ . بَل نَحنُ مَحرُومونَ ﴾[2] .

فالأسلوب القرآنى هنا يصف مواقف حدثت أو يمكن أن تحدث ، فينطق بما يقال فيها ، فى ثنايا وصف ما يجرى فيها ، فإذا الوصف والقول ممتزجان ، يؤازر كل منهما الآخر على إيضاح الصورة الكاملة ، لتستقر فى وعى السامع ، مرة بالوصف ومرة بالقول الناطق المعبر مستغنيا به عن الاستمرار فى الوصف أو زيادته عما هو عليه ، ويزيد عن مؤدى الوصف زيادة جليلة باحضار القائل ومثوله أمامنا كأننا نشهده ونسمعه وهو يردد مقالته هذه ، وقد ورد كثير من هذا القبيل فى مشاهد عالم الغيب ، حتى صار ظاهرة ملموسة فيه ، مما يؤكد لنا أنها مقصودة لأجل إعطاء تلك: الصور الغيبية قوة فى التصور والحضور تعين على إدراكها والتأثر بها ، بل وإيصالها إلى درجة من التأثير فى حس المتلقى والإلحاح على مشاعره ، تأكيدًا على المعنى الذى قصد القرآن إلى تحقيق الإيمان به وجعله من أسس صدق الإيمان لدى المسلمين . وشرطا من شروط ذلك الإيمان .

ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَت سَكرَةُ ٱلمَوتِ بِٱلحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنهُ تَحِيدُ ﴾[3] .

فهذا القول: ذلك ما كنت منه تحيد ، يلقى على المحتضر ويسمعه دون من حوله من الناس ، ولا يستطيع أن ينقل إليهم ما سمع ، ومثله قوله تعالى

---

(١) سورة لقمان : ١٢ .

(٢) سورة الواقعة ٦٥ - ٦٧ .

(٣) سورة ق ١٩ .

لفرعون إذ أدركه الغرق فأعلن إيمانه ﴿ ءآلْـٰٔنَ وَقد عَصيتَ قَبلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلمُفسِدِينَ ﴾[1] .

فهاتان الصورتان قريبتان من الصور الغيبية ، أو هما عتبتان من أعتاب الغيب ، قربتا إلى الأذهان باستعمال وسيلة الحضور التى ألفناها وهى إلقاء المقول ، مع حذف لفظ القول وضمير القائل .

وقوله تعالى ﴿ وَكُلَّ إنسَـٰنٍ أَلزمنَـٰهُ طَـٰٓئِرهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخرِجُ لَهُ يَومَ القِيـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلقَـٰهُ مَنشُورًا . آقرَأ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفسِكَ ٱليَومَ عَلَيكَ حَسِيبًا ﴾[2] . وقوله: ﴿ لَا يَحزُنُهُمُ ٱلفَزَعُ ٱلأَكبَرُ وَتَتَلَقَّـٰهُمُ ٱلمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَومُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُم تُوعَدُونَ ﴾[3] من هذا القبيل ولنا معه وقفة فيما بعد .

وهذا الذى عرضنا له ليس مجرد مجموعة من مشاهد الوصف الناطق المفردة فى القرآن ، وإنما هى ظاهرة منتشرة فى أرجائه ، ولها فوق عملها الموصوف آنفا دلالات أخرى ليس من اليسير الإحاطة بأسرارها دفعة واحدة ، ويكفى هنا أن نوضح إحدى هذه السمات ، مؤكدين على الوصف الذى قدمنا لها به ، من أنها أشبه ما تكون بصورة ملونة حية معبرة فى صفحة تعريف بالموصوف ، تحمل من الدلالة عليه أكثر مما تحمل الأوصاف المجردة المصاحبة لها .

***

---

(١) سورة يونس ٩١ .

(٢) سورة الإسراء ١٣ - ١٤ .

(٣) سورة الأنبياء : ١٠٣ .

الفصل الثانى

التكثيـــف
والإسقــاط
والـحضور

أ – على الرغم مما يكتنف محاولة تتبع العلاقات الأسلوبية وما تدل عليه من علاقات فى المضامين ، نجد أن محاولة الكشف عن أسرار هذه العلاقات فى القرآن ، ولاسيما فى المحذوفات والمذكورات ، أوضح ما يكون فى أسلوب القرآن الكريم ، وإن غفل عنها أو أغفلها من قبل كثير من العلماء .

ولقد توقفت طويلا أمام سورة هود أراجع أساليبها ، حتى سمحت لى ببعض أسرارها وفتحت لى مغاليقها ، بتمكنى من تتبع طرائق التعبير فى قصصها من جهة ، وعلاقة هذه الأساليب بموضوع السورة وفاتحتها من جهة أخرى ، وما وراء هذا وذاك من علاقات أخرى فيما يناظرها من آى القرآن الكريم وسوره .

والسورة عامرة بمواضع الحذف ، ولاسيما حذف لفظ القول ، لا فى قصصها فحسب وإنما فى فاتحتها أيضا التى جاءت مناظرة فى أكثر ألفاظها لفاتحة أولى قصصها وهى قصة نوح ، ثم سارت بقية قصصها على نهج واحد اختصت به فى تكثيف الحوار على النحو التالى:

١ – ﴿ الر كِتَٰبٌ أُحكِمَت ءَايَٰتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت مِن لَّدُن حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلَّا تَعبُدُواْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنِ ٱستَغفِرُواْ رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤتِ كُلَّ ذِى فَضلٍ فَضلَهُ وَإِن تَوَلَّواْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيكُم عَذَابَ يَومٍ كَبِيرٍ . إِلَى ٱللَّهِ مَرجِعُكُم وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ ﴾ [هود ١–٤] .

٢ – ﴿ وَلَقَد أَرسَلنَا نُوحًا إِلَىٰ قَومِهِۦٓ إِنِّى لَكُم نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَن لَّا تَعبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيكُم عَذَابَ يَومٍ أَلِيمٍ . فَقَالَ ٱلمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَومِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُم أَرَاذِلُنَا

بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُم عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَل نَظُنُّكُم كَـٰذِبِينَ . قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءيْتُم إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَـٰنِى رَحْمَةً مِّن عِندِهِ فَعُمِّيَت عَلَيْكُم أَنُلزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ . وَيَـٰقَوْمِ لآ أَسْءَلُكُم عَلَيهُ مَالًا إِن أَجرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِم وَلَـٰكِنِّى أَرَاكُم قَوْمًا تَجهَلُونَ . وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُم أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . وَلَا أَقُولُ لَكُم عِندِى خَزَآئِنُ ٱللهِ وَلَا أَعلَمُ ٱلغَيبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزدَرِى أَعيُنُكُم لَن يُؤتِيَهُمُ ٱللهُ خَيرًا ٱللهُ أَعلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ إِنِّى إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [هود ٢٥ – ٣١] .

٣ – ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخاهُم هُودًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّن إِلَـٰهٍ غَيرُهُ إِن أَنتُم إِلَّا مُفتَرُونَ . يَـٰقَوْمِ لَا أَسْئَلُكُم عَلَيهِ أَجرًا إِن أَجرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى أَفَلَا تَعقِلُونَ . وَيَـٰقَوْمِ ٱستَغفِرُواْ رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيهِ يُرسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيكُم مِّدرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُم وَلَا تَتَوَلَّواْ مُجرِمِينَ ﴾ .

[هود ٥٠ – ٥٢]

٤ – ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخاهُم صَـٰلِحًا قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّن إِلَـٰهٍ غَيرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلأَرضِ وَٱستَعمَرَكُم فِيهَا فَٱستَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ . قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَد كُنتَ فِينَا مَرجُوًّا قَبلَ هَـٰذَآ أَتَنهَـٰنَآ أَن نَّعبُد مَا يَعبُدُ ءَابَآؤُنَا وإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدعُونَآ إِلَيهِ مُرِيبٍ . قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيتُم إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءاتَـٰنِى مِنهُ رَحمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن عَصَيتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيرَ تَخسِيرٍ . وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُم ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأكُل فِى أَرضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأخُذَكُم عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾

[هود ٦١ – ٦٤]

٥ – ﴿ وَلَقَد جَآءَت رُسُلُنَآ إِبرَٰهِيمَ بِالبُشرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا قال سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود ٦٩] .

٦ - ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرٰهِيمَ ٱلرَّوعُ وَجَآءَتهُ ٱلْبشرَىٰ يُجٰدِلُنا فِى قَومِ لُوطٍ ... إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ . يٰإِبْرٰهِيمُ أَعرِض عَن هٰذَآ إِنَّهُ قَد جَآءَ أَمرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُم ءَاتِيهِم عَذَابٌ غَيرُ مَردُودٍ ﴾ [هود ٧٤ - ٧٦] .

٧ - ﴿ وَإِلَىٰ مَديَنَ أَخاهُم شُعَيبًا قَالَ يٰقَومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ وَيٰقَوْمِ أَوفُواْ ٱلمِكيَالَ وَٱلمِيزَانَ بِٱلقِسطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاس أَشيَآءَهُم وَلَا تَعْثَواْ فِى ٱلأَرضِ مُفسِدِينَ . بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيرٌ لَّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤمِنِينَ وَمَآ أَنَا عَلَيكُم بِحَفِيظٍ . قَالُواْ يٰشُعَيبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّترُكَ مَا يَعبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَو أَن نَّفعَلَ فِى أَموٰلِنَا مَا نَشٰؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ . قَالَ يٰقَومِ أَرَءَيتُم إِنْ كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُم إِلَىٰ مَآ أَنهٰكُم عَنهُ إِن أُرِيدُ إِلَّا ٱلإِصلٰحَ مَا ٱستَطَعتُ وَمَا تَوفِيقِى إِلَّا بِٱللهِ عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَإِلَيهِ أُنِيبُ . وَيٰقَومِ لَايَجرِمنكم شِقَاقِى أَن يُصِيبَكُم مِّثلُ مِآ أَصَابَ قَومَ نُوحٍ أَو قَومَ هُودٍ أَو قَومَ صٰلِحٍ وَمَا قَومُ لُوطٍ مِنكُم بِبَعِيدٍ . وَٱستَغفِرُواْ رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يٰشُعَيبُ مَا نَفقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وإِنَّا لَنرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَولَا رَهطُكَ لَرَجمنٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَينَا بِعَزِيزٍ . قَالَ يٰقَومِ أَرَهطِى أَعَزُّ عَلَيكُم مِّنَ اللَّهِ وَٱتَّخذتُمُوهُ وَرَآءَكُم ظِهرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعمَلُونَ مُحِيطٌ . وَيٰقَومِ آعمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُم إِنِّى عٰمِلٌ سَوفَ تعلَمُونَ مَن يَأتِيهِ عَذَابٌ يُخزِيهِ وَمَن هُوَ كٰذِبٌ وَٱرتَقِبُواْ إِنِّى مَعَكُم رَقِيبٌ . وَلَمَّا جَآءَ أَمرُنَا نَجَّينَا شُعَيبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرحَمةٍ مِنَّا وَأَخذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيحَةُ فَأَصبَحوُاْ فِى دِيٰرِهِم جٰثِمِينَ ﴾ [هود ٨٤ - ٩٣] .

٨ - ﴿ لَقَد أَرسَلنَا نُوحًا إِلَىٰ قَومِهِ فَقَالَ يٰقَومِ آعبُدُواْ ٱللَّهَ مَالَكُم مِّن إِلٰهٍ غَيرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيكُم عَذابَ يَومٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف ٥٩] .

٩ - ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُم هُودًا قَالَ يَـٰقَومِ ٱعبُدُواْ ٱللَّهَ مَالَكُم مِّن إِلَـٰهٍ غَيرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف ٦٥] .

١٠ - ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُم صَـٰلِحًا قَالَ يَـٰقَومِ ٱعبُدُواْ ٱللهَ مَالَكُم مِّن إِلَـٰهٍ غَيرُهُ قَد جَآءَتكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُم هَـٰذِهِ نَاقَةُ ٱللهِ لَكُم ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأكُل فِي أَرضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأخُذَكُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .
[الأعراف ٧٣]

١١ - ﴿ وَلُوطًا إِذ قَالَ لِقَومِهِ أَتَأتُونَ ٱلفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف ٨٠] .

١٢ - ﴿ وَإِلَىٰ مَديَنَ أَخَاهُم شُعَيبًا قَالَ يَـٰقَومِ ٱعبُدُواْ ٱللهَ مَالَكُم مِّن إِلَـٰهٍ غَيرُهُ قَد جَآءَتكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوفُواْ ٱلكَيلَ وَٱلمِيزَانَ وَلَا تَبخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشيَآءَهُم وَلَا تُفسِدُواْ فِي ٱلأَرضِ بَعدَ إِصلَـٰحِهَا ذَٰلِكُم خَيرٌ لَّكُم إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ ﴾ [الأعراف ٨٥] .

١٣ - ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤمِنٌ مِّن ءَالِ فِرعَونَ يَكتُمُ إِيمَـٰنَهُ أَتَقتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللهُ وَقَد جَآءَكُم بِٱلبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُم وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبكُم بَعضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُم إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهدِى مَنْ هُوَ مُسرِفٌ كَذَّابٌ . يَـٰقَومِ لَكُمُ ٱلمُلكُ ٱليَومَ ظَـٰهِرِينَ فِي ٱلأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأسِ ٱللهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرعَونُ مَآ أُرِيكُم إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهدِيكُم إِلا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ . وَقَالَ ٱلَّذِى ءَامَنَ يَـٰقَومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيكُم مِثلَ يَومِ ٱلأَحزَابِ . مِثلَ دَأبِ قَومِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِن بَعدِهِم وَمَا ٱللهُ يُرِيدُ ظُلمًا لِّلعِبَادِ . وَيَـٰقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيكُم يَومَ ٱلتَّنَادِ . يَومَ تُوَلُّونَ مُدبِرِينَ مَالَكُم مِنَ ٱللَّهِ مِن عَاصِمٍ وَمَنْ يُضلِلِ ٱللهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ . وَلَقَد جَآءَكُم يُوسُفُ مِن قَبلُ بِٱلبَيِّنَـٰتِ فَمَازِلتُم فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلتُم لَن يَبعَثَ ٱللهُ مِن بَعدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُ ٱللهُ مَن

هُوَ مُسرِفٌ مُّرتابٌ . ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِي ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيرِ سُلطَـٰنٍ أَتَـٰهُم كَبُرَ مَقتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ يَطبَعُ ٱللهُ عَلَىٰ كُلِ قَلبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ . وَقَالَ فِرعَونُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ آبنِ لِي صَرحًا لَّعلِّي أَبلُغُ ٱلأَسبَـٰبَ . أَسبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَـٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِنَ لِفِرْعَونِ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عِنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيدُ فِرعَونَ إِلَّا فِي تَبَابٍ . وَقَالَ ٱلَّذِى ءَامَنَ يَـٰقَومِ ٱتَّبِعُونِ أَهدِكُم سَبِيلَ ٱلَّرشَادِ . يَـٰقَومِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلحَيَوٰةُ ٱلدُّنيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلأَخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلقَرَارِ . مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجزَىٰ إِلَّا مِثلَهَا وَمَن عَمِلَ صَـٰلِحًا مِن ذَكَرٍ أَو أُنثَىٰ وَهوَ مُؤمِنٌ فَأُوْلَـٰئِكَ يَدخُلُونَ ٱلجَنَّةَ يُرزَقُونَ فِيهَا بِغيرِ حِسابٍ . وَيَـٰقَومِ مَالِي أَدعُوكُم إِلَى ٱلنَّجَـٰوةِ وَتَدعُونَنِي إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [غافر ٢٨ - ٤١] .

فالذى بين هذه المقتطفات ليس مجرد تقارب فى الألفاظ أو المعانى وتكرار بعض المضامين القصصية ، وإنما هو أمر أبعد من ذاك وأدق وأكثر وعورة من أن نخوض فيه على عجل ، فإن طرائق التعبير إذا تشابهت فإنما تريد أن توجه السامع إلى ما وراء هذا التشابه ، ولا سيما فى الفن القصصى الذى يستقى نماذجه دائما من واقع حياة البشر ، فيكون دائما محملاً بالنموذج الذى يساق فى مناسبة معينة فى صورة معادل موضوعى لمجريات حياة البشر ، وتجرى عملية إسقاط تلقائية لدى المتلقين بين الموضوعين ، وهكذا الرمز أيضا ، ولكن لابد من وضع علامات لهذه المعادلة ليتم الإسقاط على النحو الذى يتغياه مؤلف القصة ، وهذه العلامات إما من الأحداث وإما من الاشخاص وإما من الأماكن والأزمان وإما من الأسلوب ، وها نحن نرى بين أيدينا شاهداً حيا على ذلك من أسلوب القرآن الكريم .

وإنه لمن اليسير فى ضوء ذلك تبين العلاقة بين طريقة افتتاح سورة هود بقوله تعالى ﴿ الر كِتَـٰبُ أُحكِمَت ءَايَـٰتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُن حَكِيمٍ خَبِيرٍ .

أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ .

ومجيء بداية حديثه فى هذه السورة نفسها عن قصة نوح وهى أولى قصصها على النحو التالى : **﴿ ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾** .

حيث افتتحت السورة بحديث على لسان الرسول لا نظير له فى القرآن اللهم إلا ما ورد فى أوله الأمر (قل) ، وهو ما ينبغى تقديره هنا ، وليس من قبيل المصادفة أن يأتى افتتاح قصة نوح على هذا النحو بحديث مرسل على لسان نوح حذف من صدره لفظ القول[1] الذى ينبغى تقديره أيضا تماما كسابقه ، يضاف إلى ذلك ما بين الحديثين من تشابه فى المضمون وفى الألفاظ ! . وفى السورة أيضا آيات توجه الخطاب فيها إلى الرسول . وفيها آيات تتحدث عن الذين كذبوه . وفيها آيات تتحدث عن التحدى بالقرآن . وفيها آيات تتحدث عن العذاب المنتظر للكافرين .وفى قصصها نظير كل ذلك فى الأمم الخالية ورسلها . ولكن فى السورة قصصًا أخرى لم تجر فواتحها على ما جرت عليه فاتحة قصة نوح وفاتحة السورة ، وإنما جرت على نسق واحد

---

(١) هذا على قراءة (إني) مكسورة الهمزة وهى قراءة عامة قراء الكوفة وبعض المدنيين ، على وجه الابتداء ، لما فى الإرسال من معنى القول . والقراءة الأخرى لبعض أهل المدينة والكوفة والبصرة على معنى الإرسال فيها ، كأن معنى الكلام عندهم : لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه بأنى لكم نذير مبين . (الطبرى جـ١٢ /٢٦) . وعند غيره أن التأويل أرسلناه ملتبسا بهذا الكلام وهو قوله (أنى لكم نذير مبين) فلما اتصل به حرف الجر – بعد حذف « هذا الكلام وهو قوله » وصار بأنى – فتح كما فتح فى كأن . (الرازى ١٢ /٢١٩) وعليهما ففى الكلام محذوف قول بقيت همزة إن على كسرها فى قراءة ، وفتحت فى أخرى . وانظر الكشاف ٢ /٣٨٧ .

مطرد كأنه حلقات متتابعة تالية للحلقة الأولى من العرض ، وهى قصة نوح ، حيث نراه بعد فراغه منها يقول: «وإلى عاد أخاهم هودًا قال يا قوم اعبدوا الله ، فلما فرغ من عاد قال: «وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله» ، ثم اتبعها بطرف من قصة إبراهيم ولوط اختلف فيه الموضوع ، ولكن الأداة التعبيرية باقية حيث قال: «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام» ثم عاد بعدها إلى قصص الأنبياء على الوتيرة نفسها فى قوله ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله** ﴾ . حيث أتم به هذا التسلسل الذى نلاحظ أن شعيبا قد ذكره فى ثنايا حديثه ومجاجحته لقومه على ترتيبه السابق فى السورة ، فى قوله تعالى على لسانه﴿ **ويا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ .

ولم يرد بعد ذلك فى السورة إلا طرف من قصة موسى جاء سردًا لا يتخلله أى محاورة ، وهو من المواضع النادرة بالنسبة لقصة موسى التى يتخللها أطول المحاورات القصصية فى القرآن الكريم ، ولكنها هنا جاءت على خلاف ذلك ، كما خالفت ما قبلها من القصص حيث بدأت هكذا ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملائه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد** ﴾ .

وعلى هذا النمط تمضى قصة موسى موجزة بلا مشاهد أو محاورات ، على العكس مما فى القصص الخمس السابقة عليها فى السورة ،تلك المحاورات التى اتبعت أيضًا نمطًا منفردًا بين محاورات القرآن ، لم يناظرها إلا موضعان فى طريقتها انفرد كل منهما بخصيصة ، ولم تجتمع تلك الخصائص إلا فى هذه السورة .

فأما الخصيصة الأولى فهى ما أشرنا إليه من طريقة افتتاح المحاورة فى

المواضع المشار إليها ، وهذه جرت عليها فواتح القصص ذاتها فى سورة الأعراف ، غير قصة نوح التى انفردت عن رفيقاتها فى السورتين بطريقة اختلفت فى كل مرة ففى الأعراف قال تعالى: ﴿ **لقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ وفى هود قال ﴿ **ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إنى لكم نذير مبين** ﴾ والموضع الأول دال على ما حذف من الثانى ، أما سائر القصص فى الأعراف فجرت على النحو التالى ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ، وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدوا الله ، ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ، وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله** ﴾ حيث اتحدت فواتح القصص الثلاث لعاد وثمود ومدين معا ومع نظائرها فى سورة هود ، والتى خالفت أخواتها فى سورة هود وهى قصة لوط ، كذلك خالفت أخواتها فى سورة الأعراف وكذلك جاءت قصة موسى عقب هذه القصص .

إن هذه الصورة التى افتتحت بها القصص فى المواضع السبعة من السورتين وهى التقديم بكلمات قليلة ثم الشروع فى المحاورة مباشرة ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودًا قال:-** ﴾ تركت دون تعليل من المشتغلين بعلوم القرآن ، ولابد أن لها علة لأن أساليب القرآن ليست عبثًا . ولابد من الإجابة عن هذا السؤال: لماذا جاء الأسلوب على هذا النمط «قال» ولم يجىء ككثير غيره «ولقد أرسلنا- إلى قومه فقال يا قوم» كما جاءت فى أول الأعراف مثلًا قبل هذه المواضع ؟

فإذا أضيفت الخصيصة الثانية فى محاورات سورة هود إلى هذه الخصيصة ، زادت حاجتنا إلى تفسير هذا النمط من الأساليب والبحث عن علته ،وهذه الخصيصة لا نظير لها فى القرآن إلا فى موضعين ، أحدهما قصد به التحول من مخاطب إلى آخر دون قطع الخطاب بوصف حركة التحول ، وهو ما وقع فى قوله تعالى ﴿ **قال أخرج منها مذء وما مدحورًا لمن تبعك منهم**

لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة ﴾[1] .

حيث جعل الواو مع النداء دليلًا على تحول الخطاب من إبليس إلى آدم دون حاجة إلى اعتراض المحاورة بالتدخل بالإشارة إلى هذا التحول

والموضع الآخر فى سورة غافر حيث جاء الكلام على لسان الرجل المؤمن من آل فرعون فى قوله تعالى **﴿ ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ﴾** وقوله **﴿ وياقوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ﴾**[2] . وهذا خلاف سابقه حيث إن الحديث فى الأول توجه بالنداء بعد الواو لغير المخاطب قبلها ، أما هنا فالمخاطب واحد بالنداءات كلها ، وكذلك هنا فى سورة هود فقد جرت المحاورة كلها فى سائر القصص بما فيها قصة نوح على هذا المنوال حيث يتوجه النبى منهم إلى قومه بحديث يدلى فيه بحججه الواحدة تلو الأخرى ويعطف بعضها على بعض بقوله «يا قوم» فى مواضع معينة من هذه القصص ، وهو ما لم يحدث فى نظائرها فى سورة الأعراف أو غيرها ! فما معنى كل ذلك ؟

أليس معناه أن السورة من القرآن ليست مجموعة من المعانى المنفصل بعضها عن بعض ، وإنما هى بناء متكامل تنتظمه وحدة عضوية من نوع فريد ، ألهانا عن أن نستكشفها انكبابنا على الصور والمعانى الجزئية ؟ !

لقد أدرك سيد قطب رحمه الله تلك العلاقة الموضوعية التى تنتظم السورة ولا سيما فيما بين موضوعها وقصصها ،وأشار إلى المقاربة المقصودة فى الألفاظ والمعانى بين ما جاء على لسان النبى فى فاتحتها وما جاء على لسان نوح ، يدعو به قومه وينذرهم فى مطلع قصته **﴿ ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾** ،

---

(١) سورة الأعراف ١٧ – ١٨ .

(٢) سورة غافر ٣٢ ، ٤١ .

كما أدرك رحمه الله أن حذف لفظ القول هنا مقصود من التعبير القرآنى لإحياء المشهد حتى يصير كأنه واقعة حاضرة لا حكاية ماضية وكأنه يقوله لهم الآن ونحن نشهد ونسمع[1] ، وهاتان الدقيقتان هما مفتاح البناء الفنى لحبكة هذه السورة كما هما مفتاح البناء الموضوعى ، بقى أن نعمل على ربط أجزاء هذه الحبكة وإكمال الصورة على النحو الذى نتصوره .

فالبناء الموضوعى للسورة يهدف إلى إيضاح رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وهى عبادة الله وتوحيده ، وإنذار من لا يؤمنون بهذا بالعذاب الأليم ويتخذ من قصص الأنبياء السابقين والأمم السابقة مثالًا على صدق هذه الدعوة ، وهذا النذير ، فجاءت الأمثلة محاذية تماما من جهة الموضوع للهدف الأصلى من السورة ، فأضافت إضافة جديدة إلى السورة وهى أن المحاذاة التامة من القصة المتمثل بها لقصة النبى مع قومه تدله على ما سيؤول إليه أمره وأمر من يكذبونه ويعاندونه ويكفرون بما أرسل به ، وهو نفسه مصير الأمم التى كذبت آنفًا ، فيكون أثر القصة بردًا وسلامًا وتثبيتًا له ، فى مواجهة كيد أعدائه ، وهو كذلك إلى يوم الدين لكل من يدعون إلى الحق والخير والعدل فى هذه الحياة الدنيا .

ولأجل أن تتحقق هذه الغاية الموضوعية وجدنا السياق يضع بعض العلامات الدالة على هذه المحاذاة قاصدًا بها تنبيه السامعين إلى أن هذا نظير ذاك فى مقدماته ، فهو نظيره أيضًا فى نتائجه ، أى أن الذى يسمع محمدًا وهو يقول فى السياق القرآنى ما جاء فى أول السورة «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله اننى لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه . يمتعكم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير» ثم يسمع

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٤ ص١٨٧١ .

نوحًا وهو يردد مثل هذه المقالة فيما بعد ، لا فى موضوعها وألفاظها فحسب وإنما فى طريقة الأداء والعرض التى أشرنا إليها سابقًا وهى ذلك الحضور الذى يؤدى إليه حذف لفظ القول ، من كلتا الآيتين؛ ،يدرك أن مصير من يكذبونه هو ما صار إليه من كذبوا نوحًا من قبل .

ثم إن قصص الأنبياء من ورائها ليست شيئًا منفصلًا فى وحدات مستقلة وإنما هى جميعًا أجزاء من عرض واحد متواصل ، ذلك العرض الذى بدأ بقصة نوح ، وما حذف منها من لفظ القول قصدًا إلى الحضور الموحى بأن المشاهد الآتية تعرض على السامعين كأنها وقائع حية حاضرة يسمعونها ويرونها ، وأن دور الراوى فيها لا يزيد عن التقديم بالعبارة المقتضبة الموجزة ﴿ **ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه** ﴾ فى الأول ، ثم تزداد اقتضابًا فى القصص التالية «وإلى – أخاهم– قال» . فهذا الأسلوب كما بينا يتمم التصور المطروح للسورة بأنها كالعرض الحى لمشاهد من قصص الأنبياء لتحقيق الهدف الموضوعى من السورة . ولأن الصور التالية للصورة الأولى من هذه المشاهد تابعة لها استغنى النص عن استعمال طريقة الحذف للفظ القول فيها مكتفيًا بالأول مع الدلالة فى كل منها على تلك الرابطة بين هذه الصور جميعًا ، سواء باتحاد الموضوع واللفظ أم بالعطف على السابق أم بحذف ما يدل عليه السابق من اللاحق ، فمعلوم أن قوله ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودًا** ﴾ معناه: ولقد أرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا حذف منه ما يفهم من سياق ما جرى العطف عليه ، وهو قوله قبله ﴿ **ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه** ﴾ .

فإذا ما توغلنا فى أعماق تلك المشاهد تجلت لنا الخصيصة الأخرى فى عرض تلك المحاورات التى تخللتها ، وهى التى تجلت فى عطف النداء على النداء فى خطاب الأنبياء لقومهم وحذف لفظ القول من كثير من المحاورات بهدف تكثيف الحوار ، أى أن ما عرض ليس محاورة واحدة جرت فى موقف

واحد ، وهذا ليس كما قد يتبادر إلى الأذهان أنه عكس ما نصفه من أن السورة حولت القصص إلى ما يشبه العرض ، حيث أن العرض للمشاهد من خلال الحوار المكثف يعد من أرقى العروض لما يمتاز به من قدرة على جمع المتفرقات فى الزمان والمكان والموضوع وتوصيلها إلى المتلقى فى صورة متكاملة تؤدى به إلى إدراك واع لأبعاد الموضوع .

وقد تحقق التكثيف المشار إليه[1] فى هذا الحوار بوسائل مختلفة وظهرت عليه أدلة لا يتطرق إليها الشك ، ففى قصة نوح مثلًا جرت المحاورة على النحو التالي:

نوح يدعو قومه: ﴿ **إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ .

. . . وقومه يتلقون دعوته بالتكذيب واللجاج «فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرًا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين» .

ثم يحاججهم نوح ويرد ادعاءاتهم: ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه مالًا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قومًا تجهلون . وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرًا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذًا لمن الظالمين** ﴾ .

قوم نوح ينهون الحوار معه: ﴿ **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا**

---

(١) راجع التمهيد الذى تصدر هذا الباب .

فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

ونوح ينصرف عنهم معلنًا يأسه منهم: ﴿ **قال إنما يأتيكم به الله وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون** ﴾ .

وبهذا تنقضى هذه المرحلة من القصة ، التى يتأكد لنا من السياق بعدها أنها ليست مجرد مشهد من مشاهد القصة أو محاورة تتصدرها ، وإنما هى أطول مراحل هذه القصة التى دامت ما يقرب من ألف سنة ، حيث إن المرحلة التالية كانت إيذانًا بانتهاء مرحلة التبليغ وانقطاع العذر ووقوع العذاب . ﴿ **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ . والمعلوم أن الأمر بالإهلاك فى قصة نوح لم ينزل إلا بعد مضى مئات من السنين ، قضاها نوح فى مرحلة التبليغ ، دون ملل ، حتى أعلن يأسه منهم وطلب من ربه إيقاع العذاب بهم وإهلاكهم .

وهذا دليل على أن المحاورة التى تصدرت القصة ليست محاورة عادية جرت فى وقت واحد ومكان واحد ، وإنما هى محاورة مكثفة من محاورات كثيرة جرت فى أزمان طويلة ، ولهذا قال الذين كفروا من قوم نوح ﴿ **قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾ فأين هذا الجدال الكثير ، وما هى إلا محاورة واحدة بدأت بالدعوة وانتهت بهذا القول ، إلا أن تكون المحاورة مكثفة كما ندعى ؟ ! وقد استعمل الأسلوب القرآنى وسائل متعددة لتحقيق هذا التكثيف ، منها:

– جمع الحجج وجمع الردود: حيث نلاحظ أن مقالة الكافرين قد ضمنت حججًا عديدة ، بعضها مترتب زمنًا وموضوعًا على بعض ما يرد به نوح عليهم بعد ، وكذلك ردود نوح عليهم جاءت مجموعة ومتعاقبة .

– اختصار حلقات من القصة والاكتفاء بالإشارة إليها فى المحاورة ، من

ذلك قولهم ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** ﴾ فهذا دليل على أن ثمة زمنا بين دعوته ووقت قولهم هذا تقاطر فيه على نوح جماعة أو جماعات من قومه أعلنوا إسلامهم ، هذا على الرغم من أن ظاهر المحاورة يتابع بين الدعوة والرد . وكذلك ورد فى كلام نوح ردًا عليهم قوله: ﴿ **وما أنا بطارد الذين آمنوا** ﴾ وهو يقتضى أن يكون الكفار قد طلبوا منه أن يطرد المؤمنين الفقراء إذا أراد أن يجلسوا إليه ويسمعوا له لئلا يجمعهم وإياهم مجلس واحد وليس فى كلامهم السابق ما يدل على هذا؛ فهذا وذاك من وسائل الاختصار فى الحدث والمحاورة من أجل التكثيف ، ويدل على هذا التكثيف أيضًا قولهم فى ختام المحاورة ﴿ **قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾والذى يظهر أمامنا محاورة واحدة ليس فيها جدال كثير ، وإنما هو قول منهم ورد منه عليه ، والجدال الكثير كان فى مرحلة زمنية طويلة بدأت بالدعوة وانتهت بالعذاب وكذلك هذه المحاورة ، فهى مكثفة على النحو الموصوف .

- ومن هذه الوسائل الحذف ، وهو كثير ولكننا نقتصر هنا على ما نحن بصدده . وهو حذف القول حيث اطرد فى قصة نوح وما بعدها استعمال أسلوب النداء للقوم مرات عديدة ، معطوفًا بعضها على بعض ، ولئن كان القصد بالنداء مجرد التنبيه ، فما الداعى للإتيان بالواو العاطفة قبل النداء فى بعض المواضع ؟ ، وقد كان يمكن أن يجيءالنداء بدونها ، وقد ورد هكذا فى مواضع من هذه السورة ، وورد كذلك فى غيرها !

- لقد استعملت هذه الطريقة بقصد بيان أن ثمة اختلافا من نوع ما بين ما بعدها ما قبلها ، فالعطف يقتضى المغايرة ، وإن كانت المغايرة هنا تختلف عن المغايرة التى قصدها النحويون ، فهى مغايرة فى الموقف والزمان والمكان ، وإن اتحد الموضوع بين السابق واللاحق أو ترابط وتمم بعضه بعضًا ، فالرابط المعنوى هنا وسيلة من وسائل التكثيف ، والموضوع الواحد كان يجرى النقاش حوله فى مواقف عدة لا فى موقف واحد ، فقوله ﴿ **ويا قوم** ﴾ عطف ما

قبله من قوله ، حيث قال تعالى ﴿ **قال يا قوم** ﴾ ، ولكن ما معنى أن أقول: يا محمد ويا محمد ، وأنا أقدر أن أقول: يا محمد يا محمد ، إلا أن يكون المقصود بالعطف عطف غير النداء ، كأن أقول يا محمد قم ويا محمد أخرج ، أو أعطف النداء قاصدًا أن أدخل عليه العامل فى النداء السابق وهو القول ، فيكون التقدير فى «ويا قوم» ، «وقال يا قوم» أى أن الواو قد جىء بها للدلالة على أن ثمة حذفا للقول . والتركيب كله بما فيه من الواو والنداء ، وتقدير لفظ القول يعطى إيحاء بأن ثمة اختلافا فى الموقف ، فإذا أضيف هذا إلى الدلائل الأخرى والوسائل الأخرى علم أنه وسيلة من وسائل جمع الأقوال والحجج ، وأيضًا وسيلة من وسائل تكثيف المحاورات والأحداث .

وثمة نوع آخر من حذف القول فى السورة ، جاء فى قوله تعالى: ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط . إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك** ﴾[1] . أى قالوا أو فقالت له الملائكة يا إبراهيم ، وهذا من القبيل الذى يؤدى إلى إحياء الحوار كما سبق .

وكل هذه الوسائل التعبيرية من سمعية وبصرية قد ساعدت على إخراج السورة فى صورة «عرض مركب» بجميع ما تحمل الكلمة من معنى ، حيث تعددت فيه المراحل الزمنية ، والأماكن ، والأشخاص ، والقصص ، بالإضافة إلى أنها بدأت بالمرحلة الأخيرة ثم رجعت بالعرض إلى أقدم الأزمان ثم كرت من جديد قدمًا مع ترتيب القصص وتعاقبها تاريخيًا .

– وهذا ينفى ما ادعاه بعض المغرضين من أن القرآن لم يراع الترتيب التاريخى فى قصصه[2] .

---

(١) سورة هود ٧٤ – ٧٦ .

(٢) الفن القصصى فى القرآن الكريم . محمد أحمد خلف الله : الفصل الخاص بالمعانى التاريخية ص٢٠ – ٦٢ .

ولأن الغاية من العرض إبراز صور شبيهة بالقصة الحالية الماثلة التى بدأت بها السورة ، وهى دعوة محمد صلى الله وسلم لقومه ، وبيان أن هذه الصور سارت فى طريق مواز لطريق دعوته بدءًا بالتكليف ، فالإرسال ، والتبليغ ، والتكذيب ، والبينة ، والإعراض والمبالغة فى العنت والمخالفة ، وانقطاع العذر والإهلاك ، فقد توافق بناء العرض مع هذا الغرض ، حيث قدم لناست قصص مرتبة زمنيًا ، جعل أولاها تتفق فى طريقة بدء العرض مع مطلع السورة أى مع القصة الأصلية ،لدعوة محمد ﷺ ، واستعمل فيها طريقة حذف لفظ القول إمعانًا فى الاستغراق فى العرض ، فأصبحنا بين اثنتين من الوسائل التعبيرية ، تشدنا كل منها فى اتجاه: **الأولى:** هذا التوافق بين مطلع السورة ومطلع قصة نوح وهو يؤدى حتمًا إلى الربط بين القصتين مما يدفع السامع إلى قياس جزئياتهما واستنباط خاتمة القصة الحالية إذا ما سارت كقصة نوح فى مجرياتها ، وهذا القياس يقع فى نفس السامع بدافع الإيحاء اللفظى وبدافع الملابسات الموضوعية ، وهو هنا أكثر وضوحًا منه فى قوله تعالى: ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله** . . . ﴾ ثم قوله بعدها ﴿ . . **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير** ﴾[1] . وإنْ كان تقارب الموضعين فى قصة لقمان يعين على إدراك المراد لأول وهلة ، أماهنا فإنه يحتاج إلى تنبه من السامع . وتفكر .

والثانية: حذف لفظ القول ، واستهلال القصة بكلام نوح مباشرة وهو كما بينا يعمل على الحضور أو استحضار المشهد والاستغراق فى العرض ، وكلتا الوسيلتين تعمل على جانب من أحاسيس الإنسان ومشاعره مما يجعله فى حالة توتر وترقب ، ومن أجل هذا تعود القصة فى وسط أحداثها إلى

---

(١) لقمان ١٢ - ١٤ .

أرض الواقع ، لتُذكِّر وتربط بالجو العام للسورة قبل أن تستأنف ما انتهى إليه الحال بين نوح وقومه بعد يأسه منهم ، حيث يقول تعالى ﴿ **أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون** ﴾[1] . وبنهاية هذه القصة نرى القصص التالية من بعدها ، تعرض تباعًا كأنها «لوحات» مسرحية فى عرض واحد متتابع ، وليس بينها من فاصل إلا قول معلق «وإلى عاد أخاهم هودًا– وإلى ثمود أخاهم صالحا– إلخ» كل ذلك بما تضمنه من وسائل سبق بيانها من أجل إخراج السورة متكاملة فى صورة عرض متكامل لأهم المراحل فى تاريخ البشرية ، وأخطرها ، وأصدقها حديثًا ، والسياق لا يفتأ يذكر فى ثنايا كل قصة أو بين كل قصتين بهذا وبعلاقته بما نحن بصدده من دعوة محمد ، حتى ينتهى بنا إلى قول ما زال يحير المفسرين تأويله حتى الآن ، وهو قوله تعالى ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾[2] . ولعل ما قدمنا فى شأن هذه السورة يحمل وجهًا لمعنى الحق الذى فيها ، والموعظة والذكرى كذلك .

وبتآزر كل هذه العناصر التى عرضنا لها يتأكد أن القرآن الكريم يستعمل من الأساليب فى عرض القصة ما يؤدى إلى إخراجها فى صورة عرض مثير وشائق ، له من وسائل تعزيز الإدراك لدى المتلقى ، وإرهاف حواسه ، وتحريك مشاعره ما يؤدى إلى تكامل عناصر التأثير ، ويكفل للقصة وللسورة من ورائها قمة الروعة التى يتقاصر دون إدراكها عتاة أرباب الأقلام من الخلق ، وبهذا يتحقق الإعجاز بأكمل معانيه وأجلاها .

***

---

(٢) سورة هود ٣٥ .

(١) سورة هود ١٢٠ .

ب - ويطرد هذا الأسلوب فى افتتاح المشاهد وفى سياقها بورود أقوال بعض أطرافها مرسلة ، غير مسبوقة بلفظ القول فى كثير من القصص القرآنى والأخبار ، وعلى هذا النحو الموصوف أنفًا ، مما يؤكد أن لحذف لفظ القول مهمة لا تقتصرعلى مجرد التخلص من لفظة ، ولكن لأن حذفها يعنى تجريد النص من علامة بارزة من علامات «الرواية» والقص ، أى تسلط الراوى والقاص على أسماعنا بتوجيهاته وتنبيهاته وتعليقاته وملاحظاته ووصفه للمشاهد والأحداث والأشخاص ، ونحن نعلم أن كل ذلك يرد فى القرآن الكريم بأوجز عبارة وأخصرها ، فإذا تبين لنا أن عشرات بل مئات من المواضع قد تكررت فيها ظاهرة حذف القول على هذا النحو ، فهى جزء لا يتجزأ من هذه الظاهرة لإسهامه فى إبراز المشاهد وتحديدها على ما وضحناه آنفًا ونوضحه بعد .
ومن هذه المواضع:

١ - ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلكِتَـٰبَ وَٱلحِكْمَةَ وَٱلتَّوراةَ وَٱلْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِأَيَةٍ مِن رَّبِّكُم أَنِّي أَخلُقُ لَكُم مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيئَةِ ٱلطَّيرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذنِ ٱللهِ وَأُبرِئُ ٱلأَكمَهَ وَٱلأَبْرَصَ وَأُحيي ٱلمَوْتَىٰ بِإذنِ اللَّهِ وَأُنَبِئُكُم بِمَا تَأكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بِيوتِكُم إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لأَيَةً لَّكُم إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ ﴾ [آل عمران ٤٨- ٤٩] .

٢ - ﴿ وَوَصَّىٰ بِهآ إِبرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيعقُوبُ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصطَفَىٰ لَكُمُ ٱلَّدينِ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسلِمُونَ ﴾ [البقرة ١٣٢] .

٣ - ﴿ فَإِن أَعرضُواْ فَقُل أَنذَرْتُكُم صَـٰعِقَةً مِثلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذ جَآءَتهُمُ ٱلرُّسُلُ مِن بَينِ أَيدِيهِم وَمِن خَلفِهِم أَلَّا تَعبُدُواْ إِلا ٱللَّهَ قَالُواْ لَو شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلَـٰئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرسِلتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ ﴾ [فصلت ١٣- ١٤] .

٤ - ﴿ وَمِن كُلِّ شَيءٍ خَلَقنَا زَوجَينِ لَعَلَّكُم تَذكَّرُونَ . فَفِرُّواْ إِلَى ٱللَّهِ

إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات ٤٩- ٥١] .

٥ - ﴿ الر كِتَـٰبٌ أُحكِمَت ءَايَـٰتُهُ ثُمَّ فُصِّلَت مِن لَّدُن حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلَّا تَعبُدُواْ إِلَّا ٱللهَ إِنَّنِى لَكُم مِنهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هود ١- ٢] .

٦ - ﴿ وَإِذ أَخذنَا مِيثَـٰقَكُم وَرَفَعنَا فَوقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَينَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسمَعُواْ قَالُواْ سَمِعنَا وَعَصَينَا وَأُشرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلعِجلَ بِكُفرِهِم قُل بِئسَمَا يَأمُرُكُم بِهِ إِيمَـٰنُكُم إِن كُنتُم مُّؤمِنِينَ ﴾ [البقرة ٩٣] .

٧ - ﴿ وَإِذ نَتَقنَا ٱلجَبَلَ فَوقَهُم كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعُ بِهِم خُذُواْ مَآ ءَاتَينَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف ١٧١] .

٨ - ﴿ فَلَمَّا رَأَوهُ عَارِضًا مُّستَقبِلَ أَودِيَتِهِم قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمطِرُنَا بَل هُوَ مَا ٱستَعجَلتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف ٢٤- ٢٥] .

٩ - ﴿ وَاذكُر عَبدَنَآ أَيُّوبَ إِذ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيطَـٰنُ بِنُصبٍ وَعَذابٍ . ٱركُض بِرِجلِكَ هَـٰذَا مُغتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرابٌ . وَوَهبنَا لَهُ أَهلَهُ وَمِثلَهُم مَّعَهُم رَحمَةً مِّنَّا وَذِكرَىٰ لِأُوْلِي ٱلأَلبَـٰبِ . وَخُذ بِيَدِكَ ضِغثًا فَٱضرِب بِهِ وَلَا تَحنَث إِنَّا وَجَدنَـٰهُ صَابِرًا نِعمَ ٱلعَبدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ .

[ص ٤١- ٤٤]

١٠- ﴿ وَجَعَلُواْ بَينَهُ وَبَينَ ٱلجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَد عَلِمَتِ ٱلجِنَّةُ إِنَّهُم لَمُحضَرُونَ . سُبحَـٰنَ ٱللهِ عَمَّا يَصِفُونَ . إِلَّا عِبَادَ ٱللهِ ٱلمُخلَصِينَ . فَإِنَّكُم وَمَا تَعبُدُونَ . مَآ أَنتُم عَلَيهِ بِفَـٰتِنِينَ . إِلَّا مَن هُوَ صَالِ ٱلجَحِيمِ . وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحنُ ٱلصَّآفُّونَ . وَإِنَّا لَنَحنُ ٱلمُسَبِّحُونَ ﴾ .

[الصافات ١٥٨- ١٦٦]

ففى هذه المشاهد يسيطر الحضور فى العرض المشهود ، من خلال إخلاء

ساحة العرض من المعلقين والواصفين وترك صاحب القول ينطق به ، مما يخيل للسامع أنه يراه عيانا ، وإن كان من المغيبات ، ككلام الله تعالى والملائكة ، أو على الأقل نستشعر أحاسيس من يلقى عليهم هذا القول كبنى إسرائيل إذ رفع فوقهم الطور ، وإن كنالا نرى القائل ، ومن هذه المشاهد ، ما يفيد الحذف فيه الانتقال عبر الزمان والمكان- كما سبق فى دراستنا هذه- بالإضافة إلى الحضور المجسم والعرض المشهود ، فضلًا عن المفاجأة التى تتحقق بوقوع الخطاب على نحو غير متوقع ، كما فى قوله تعالى: ﴿ **ورسولًا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم** ﴾[1] . والذى جعل الحديث فيه على لسان عيسى فجأة فى سياق الحديث عن قصة مريم ، بل ربما كانت المفاجأة مضاعفة ، لو قدرنا أن هذا الحديث هو ما جاء على لسان عيسى وهو فى مهده .

وكذلك فى قوله تعالى ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[2] . فنحن فى صدر الكلام مع إبراهيم عليه السلام وهو يوصى بنيه ، وفى عجزه مع يعقوب وهو يلقى وصيته على أولاده ويشدد عليهم .

وإن كانت «وصى» هنا تحمل شيئًا من معنى القول ، وكذلك نادى فى قوله ﴿ **وأيوب إذا نادى ربه** ﴾ ، فإن كثيرًا من الألفاظ التى تحمل معنى القول مثل: حلف- أقسم- أذَّن- نادى- أجاب- رد- دعا- أوحى- أستنبأ- كلم- أنذر- سأل- شهد- تفكر- تخافت- عهد- استغفر- استغاث . قد ورد فى القرآن مشفوعًا بالقول تارة ومقطوعًا عنه تارة أخرى ، ولنا أن نقدر فى المقطوع الحذف حين يستدعى السياق ذلك كما فى قوله تعالى

---

(١) آل عمران ٤٩ ، وقد سبق تحليله فى الفصل السابق .
(٢) البقرة ١٣٢ .

﴿ **ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا** ﴾ وقوله بعده ﴿ **ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلي** ﴾[1] .فلا شك أن ثمة فرقًا بين القول الأول الذى نادى به نوح ولده دون أن يدخل فى السياق لفظ القول والثانى الذى نادى به ربه ، فأدخل فى السياق لفظ القول مسبوقًا بالفاء ، وهذه من المسائل التى تؤكد هذه الدراسة على وجوب درسها وتعقبها فى القرآن الكريم .

وعلى كل فإن حذف لفظ القول كثير فى مشاهد القرآن ، حتى فى الصور المجردة من القصص- أى التى لا تتناول أشخاصًا محددة أو زمانًا أو مكانًا محددين أو تتناول أكثر من شخص وتصدق عليهم- نرى هذا الأسلوب فى افتتاح المشاهد المجملة التى تفصل بعد ، كما فى قوله تعالى﴿ **إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء الله لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾[2] . وكثيرًا ما يأتيك فى الأسلوب القرآنى كلام على لسان أشخاص من البشر أو من عالم الغيب ، على غير توقع ، ويقع هذا فى السياق القرآنى فى القصة وغيرها ، فهذا الذى جاء فى صدر سورة هود ، له نظير فى الأسلوب القرآنى ، كالذى فى قوله تعالى ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهًا آخر إنى لكم منه نذير مبين** ﴾[3] فقد اعترض فجأة فى ثنايا كلام الله تعالى ، بكلام على لسان النبى ﷺ ، مفاجىء ليحدث أثر المفاجأة المباغته تنبيهًا للسامعين ، يكاد يدفع الواحد منهم ليلتفت حوله باحثًا عمن قال هذا مذكرًا إياه بالنبوة الحق ، وبما جاءت به من النذر .

---

(١) سورة هود ٤٢ ، ٤٥ .

(٢) سورة فصلت ١٤ .

(٣) سورة الذاريات ٥٠ - ٥١ .

وهذا الموضع كما نرى نظير ما جاء فى أول سورة هود ، غير أنه لم يتصدر السورة التى هو فيها ، فكلاهما اسند الحديث إلى النبى ﷺ ، يتوجه به للناس ، وكأن منزل القرآن يسجل مقالته للناس لتكون مبلغة لكل من يجيء من البشر بعد عهد النبوة ، هذا المراد فى المعنى ، أما البناء الفنى للنص ، فإنه هنا يستعمل مقام الخطابة ، كما استعمل فى غيره مقام العرض المشهود ، حيث أقام الرسول أمامنا خطيبًا يلقى علينا كلماته تلك يبلغنا بها دعوته ، ولم يقدمه لنا بمقدمة تجعل الأمر مألوفًا ، وإنما أقامه فجأة أمامنا يتكلم بلسانه ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير** ﴾[1] ولكن القوم لايلتفتون إليه ولا يتأثرون بدعوته فيستوجب ذلك الموقف التحول من الخطابة إلى العرض المشهود ليريهم نماذج مشابهة لحاله وحالهم ، فيسرد القصص على النحو المذكور آنفًا .

أما فى موضع الذاريات فقد أقام منزل القرآن النبى خطيبًا يلقى على الناس تحذيره ﴿ **ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ولا تجعلوا مع الله إلهًا آخر إنى لكم نذير مبين** ﴾ بعد أن أقام العرض المشهود لقصص بعض النبيين ، فى مقام تذكير .

ومن هنا يتبين لنا أن اختلاف أساليب القول فى القرآن الكريم واختلاف أسلوب الخطاب يمكن أن يكون ناشئًا من اختلاف المقامات التى يضع منزل القرآن أساليب القرآن عليها ، فمقام الحديث المباشر غير مقام الوصف غير السرد غير العرض غير الخطابة . . وهكذا ، وهذه من الأمور التى يمكن أن تحل لنا كثيرًا من معضلات القرآن وأساليبه التى أعرض عن الخوض فيها

---

(١) سورة هود ٢ - ٤ .

جلة المشتغلين بعلوم القرآن إلى الآن .

والأكثر من هذا أننا نجد من تكليم الله تعالى لعباده فى الحياة الدنيا ما يشبه ذلك من المفاجأة بالخطاب مع حذف مقدماته المعهودة من قول وغيره ، وهذا كثير ، منه قوله تعالى: ﴿ **ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا** ﴾[1] . ونظيرتها ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾[2] . وقوله ﴿ **فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا . بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها** ﴾[3] ، وكذلك فى تكليم الله تعالى لأيوب المبتلى الصابر على البلاء ، حيث نسمع صوتًا من الغيب يجيب نداءه مبشرًا أياه برفع البلاء ، مرشدًا إياه إلى ما ينبغى له عمله ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب . اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب . وخذ بيدك ضغثًا فاضرب به ولا تحنث** ﴾[4] . وهذا الذى قيل لأيوب وحى ألقى إليه بطريقة ما ، فقطْعُه عن القول يؤدى إلى إدراك أنه وحى ، من جهة ، ومن جهة أخرى يحقق هذا الحضور فى المشهد الذى يجعلنا نعيش معه تلك اللحظات الحاسمة فى حياته ، وتصور كيف ارتفع البلاء عنه ، وكيف بر بيمينه ولم يحنث مع امرأته الوفية- عديمة النظير فى وفائها- التى لا تستحق منه إلا الخير جزاء صبرها معه على البلاء .

وكذلك ينقلنا القرآن على هذا النحو المفاجىء إلى ملكوتات لا ندرى

---

(١) البقرة ٩٣ .

(٢) الأعراف ١٧١ .

(٣) سورة الأحقاف ٢٤ - ٢٥ .

(٤) سورة ص ٤١ - ٤٤ .

عنها شيئًا ولا يحيط بها زمان أو مكان أو أشخاص ، لنسمع من خلق الله تعالى من يرد عنه فرية الذين افتروا عليه ﴿ **وجعلوا بينه وبين الجنة**[1] **نسبًا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم . وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون** ﴾[2] . فإذاحَضَرَنا هؤلاء الخلق الذين لا قبل لنا بإدراكهم بأى حاسة مما تسلحنا به فى حياتنا الدنيا ، وسمعناهم بآذاننا وهم يردون تلك الفرية ، فلن تكون ثمة وسيلة أجدى منها فى دحض ما ادعاه الكفار واعتقدوه بعقولهم القاصرة . وكل هذا تحقق باستعمال القرآن تلك الوسيلة «الحرفية» على هذا النحو الفريد[3] .

ويتكرر الأمر ذاته فى مشهد غيبى مماثل يصف ملائكة الرحمن من حملة العرش والحافين به ، فينقل عباراتهم ملتصقه بوصفهم دون ذكر لفظ القول ، فى قوله تعالى ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من أبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم** ﴾[4] . ويمثل هذا المشهد ما يسمى «بالمونولوج» وهو الحديث الفردى ، وهو يكاد يكون مشهدًا مستقلًا يتقدم المشاهد التالية

---

(١) الجِنَّة : الملائكة ، فى أقوال كثيرة ، تراجع عند المفسرين .

(٢) سورة الصافات ١٥٨ - ١٦٦ .

(٣) ومن أمثلته ما سبق الإشارة إليه فى فصل سابق ، فى قوله تعالى : ﴿ **فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا . يا يحيى خذ الكتاب بقوة** ﴾ [مريم ١١ - ١٢] .

(٤) سورة غافر : ٧ : ٩ .

له من عالم الغيب ومن قصص الأنبياء ، وقد أفاد حذف القول فى أوله مزجًا بين وصف المشهد وكلام الملائكة وتداخلا جعل السامع ينطلق محلقًا فى هذا العالم العلوى الذى يصدر عنه هذا الدعاء الطاهر .

وفى بعض تلك المشاهد اختلط عالم الغيب بعالم الشهادة وامتزجا ، وذلك باستعمال طريقة الحذف لتحقيق الحضور لنفاجأ مثلًا بمن حق عليهم العذاب وهم يتلقون كلام السماء لهم وهم فى موقف لا يحسدون عليه ، تحدق بهم الأهوال من كل جانب ، وهم فى غفلة من غفلاتهم يمنون أنفسهم بالأمانى ، قائلين: هذا عارض ممطرنا ! ، فيجىء صوت من الغيب: بل هو ما استعجلتم به . . . . منذرًا إياهم بحلول العذاب ، وسواء أكانوا سمعوه أم لم يسمعوه فقد سمعناه نحن من موقع «النظارة» لتتحقق المفارقة التى تهزنا هزًا بين ما يعتقده هؤلاء الغافلون ، وما هم صائرون إليه من سوء المصير ، ومثل هذه المفارقات القصصية هى أمنية كل كاتب مبدع ، لما فيها من عناصر التشويق والإثارة ، إثارة المشاعر المتعارضة لدى المتلقى: نقمة عليهم لسوء فعلهم الذى جلب هذا العذاب ، ورثاء لهم لغفلتهم عما حاق بهم من العذاب ، مما يؤدى إلى تحقيق الموعظة وهى الأثر المطلوب فى القصة الإسلامية ، والتى تعادل «التطهير» فى الأدب اليونانى القديم والآداب الغربية .

الفصل الثالث

إحياء مشاهد الغيب وتجسيدها

كنا قد أشرنا من قبل إلى خصيصة من خصائص المحاورات ، لا تكاد تنشأ محاورة ثرية إلا بها ، وهى «الصراع» وتعارض المواقف وتبين من ذلك أن الحوار يعتمد على قوة ومقاومة ، من خلال المواقف المتعارضة ، ولهذا ارتبط الحوار بالصراع فى المسرح اليونانى ، وعندما طبقنا هذه القاعدة على المشاهد القصصية فى القرآن وجدنا أكثر محاوراتها ثراء وتدفقًا هى تلك التى تكون بين الأنبياء ومكذبيهم ، وكان أكثر ذلك فيما دار بين موسى عليه السلام وقوم فرعون ، وبينه وبين بنى إسرائيل .

وبين أيدينا الآن عدد كبير من المشاهد التى تؤكد على صحة هذه القاعدة ، وهى كلها مما وصف به عالم الغيب فى القرآن الكريم وسنجد فيها ظاهرة بارزة للعيان عند الموازنة بين المواقف التى تصف أهل الخير ، والمواقف التى تصف الأشرار ، حيث تقل المحاورات أو تقصر أو تنعدم ويحل محلها الوصف مع الأخيار ، وتطول المحاورات وتكثر كثرة بالغة مع الأشرار ولعلنا قد استعرضنا من قبل ما يؤكد ذلك بما فيه الكفاية ، ولكن الجديد فيما بين يدينا من المشاهد هو أن حذف لفظ القول وتوابعه من مشاهد وصف أهل الشر كاد يصبح قاعدة فيها ، وكان فى المقابل قليلًا مع أهل الخير ، وهناك مشاهد تجمع بين الفريقين ينطلق الخطاب فيها لأهل الشر أو منهم مباشرة وقد حذف منه لفظ القول ، ولا يحدث مثله مع أهل الخير ، فلنتأمل هذه المشاهد ونحن نتمثل قول الله تعالى ﴿ **إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾ ولنتدبر مرات معنى «الحق» فى هذا التخاصم ، والتوكيد عليه بالأدوات المختلفة ، لنعلم أننا لسنا بصدد عبث من القول ، وإنما نعالج معجزة حقيقية حارت فى الإحاطة بأسرارها الأفهام ، فسبحان الله عما يصفون

١ - ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُم**

أَكَفَرتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُم فَذُوقُواْ ٱلعَذَابَ بِمَا كُنتُم تَكفُرُونَ ﴾ [آل عمران ١٠٦- ١٠٧] .

٢ - ﴿ وَمَن أَظلَمُ مِمَّنِ ٱفتَرَىٰ عَلَى ٱللهِ كَذِبًا أَو قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَم يُوحَ إِلَيهِ شَيءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثلَ مَآ أَنزَلَ ٱللهُ وَلَو تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلمَوتِ وَٱلمَلَـٰئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيدِيهِم أَخرِجُوٓاْ أَنفُسَكُم ٱليَومَ تُجزَونَ عَذَابَ ٱلهُونِ بِمَا كُنتُم تَقُولُونَ عَلَى ٱللهِ غَيرَ ٱلحَقِّ وَكُنتُم عَن ءَايَـٰتِهِ تَستَكبِرُونَ . وَلَقَد جِئتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقنَـٰكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكتُم مَّا خَوَّلنَـٰكُم وَرَآءَ ظُهُورِكُم وَمَا نَرَىٰ مَعَكُم شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمتُم أَنَّهُم فِيكُم شُرَكَـٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَينَكُم وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُم تَزعُمُونَ ﴾ [الأنعام ٩٣- ٩٤]

٣ - ﴿ وَلَو تَرَىٰ إِذ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلمَلَـٰئِكَةُ يَضرِبُونَ وُجُوهَهُم وَأَدبَـٰرَهُم وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلحَرِيقِ . ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَت أَيدِيكُم وَأَنَّ ٱللهَ لَيسَ بِظَلَّـٰمٍ لِلعَبِيدِ ﴾ [الأنفال ٥٠- ٥١] .

٤ - ﴿ يَومَ يُحمَىٰ عَلَيهَا فِي نَارِ جَهَنَّم فَتُكوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُم وَجُنُوبُهُم وَظُهُورُهُم هَـٰذَا مَا كَنَزتُم لِأَنفُسِكُم فَذُوقُواْ مَا كُنتُم تَكنِزُونَ ﴾ [التوبة ٣٥]

٥ - ﴿ ثَانِيَ عِطفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللهِ لَهُ فِي ٱلدُّنيَا خِزيٌ وَنُذِيقُهُ يَومَ ٱلقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلحَرِيقِ . ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَت يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللهَ لَيسَ بِظَلَّـٰمٍ لِلعَبِيدِ ﴾ .

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخرُجُواْ مِنهَا مِن غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلحَرِيقِ ﴾ [الحج ٩- ١٠ ، ٢٢] .

٦ - ﴿ تَلفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُم فِيهَا كَـٰلِحُونَ . أَلَم تَكُن ءَايَـٰتِي تُتلَىٰ

عَلَيكُم فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَت عَلَينَا شِقوَتُنَا وَكُنَّا قَومًا ضَآلِينَ ﴾ .[المؤمنون ١٠٤- ١٠٦] .

٧ - ﴿ وَلَو تَرَىٰ إِذِ ٱلمُجرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِم عِندَ رَبِّهِم رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعنَا فَارجِعْنَا نَعمَل صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ . وَلَو شِئنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِن حَقَّ ٱلقَولُ مِنِّى لَأَملَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجمَعِينَ . فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُم لِقَاءَ يَومِكُم هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُم وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلخُلدِ بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ ﴾ [السجدة ١٢- ١٤] .

٨ - ﴿ وَهُم يَصطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخرِجْنَا نَعمَل صَٰلِحًا غَيرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعمَلُ أَوَ لَم نُعَمِّركُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧] .

٩ - ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ ٱليَومَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ . هُم وَأَزوَاجُهُم فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلأَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ . لَهُم فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ . سَلَٰمٌ قَولًا مِن رَّبٍ رَّحِيمٍ . وَٱمتَٰزُواْ ٱليَومَ أَيُّهَا ٱلمُجرِمُونَ . أَلَم أَعهَد إِلَيكُم يَٰبَنِى ءَادَمَ أَن لَّا تَعبُدُواْ ٱلشَّيطَٰنَ إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنِ ٱعبُدُونِى هَٰذَا صِرَاطٌ مُّستَقِيمٌ . وَلَقَد أَضَلَّ مِنكُم جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَم تَكُونُواْ تَعقِلُونَ . هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُم تُوعَدُونَ . ٱصلَوهَا ٱليَومَ بِمَا كُنتُم تَكفُرُونَ ﴾ [يس ٥٥- ٦٤] .

١٠ - ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم يَنظُرُونَ . وَقَالُواْ يَٰوَيلَنَا هَٰذَا يَومُ ٱلدِّينِ . هَٰذَا يَومُ ٱلفَصلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ . ٱحشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزوَاجَهُم وَمَا كَانُواْ يَعبُدُونَ . مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهدُوهُم إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلجَحِيمِ . وَقِفُوهُم إِنَّهُم مَسئُولُونَ . مَا لَكُم لَا تَنَاصَرُونَ . بَل هُمُ ٱليَومَ مُستَسلِمُونَ . وَأَقْبَلَ بَعضُهُم عَلَىٰ بَعضٍ يَتَسَآءَلُونَ . قَالُواْ إِنَّكُم كُنتُم تَأتُونَنَا عَنِ ٱليَمِينِ . قَالُواْ بَل لَّم تَكُونُواْ مُؤمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيكُم مِن سُلطَٰن

بَل كُنتُم قومًا طَـٰغِينَ . فَحَقَّ عَلَينا قَولُ رَبنَآ إنَّا لَذَآئِقُونَ . فَأَغوَيْنَـٰكُم إنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴾ [الصافات ١٩- ٣٢] .

١١ - ﴿ فَٱرتَقِب يَومَ تَأتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخانٍ مُّبِينٍ . يَغشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . رَّبَّنَا ٱكِشف عَنَّا ٱلعَذَابَ إنَّا مُؤمِنُونَ . أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَد جَآءَ هُم رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّواْ عَنهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجنُونٌ .إنَّا كَاشِفُواْ ٱلعَذَابِ قَلِيلًا إنَّكُم عَآئِدُونَ ﴾ .

﴿ إنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ . طَعَامُ ٱلأَثِيمِ . كَالمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلبُطُونِ . كَغَلْي ٱلحَمِيمِ . خُذُوهُ فَٱعتلُوهُ إلَىٰ سَوَآءِ ٱلجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّواْ فَوقَ رَأسِهِ مِن عَذَابِ ٱلحَمِيمِ . ذُق إنَّكَ أَنتَ ٱلعَزِيزُ ٱلكَرِيمُ ﴾

[الدخان ١٠- ١٥- ، ٤٣- ٤٩]

١٢ -﴿ وَيَومَ يُعرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِأَذهَبتُم طَيِّبَـٰتِكُم فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنيَا وَٱستَمتَعتُم بِهَا فَٱليَومَ تُجزَوْنَ عَذَابَ ٱلهُونِ بِمَا كُنتُم تَستَكبِرُونَ فِي ٱلأَرضِ بِغَيرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُم تَفسُقُونَ ﴾ .

﴿ وَيَومَ يُعرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيسَ هَـٰذَا بِٱلحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلعَذَابَ بِمَا كُنتُم تَكفُرُونَ ﴾ [الأحقاف ٢٠ ، ٣٤] .

١٣ - ﴿ يَومَ هُم عَلَى ٱلنَّارِ يُفتَنُونَ . ذُوقُواْ فِتنَتَكُم هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تَستَعْجِلُونَ ﴾ [الذريات ١٢- ١٤] .

١٤ - ﴿ إنَّ ٱلمُجرِمِينَ فِي ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ . يَومَ يُسحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِم ذُوقُواْ مَسَّ سَقَر ﴾ [القمر ٤٧- ٤٨] .

١٥ - ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِىَ كِتَابه بِشِمَاله فَيَقُول يَا لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَابِيه ، وَلَم أَدْرِ مَا حِسَابِيَه ، يَالَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَة مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيه ، هَلَكَ عَنِّى

سُلطَٰنِيَه . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ ٱلجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلسِلَةٍ ذَرعُهَا سَبعُونَ ذِرَاعًا فَٱسلُكُوهُ .إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤمِنُ بِاللَّهِ ٱلعَظِيمِ . وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلمِسكِينِ . فَلَيسَ لَهُ ٱليَومَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴾ .[الحاقة ٢٥ – ٣٧] .

١٦ – ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَت مِرصَادًا . لِلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا . لَّٰبِثِينَ فِيهَا أَحقَابًا . لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَردًا وَلَا شَرَابًا . إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا . جَزَآءً وِفَاقًا . إِنَّهُم كَانُواْ لَا يَرجُونَ حِسَابًا . وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا . وَكُلَّ شَيءٍ أَحصَينَٰهُ كِتَٰبًا . فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُم إِلَّا عَذَابًا . إِنَّ لِلمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ .

[النبأ ٢١ – ٣٠]

***

١٧ – ﴿ وَٱقتَرَبَ ٱلوَعدُ ٱلحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيلَنَا قَد كُنَّا فِي غَفلَةٍ مِّن هَٰذَا بَل كُنَّا ظَٰلِمِينَ . إِنَّكُم وَمَا تَعبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُم لَهَا وَارِدُونَ . لَو كَانَ هَٰٓؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ . لَهُم فِيهَا زَفِيرٌ وَهُم فِيهَا لَا يَسمَعُونَ . إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَت لَهُم مِّنَّا ٱلحُسنَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ عَنهَا مُبعَدُونَ . لَا يَسمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُم فِي مَا ٱشتَهَت أَنفُسُهُم خَٰلِدُونَ . لَا يَحزُنُهُمُ ٱلفَزَعُ ٱلأَكبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَومُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُم تُوعَدُونَ ﴾ . [الأنبياء ٩٧ – ١٠٣] .

١٨ – ﴿ وَيَومَ يَحشُرُهُم وَمَا يَعبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُم أَضلَلتُم عِبَادِي هَٰٓؤُلَاءِ أَم هُم ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ . قَالُواْ سُبحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِن أَولِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعتَهُم وَءَابَآءَهُم حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكرَ وَكَانُواْ قَومًا بُورًا . فَقَد كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَستَطِيعُونَ صَرفًا وَلَا نَصرًا وَمَن يَظلِم مِّنكُم نُذِقهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ . [الفرقان١٧– ١٩] .

١٩ – ﴿ هَٰذَا ذِكرٌ وَإِنَّ لِلمُتَّقِينَ لَحُسنَ مَـَٔابٍ . جَنَّٰتِ عَدنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلأَبوَابُ . مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ . وَعِندَهُم

قَـٰصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ . هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ . إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَالَهُ مِن نَّفَادٍ . هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ . هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ . هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ . قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ . قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ . وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ . أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ . إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ [ص ٤٩- ٦٤] .

٢٠ - ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ . وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ . لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ . وَقَالَ قَرِينُهُ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ . أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ . ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ . قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ . مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ . يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ . وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ . ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ [ق ٢٠- ٣٤] .

٢١ - ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ . فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ . كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور ١٣- ١٩] .

٢٢ - ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ . وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ . فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ . وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ . فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ . وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ . إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴾ [الواقعة ٨٨- ٩٥] .

٢٣ - ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَاكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ . فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

[الحديد ١٢- ١٥]

٢٤ - ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ . هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ . فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ . إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ . وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ . كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ . كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾

[المرسلات ٣٥- ٤٦]

٢٥ - ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ . وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ . يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى . وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر ٢٣- ٣٠] .

✵✵✵

٢٦ - ﴿ وَإِذَا رَأَيتَ ثَمَّ رَأَيتَ نَعِيمًا وَمُلكًا كَبِيرًا . عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضرٌ وإِستبرَقٍ وَحُلُّواْ أَسَاوِرَ من فِضَّةٍ وَسَقَـٰهُم رَبُّهُم شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُم جَزَآءً وَكَانَ سَعيُكُم مَّشكُورًا ﴾ [الإنسان ٢٠- ٢٢] .

✻✻✻

٢٧ - ﴿ وَيَومَ يَحشُرُهُم جَمِيعًا يَـٰمَعشَرَ ٱلجِنِّ قَدِ ٱستَكثَرتُم مِنَ ٱلإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِنَ ٱلإِنسِ رَبَّنَا ٱستَمتَعَ بَعْضُنَا بِبَعضٍ وَبَلغنَا أَجَلَنَا ٱلَّذِى أَجَّلتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثوَاكُم خَـٰلِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . يَـٰمَعشَرَ ٱلجِنِّ وَٱلإِنسِ أَلَمْ يأتِكُم رُسُلٌ مِنكُم يِقُصُّونَ عَلَيكُم ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُواْ شَهِدنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلحَيَـٰوةُ ٱلدُّنيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِم أَنَّهُم كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام ١٢٨- ١٣٠] .

٢٨ - ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَومَ يَأتِيهِمُ ٱلعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِب دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَ لَم تَكُونُواْ أَقسَمتُم مِن قَبلُ مَا لَكُمْ مِن زَوَالٍ . وَسَكَنتُم فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُم وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيفَ فَعَلنَا بِهِم وَضَرَبنَا لَكُمُ ٱلأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم ٤٤- ٤٥] .

٢٩ - ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلزَمنَـٰهُ طَـٰئِرَهُ فِى عُنُقِه وَنُخرِجُ لَهُ يَومَ ٱلقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلقَـٰهُ مَنشُورًا . اقرَأ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفسِكَ ٱليَومَ عَلَيكَ حَسِيبًا ﴾

[الإسراء ١٣- ١٤]

٣٠ - ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِكَ صَفًّا لَّقَد جِئتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُم أَوَّلَ مَرَّة بَل زَعَمتُم أَلَّن نَّجعَلَ لَكُم مَّوعِدًا ﴾ [الكهف ٤٨] .

٣١ - ﴿ وَٱتَّبِعُواْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيكُم مِن رَّبِكُم مِن قَبلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلعَذَابُ بَغتَةً وَأَنتُم لَا تَشعُرُونَ . أَن تَقُولَ نَفسٌ يَـٰحَسرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنْبِ ٱللهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ . أَو تَقُولَ لَو أَنَّ ٱللهَ هَدَانِى لَكُنتُ

مِنَ ٱلمُتَّقِينَ . أَو تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلعَذَابَ لَو أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلمُحْسِنِينَ . بَلَىٰ قَد جَآءَتكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبتَ بِهَا وَٱستَكْبَرتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر ٥٥- ٥٩] .

٣٢ - ﴿ يَومَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخفَىٰ عَلَى ٱللهِ مِنهُم شَيءٌ لِمَنِ ٱلمُلكُ ٱليَومَ للهِ ٱلوَاحِدِ ٱلقَهَّارِ . ٱليَومَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَت لَا ظُلمَ ٱليَومَ إِنَّ ٱللهَ سَرِيعُ ٱلحِسَابِ ﴾ [غافر ١٦- ١٧] .

٣٣ - ﴿ وَلِلَّهِ مُلكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرضِ وَيومَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَومئِذٍ يَخسَرُ ٱلمُبطِلُونَ . وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱليَومَ تُجزَونَ مَا كُنتُم تَعمَلُونَ . هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيكُم بِٱلحَقِ إِنَّا كُنَّا نَستَنْسِخُ مَا كُنتُم تَعمَلُونَ . فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدخِلهُم رَبُّهُم فِي رَحمَتِهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلفَوزُ ٱلمُبِينَ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَم تَكُن ءَايَٰتِي تُتلَىٰ عَلَيكُم فَاستَكبَرتُم وَكُنتُم قَومًا مُّجرِمِينَ . وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعدَ ٱللهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيبَ فِيهَا قُلتُم مَّا نَدرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيقِنِينَ ﴾ [الجاثية ٢٧- ٣٢] .

✵✵✵

إن أول جامعة لهذه المشاهد ، أنها جميعًا مشاهد غيبية لا سبيل إلى إدراكها بشيء من الحواس المعروفة ، ولا يحدها من أطر الزمان والمكان والموضوع شيء يدخل فى تصديق البشر بالوسائل المادية ، ونحسب أنه ليس فى طوق العقل المجرد- أى المعزول عن الفكر الإيمانى- أن يدخلها فى التصور العقلانى بالمواضعات والحسابات المنطقية ، ولئن كان بعض الفلاسفة قديمًا قد اهتدوا إلى تصور الحياة بعد الموت ، فقد اهتدوا إما بالنفس ، وإما باتباع بعض موروثات الأديان القديمة التى استطاعت أن تحل بعض ألغاز الخلق والحياة ، وما بعد الحياة .

ولسنا نريد أن يجرنا ذلك إلى مناقشات سوفسطائية حول فكرة حى بن يقظان مثلًا أو عن جدوى الرسالات من السماء إذا كان فى طوق البشر أن يصل إلى الخالق وأسرار الخلق بلا واسطة ، وإنما نرمى من وراء تقرير هذا المعتقد إلى أن نوضح أن القرآن الكريم عندما كان يصور الغيبيات ، فإنه إنما يقدم للبشر تصورًا أو إن شئت الدقة يقدم صورة لمغيبات لا سبيل إلى إدراكها أو تصورها ، مع أنه فى الوقت ذاته حريص على إدخالها فى حيز التصور والتصديق ، بل إنه جعل الإيمان بوجودها جزءًا لا يتجزأ من صحة الاعتقاد عند من يعلن إسلامه ، ولهذا نجد القرآن الكريم يلح على تقديم صورة العوالم الأخرى الخارجة عن حدود التصور البشرى فى الزمان قبل الزمان وبعده أى من بدء الخلق ، وبعد زوال الخلق ، وفى المكان فى عوالم أخرى لم يتوصل العلم إلى تحديد مكان لها حتى الآن ولا نحسبه قادرًا يومًا على ذلك ، كموضع العرش ، والجنة والنار . . وما إلى ذلك ، ونجده أيضًا يلح على تقريب صورة ما يقدمه من هذه المغيبات بكل الوسائل الممكنة ، وعلى رأسها التكرار ، وحشد المؤثرات اللفظية والمعنوية والتصويرية والتجسيدية وتكريس العرض وتكثيف الحوار ، وشحذ آلة الوصف وحدتها ، حتى صارت أشد المواضع جذبًا للانتباه ولفتا للاسماع وليا للأعناق واستيقافًا للخواطر قبل الأقدام ، هى مشاهد الغيب ، واحسب أن عدة من هذه المشاهد تقفز إلى ذهن السامع والقارىء قبل أن أذكرها فى الأمثلة كآخر سورة الزمر وسورة ق ، ومشهد الأعراف فى سورة الأعراف وغير ذلك ، وهى التى ألفنا سماعها فى كثير من المناسبات ، ولقد يغنينا عن كثير مما نود قوله فى هذا المجال أن نحيل على دراسة الشهيد سيد قطب ، المسماة «مشاهد القيامة فى القرآن» والتى هى دليل على استيقاف مشاهد الغيب فى هذا الكتاب لباحث من طراز سيد قطب رحمه الله .

ولا شك أن تراكم حشد من المواضع بين أيدينا حفل بصور من الحذف

الذى ألحناعلى بيان وظيفته فى تقريب الصور البعيدة والإعانة على تجسيد مالا يلتبس بجسد منها وتجسيمه ، وتكوين صورة لما لا يتصور ، لا شك انه يقدم دليلًا جديدًا على صدق هذا التعليل لظاهرة الحذف فى أساليب القرآن ، وما كنا لنجدها فيها بهذه الكثرة إلا وهى دليل عليها ! تلك واحدة .

وأمر آخر يظهر واضحًا من استعراض هذه المواقف ، وهو أن أكثرها ينصب على ذوى النفوس الخبيثة والأعمال الطالحة ، سواء فى مواقف أهل النار[1] أو فى مواقف العرض والحساب يوم القيامة[2] أو فى المشاهد المتكاملة[3] التى عرضت لما بعد الموت إلى حياة المستقر فى نعيم مقيم أو شقاء أبدى ، وأن أقل هذه المواقف كان من نصيب أهل الخير والتقوى الذين مآلهم الجنة ، وأن هذه المواقف كان السياق فيها على نسق مخصوص ورتبة من حذف القول لها وقع يختلف عن المتبع فى غيرها ، وإن كانت الحرفة البلاغية فيها واحدة .

ولأن الغاية من اتباع هذا الأسلوب من الحذف هى تقديم صورة مجسمة للعواقب الوخيمة التى تترتب على الكفر بالله وعدم طاعته ، فإن أكثر العبارات التى ألقيت بهذا الأسلوب قد اشتملت على التقريع والتبكيت والشماته والسخرية بهؤلاء العصاة والتذكير بذنوبهم التى استوجبوا بها هذا المصير ، نحو قوله تعالى: ﴿ **أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ وقوله: ﴿ **وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ وقوله﴿ **هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ وقوله ﴿ **ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام**

---

(١) النماذج من رقم ١ إلى رقم ١٦ .
(٢) النماذج من ١٧ إلى ٢٤ .
(٣) النماذج من ٢٧ إلى ٣٣ .

للعبيد ﴾ وقوله ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ وقوله ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ وقوله ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلًا كثيرًا أفلم تكونوا تعقلون . هذه جهنم التى كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ وقوله ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾ وقوله ﴿ أليس هذا بالحق ﴾ وقوله ﴿ ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون ﴾ وقوله ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ وقوله ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ وقوله ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه فى العذاب الشديد ﴾ وقوله ﴿ هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ وقوله ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ وقوله ﴿ يا معشر الإنس والجن ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾وقوله ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾ وقوله ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم ألن نجعل لكم موعدًا ﴾ وقوله﴿ أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قومًا مجرمين ﴾ وأكثر هذه العبارات تلقى بأسلوب الحاضر أو الماضى كأنها واقعة أو وقعت فعلًا إمعانًا فى الدلالة على تحقق الوقوع[1] مع ما يصاحبها من المؤثرات الأخرى ، وعلى رأسها حذف لفظ القول قبلها ، حتى ليشعر

---

(١) مشاهد القيامة فى القرآن ص٣٨ – ٤٠ .

السامع أنه المعنىُّ بها ، فيقلع عما يفترقه من جرم أو جناية إن كان جارمًا أو جانيًا لشيء من ذلك .

وكذلك العبارات المصاحبة لهذه ، من العصاة والمذنبين نراها مليئة بتعبيرات الأسى والندم والرجاء والدعاء والخوف والجزع ، كقوله تعالى حكاية عنهم ﴿ **ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون** ﴾ وقوله ﴿ **ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذى كنا نعمل** ﴾ وقوله ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾ وقوله ﴿ **يا ليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه . هلك عن سلطانيه** ﴾ وقوله: ﴿ **يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين** ﴾ وقوله﴿ **ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل** ﴾ وقوله ﴿ **ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قومًا ضالين** ﴾ ، وقد جاءت هذه العبارات أيضًا مصحوبة بالمؤثرات اللازمة لإخراجها فى صورتها المطلوبة لتعبر مع مدى الشقاء والتعاسة الأبدية السرمدية التى هم مقبلون عليها وهم ينطقون هذه العبارات .

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم ينص على أن هؤلاء «لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم» وأنهم عندما يجىء يوم القيامة يكون «هذا يوم لا نطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون» فإن تلك المواقف قد تضمنت عددًا كبيرًا من المحاورات التى تأولها المفسرون بأنها من كلام الملائكة معهم بأمر من الله[1] ، كما تضمنت أيضًا محاورات بين أهل النار فما بينهم ، وبينهم وبين أهل الجنة ، وهذه المحاورات والخصومات كانت عاملًا مهما من عوامل إثراء الحوار وتحريك الحدث ، وإبراز أمور كثيرة مما يخفى على ذوى العقول القاصرة عن إدراك الحقائق من المكذبين والمعاندين ، وفى بعض هذه المحاورات كان الحذف سمة أساسية ومؤكدة ، ولدوافع عديدة ، كأن يدل على تحول

---

(١) الفخر الرازى ١٣ /٢٠٠ - ٢٠١ .

المتكلم بكلامه من مخاطب إلى آخر كقوله تعالى ﴿ **هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون . احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسئولون . ما لكم لا تناصرون** ﴾ [1] فصدر الكلام خطاب للكافرين ، ثم توجه المتكلم نفسه بالخطاب إلى الملائكة آمرًا إياهم بسوق الأولين إلى جهنم ، ثم يأتى بعد ذلك سؤال يوجه إلى هؤلاء المحشورين إلى الجحيم ، وبين هذا وذاك حذفت الإشارات المعهودة التى تسرد سردًا فى ثنايا المحاورة للدلالة على هذا التحول ، مع لفظ القول المحذوف من صدر الكلام وثناياه ، وهذه الطريقة فى ترك الحوار يتحرك من تلقاء نفسه هى ذروة الحرفة لمن أراد أن يكتب مشاهد للعرض ، ولكن يبقى الأسلوب القرآنى منفردًا فى هذا المضمار بالمزاوجة بين الأسلوبين بحسب ما يتطلبه السياق والحدث ، وبحسب الغاية المرجوة ودرجة التأثير المطلوبة .

انظر إلى السياق وهو يدير محاورة حية ونحن شهودها ، فيصف الجو العام بكلمات قليلة ، ثم ينطلق فى المحاورة التى يمسك بزمامها ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس . هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون . إنا كاشفو العذاب قليلًا إنكم عائدون** ﴾ فالعرض من هنا يبدأ بالمؤثرات المذكورة ثم يقال بصوت مناسب– ولا ندرى من القائل–: «هذا عذاب أليم» فيجىء الرد عاجلًا من الناس: ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾فيعلق الصوت الغيبى على مقالتهم فى حديث «خاص ، هامس» أى يسمعه النظارة ولا يسمعه هؤلاء ولا يتوجه إليهم ، وهو تعليق على حالهم وكشف لخبيئة نفوسهم: أنى لهم الذكرى وقد جاءهم

---

(١) الصافات ٢١ – ٢٦ .

رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون: ثم يتوجه بالخطاب إليهم رادًا على طلبهم: ﴿ **إنا كاشفو العذاب قليلًا إنكم عائدون** ﴾[1] . وهذا يوضح لنا الدور الذى يقوم به الإضمار القصصى فى تحريك الحدث دون كبير تدخل بالسرد أو التعليق أو الوصف من السياق .

وأبرز ما يكون الإضمار ، فى المحاورة الثرية فى سورة ق حيث يقول﴿ **لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه هذا ما لدى عتيد . ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه فى العذاب الشديد . قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد** ﴾[2] حيث نجد التقديم المختصر للمشهد ، ثم ينتقل فجأة إلى توجيه الخطاب إلى المسوق لحسابه: لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، فلا نسمع منه ردًا وإنما نسمع من القرين تقديمه لصحيفة أعماله: هذا ما لدى عتيد ، وقد سبق كلامه بلفظ القول وهذا سبق بالواو ، ثم يجىء بعد ذلك الأمر الإلهى غير مسبوق بقول ﴿ **ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه فى العذاب الشديد** ﴾ وهوأمر موجه إلى غير المخاطب الأول ، حيث يأمر اثنين من زبانية جهنم بتنفيذ العقوبة فى الكفرة ، ثم يجىء كلام من القرين لا ندرى لم قاله أو على أى شىء يرد به وهو قوله ﴿ **ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد** ﴾ فيرد الله تعالى على هذا الكلام قائلًا: ﴿ **لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد** ﴾ ونحن لم نسمع تخاصمًا بين المسوق وقرينه ، ولكن الله تعالى يقول لا

---

(١) سورة الدخان ١٠ – ١٥ .

(٢) سورة ق : ٢٢ – ٢٨ .

تختصموا ، إذًا هناك تخاصم ومحاورة ، ولكنها مضمرة ، وهذه الكلمة هى الخيط الأول الذى نمسك به لنعود مع المحاورة كرة أخرى لعلنا نجد فيها أثر هذه المخاصمة أو نستكشف شيئًا مما أضمر منها .

يدلنا سياق هذه المحاورة على وجود أربعة أطراف حاضرة فى العرض الذى نحن شهوده :

أولها : الذات العلية جل الله تعالى عن كل تشبيه وشبيه ونظير .

وثانيها : ملائكةٌ يسوقون ويُؤمَرون ، منهم السائق والشهيد ، ولا ندرى عدد الباقين .

ثـم المسوق للحساب من بنى البشر ..

وأخيرًا القرين ، تلك الشخصية المحيرة ! ، ولكنا لا نسمع من الحضور إلا الصوت الإلهى وخطابه ، وكلام القرين وجوابه ، ثم نرى رب العزة ينهى عن الجدال والتخاصم فى حضرته ، لابد إذن أن ثمة أجزاءً مضمرة من تلك المحاورة ، ولابد أن عليها دليلًا لا يقتصر على مجرد حذف لفظ القول فى صدر الخطاب والجواب .

لقد بدأ الكلام بخطاب رب العزة الذى لم يجب عليه المسوق لحسابه ، ثم يجىء بعده قوله ﴿ **وقال قرينه** ﴾ ولا تجىء هذه الواو ولفظ القول إلا إذا كان ثمة مقولًا محذوفًا عطف عليه هذا ، وتقديره فقال المسوق: ﴿ **يا ويلنا هذا يوم الدين** ﴾ . أو قال: ﴿ **ربنا أبصرنا وسمعنا** ﴾ أو شيئًا من هذا القبيل مما ورد فى مواضع أخرى– وقال قرينه: هذا ما لدى عتيد ، وهذا هو التعليل الوحيد لهذه الواو وللقول بعدها ولكلام القرين الذى يصبح غير ذى موضوع وليس فى محله إذا لم نقدر هذا ، إنه قد كلف بمهمة ، وها قد جاء أوان تقديم نتيجة عمله وتقرير بإنجازاته ، ويتم عرض الأعمال على

صاحبها ووزنها والفراغ من الحساب الذى يتكشف عن مصيبة وخيمة العواقب إذ لم يتصور المسوق للحساب أن تسجل عليه أعماله بهذه الدقة فُيسقطَ فى يديه ، فيشرع فى اتهام قرينه بأنه هو الذى افترى عليه هذه الأشياء أو أنه هو الذى زينها له ، وعلى هذا الاتهام يجىء رد القرين «قال قرينه ﴿ **ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد** ﴾ وهو رد منطقى على الاتهام ، وأشد منه دلالة على ما قدمنا جواب رب العزة الذى ختم به المشهد الرهيب وهو ﴿ **قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد** ﴾[1] .

ومن أطرف المحاورات التى تستعمل فيها المؤثرات السمعية والبصرية تلك التى تدور بين أهل الجنة وأهل النار ، حيث يرسم لنا المشهد صورة للمؤمنين وهم فى طريقهم إلى الجنة ونورهم يسعى بين أيديهم ، هذا النور نفسه له دور فى المحاورة الآتية بعد ، ولهذا وجب النص عليه فى صدرها ، وتبدأ المحاورة بالملائكة يهنئون المؤمنين بمآلهم فى الجنة ﴿ **بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[2] ، ويومها يرى المنافقون- لا الكافرون- هذا النور ، فيتوددون إلى المؤمنين الذين كانوا يصطلون فى الحياة الدنيا بنار خداعهم ونفاقهم ، قائلين: ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ ، وهنا تجىء البادرة الطريفة فى التعامل مع هؤلاء بطريقتهم؛ من جنس النفاق والخداع الذى اعتادوه ، فيأتيهم صوت غيبى يقول لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا فيصدقون ما يقال لهم وتنطلى عليهم الخدعة فيكرون راجعين «فيضرب» بين الفريقين بسور له باب باطنه حيث المؤمنون ،

---

(١) سبق التعرض لهذه المحاورة فى الفصل الخاص بحركة الحدث فى المحاورة والسرد فى الباب الأول ، ونحن نعالج هنا أمر الحذف فى الطرفة التى يصورها المشهد والهدف منها .
(٢) سورة الحديد ١٢ – ١٥ .

فيه النور والرحمة ، وظاهره حيث المنافقون فيه النار والعذاب ، وبقاء هذا الباب ،وإشهاد المنافقين منظر المؤمنين من قبله هو من قبيل زيادة العذاب لهؤلاء ، ومن خلال هذا الباب ينادى المنافقون المؤمنين: ﴿ **ألم نكن معكم** ﴾ فيقول المؤمنون: ﴿ **بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير** ﴾ .

ولعل فى هذا المشهد طريفة أخرى ينبغى الإشارة إليها وهى أن بين ذكر لفظ القول وحذفه منزلة كثر ورودها فى القرآن الكريم وتوظيفها لتحقيق غايات معنوية وأسلوبية بالإضافة إلى عملها كمؤثر فى بناء العرض ، وهى منزلة بناء لفظ القول أو ما فى معناه للمجهول فى مثل قوله تعالى: ﴿ **إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون** ﴾ وقوله ﴿ **قيل لها ادخلى الصرح** ﴾ وقوله فى هذا المشهد ﴿ **قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا** ﴾ فالقائل هنا ليس رب العزة المنزه عن الكذب ، ولا ينبغى فى هذا المقام أن نقدر قائلًا بعينه ، وإنما الذى يعنينا أن صوتًا من الغيب جاء لتوجيه هؤلاء وليلفتهم عن النور الذى لا يستحقونه ويطلبونه؛ إلى النار التى يستحقونها ولا يطلبونها . وهنا طريفة ثالثة ، حيث إنَّ هؤلاء المخدوعين الذين يطمعون فى «النور» عندما يقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا فإنهم يرون فعلًا نورًا ويتوجهون إليه ، ولكنهم لا يكتشفون إلا بعد فوات الأوان أنه الضوء الذى ينبعث من اللهب وليس نورًا باردًا كالذى تركوه وراء ظهورهم ، وهنا يتبين لنا أن القرآن قد استعمل المؤثرات الضوئية فى العرض كما استعمل المؤثرات الصوتية فيما عرضنا من قبل ! .

ولعل ما قاله المؤمنون أهلُ الجنة فى هذه المحاورة يعد من القليل الذى نسمع أهل الجنة يتفوهون به بخلاف الحمد والشكر والثناء على ربهم والتسبيح

له وإظهار العرفان والخضوع ، وهو مصداق ما قيل عنهم فى الذكر ﴿ **لا يسمعون فيها لغوًا ولا تاثيما إلا قيلا سلاما سلاما** ﴾[1] . ولهذا فالذى يقولونه فيما ورد عنهم فى هذه المشاهد لا يعدو مثل قوله ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾ ، ولا ضرورة فيها لورود أقوال حوارية من القبيل الذى يتم فيه الحذف من المحاورة أو من السرد أو لفظ القول ، ولذلك قلَّ فيما بين أيدينا مما استقرأنا فيه الكتاب الكريم ، أن نجد نماذج من هذا القبيل تتعلق بأهل الجنة ، اللهم إلا فيما يتعلق بما يقال لهم[2] ، وهذا له مبرره ، حيث أنه يصدر من الغيب ، من رب العزة أو من ينيبه من مخلوقاته التى لا نراها ، فالمشهد المعروض أمامنا مفعم بأصوات لا ندرى قائلها ، وهذا أمر يستوى فيه مشاهد أصحاب الجنة مع مشاهد أصحاب النار ، ولهذا لم نعدم مشاهد ورد فيها خطاب لأهل الجنة لم نعرف قائله أو حذف قبله لفظ القول مع ضمير القائل ، كقوله تعالى: ﴿ **بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[3] . وقوله ﴿ **كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون إنا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ وقوله ﴿ **إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورًا** ﴾ وقوله ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** ﴾ .

وهكذا نرى أن القرآن قد اعتمد على خاصية الإضمار اعتمادًا أساسيًا فى تصوير مشاهده الغيبية كما فعل من قبل فى تقديم قصصه ، كما أنه تصرف فى الأساليب بما يعضد ذلك من وجوه البلاغة ، وأفانين التصوير ،بحيث أخرج لنا العرض فى صورة مأسوية دامية ، أو بهيجة مزدانة رائقة ، بحسب

---

(١) الواقعة ٢٥ - ٢٦ .

(٢) النموذجان : ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) الحديد : ١٠ .

بحسب طبيعة الموقف ، وتآزر فيها الوصف المسرود والمحاورة الناطقة الحية على إتمام الصورة ، على أكمل ما يكون التصوير الفنى .

ومن أهم الوسائل اللفظية التى ساعدت على تكريس الحضور فى العرض الغيبى هنا؛ الإلحاح على العناصر الحسية ولا سيما حاسة الأبصار ، فكأن النص يدفعنا دفعًا إلى رؤية مشهد معروض أمامنا ، ثم سماع ما يدور فيه دون حاجة إلى سرد لفظ القول المسند إلى ضمير القائل ، فنراه يقول ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة- ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم- فإذا هم ينظرون - فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين- ويوم يعرض الذين كفروا على النار- فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا- يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم- وإذا رأيت ثم رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا- وترى كل أمة جاثية** ﴾ ...

ولا شك أن العمد إلى هذه الألفاظ المتعلقة بحاسة الأبصار مقصود به تحريك تلك الحاسة ولو فى مخيلة السامع لأجل أن يتصور صورة لما يلقى عليه ، حتى لكأنه يعرض أمام ناظريه فإذا ما صار كذلك؛ نطق الأشخاص الموجودون أمامه فى ساحة العرض بأنفسهم دون ما حاجة إلى التنبيه المسبق المألوف فى القصص بلفظ القول ، وإن كان الاستغناء عن لفظ القول جزئيًا فى السياق القرآنى وليس كليا ، وذكره الأصل والاستغناء عنه هو ضرورة لحاجة العرض إلى ذلك فى مواضع بعينها لم نصل بعد إلى مرحلة وضع قاعدة مطردة لها ، ولكن القاعدة العامة التى تحكمها هى ما صدرنا به هذا الفصل .

ومن الوسائل المستعملة أيضًا التعبير بالماضى ، وهذا أمر على درجة من الأهمية نبه عليها البلاغيون ، حيث يدل على تحقق وقوع ما هو مستقبل كأنه وقع فعلًا ، فإذا أضيف إلى محذوف القول كان زيادة فى التأكيد على جدية

جدية هذا العرض وتحقق وقوعه ، كما فى قوله تعالى ﴿ **واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا** ﴾ وقوله ﴿ **ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾ وقوله : ﴿ **وجىء يومئذ بجهنم** ﴾ وقوله : ﴿ **وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة** ﴾ويضاف إلى الماضى بعض الصيغ الأخرى الدالة على ما يدل عليه الماضى من تحقق الوقوع كاسم الفاعل فى قوله ﴿ **يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار** ﴾ ، والإشارة فى قوله ﴿ **هذه جهنم التى كنتم توعدون** ﴾ ، ﴿ **هذا عذاب أليم** ﴾ ، ﴿ **ذلك يوم الوعيد** ﴾ ، ﴿ **هذه النار التى كنتم بها تكذبون** ﴾ . وغير ذلك ، وهى جميعا مما يساعد على إعطاء العرض المطروح أمامنا من عالم الغيب من المؤثرات ما يساعد على تصوره ، وبالتالى يلقى فى روع السامع الإحساس بتحقق الوقوع . ثم يجىء لفظ القول أو بناؤه للمجهول كقوله ﴿ **قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا** ﴾ أو جعله بصيغة الماضى ﴿ **وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين** ﴾ ، أو حذفه وهو الغالب هنا ليضيف إلى عنصر الحضور المرئى أو المتصور ما يجعله ناطقا بنفسه ، فى حشد من المؤثرات المتعاقبة التى تلح على أحاسيس السامع بما يجعله يستشعر بجميع حواسه ما هو بصدده من العرض ، وكأنى بالسامع ينتفض من مكانه أو يقشعر بدنه كما حدث لجبير بن مطعم مع النبى ﷺ عندما تلا عليه قوله تعالى: ﴿ **إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع** ﴾ ، فخشى أن يدركه العذاب فأسلم ، ولعتبة بن ربيعة لما أسمعه النبى ﷺ فُصِّلت إلى قوله تعالى ﴿ **فإن اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾فوثب مخافة العذاب[1] ، وذلك لشدة تأثير أساليب القرآن فيهما وأسره لألبابهما . وأَثَّرَ

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٧ - ٢٨ .

ما بين يدينا لا يقل عن أثر ذلك بل يزيد .

ومن أعظم تلك الوسائل التى حشدها القرآن «الوصف» الذى هو بمثابة تهيئة ساحة العرض لما سيقع فيها من أحداث ، أو يتبادل فيها من الحوار ، ومن ذلك وصف الجنة ﴿ **إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون** ﴾ ، ووصف النار ﴿ **يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم** ﴾ ، ووصف الأشخاص فى أحوالهم المختلفة قبل أن ينطقوا ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه** ﴾ ، ﴿ **تلفح وجوهم النار** ﴾ ، ﴿ **ناكسوا رءوسهم** ﴾ ، فإذا جاء ما ينطق به الأشخاص بعد مثل هذه الأوصاف كانت صورة ساحة العرض واضحة فى أذهان السامعين وكذلك صور الأشخاص الذين ينطقون أو يخاطبون بهذا الحديث الذى يُلقَى فى ساحة العرض دون أن يضطر السياقُ إلى رد السامع من هذا المشهد إلى أرض الواقع بإضافة لفظ القول ، ولِمَ يفعل هذا مع من يرى القائل أمام عينيه ويعرف حاله وما هو فيه ، ثم يسمعه ينطق بمقالته ؟ فليس ثمة ما يدعو إلى أن نقول فقال أو قالوا أو قلنا . . .إلخ . وهذا ما فعله السياق فى تلك المواضع بعينها .

ولك أن تتصور المبلغ الذى بلغه الوصف من الدقة والقدرة على تشخيص الصور الغيبية لما لم ير البشر له مثيلا ، وإحياء الصورة وجعلها مشهدًا حيًا متحركا ، فى قوله تعالى ﴿ **ولو ترى أذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم** ﴾ إذ اجتمعت فيه كل العناصر التى تعين على إحياء مشهد غير معهود ، ولا سابقة له ، فتوجيه الحواس والدعوة إلى أعمالها وإرهافها فى قوله «لو ترى» ، وفيه من التشوق للصورة والحث على تمثلها ما يستشعره القارىء لأول وهلة ، ثم يجىء الوصف الموجز لهؤلاء المفترين على الله «فى غمرات الموت» ، ووصف الملائكة بعده فى غاية الإيجاز

«باسطو أيديهم» لنتصورهم وهم يفعلون مع الظالمين ما أمرهم الله تعالى به من استجواب مصحوب بالتوبيخ والتقريع والتبكيت والسخرية ، ولا بأس بإشارة إلى العذاب إما بالغمرات وإما بمفهوم بسط أيدى الملائكة ، وبهذا يتم تمثل صورة المشهد كاملا بأشخاصه من خلال هذا التقديم الوجيز بكلماته القليلة ، لنتهيأ تهيئة تامة لتلقى حديث الملائكة الموجه إلى هؤلاء ، الذى يلقى أمامنا على ساحة العرض مباشرة من قائليه الناطقين به ، فنحن نسمع أصواتهم مباشرة ، دون تدخل من الراوى بحكاية القول ، ولو جاء الأسلوب بعد كل هذه المؤثرات بلفظ القول: باسطو أيديهم يقولون لهم أخرجوا أنفسكم ، لباعد ما بيننا وبين الصورة الشاخصة الحية ، ولفقدت أعظم وسيلة تصوير مما انماز به هذا الأسلوب الرائع فى إعجازه وفنه وحرفته .

وقد بلغ الأسلوب القرآنى بالوصف فى هذا المجال حدًا لا نظير له فى قدرات الأدباء ، فوصف النار بحرِّها ولهيبها ولفحاتِها المحرقة وشجرها ونباتها وغُثائها وطعامها وشرابها ، ووصف فعلها بجلود البشر وأجسامهم ونفوسهم ، وزمهريرها أيضًا ، كما وصف الجنة بظلها الظليل وأشجارها الوارفة وأنهارها الجارية وأرائكها وقصورها ومخادعها وغلمانها وحورياتها وفاكهتها وطعامها وشرابها ، ووصف أهلها وسكينتهم ونعيمهم المقيم فيها ، ووصف فى بعض المشاهد الجامعة صورة كونية بديعة لهذا كله وأضاف إليه مشهدا ختاميًا رائعًا لله تعالى وقد استوى على عرشه ، ومن حول العرش الملائكةُ يحفون به ، فى أسلوب يستخف الأرواح فتسبح معه فى عوالم وملكوتات لا قبل للعقل بإدراكها إلا بحضرة مثل هذا الوصف البديع : ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

والمشهد القصير الرائع من مشاهد الوصف ، لم يتخلله إلا جملة واحدة ، ينطق بها قائل غير معروف ، لعله هو نفسه الموكل بهذا النوع من التعليق

فى المشاهد الغيبية ، ولهذا يبنى فعل القول للمجهول معه عادة ، وهى منزلة بين التصريح به وحذفه كما بينّا .

ولم يقتصر الحذف فى هذه المشاهد على القول وحده ، وإنما تعدى إلى المقول كله أو بعضه فى لطائف معجبة ، استوقف بعضها المفسرين فى محاولة التعليل له ، كقوله تعالى : ﴿ **ويوم يحشرهم جميعًا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم** ﴾[1] فالذى يدقق يتبين له أن كلام الله تعالى كان موجهًا للجن ، وأن الجواب التالى جاء من الإنس ، وسبق كلام الإنس بلفظ (وقال) مسبوقا بالواو فما تعليل ذلك ؟ وليس وراء ذلك إلا تعليل واحد هو أن ثمة حذفًا بين الخطاب الإلهى والرد التالى ، وما هذه الواو إلا للدلالة على أن هناك حذفًا ، ولكن ترى ما هو المحذوف هنا ؟ إنه إما أن يكون جزءًا من الخطاب وإما أن يكون جزءًا من الرد ، أو أنه قد حذف جزء من المحاورة فيه خطاب وجواب . ويرجح الفخر الرازى أن يكون المحذوف من كلامه تعالى فكما قال للجن قال للإنس توبيخًا ، ثم حكى جواب الإنس[2] ، وهذا كلام ناقص لأنه يتضمن اعترافًا بأن الإنس أجابوا لما خوطبوا ، فكذلك الجن لابد أن يجيبوا فأين جواب الجن ؟ بل إن جوابهم أولى بالتقدير لأن الخطاب وجه إليهم أولًا ، وإن فى جواب الإنس لمخْرَجًا حيث يمكن أن يكونوا قد بادروا بجواب قبل أن يسألوا رغبة فى إبداء العذر ، ومع هذا فالأرجح والأولى أن نقدر لكل من طرفى المحاورة ما يكمله ، وبهذا يكون قد حذف من الحديث خطاب وجواب الأول موجه للإنس أسوة بما وجه إلى الجن ، والثانى صادر من الجن أسوة بما صدر من

---

(١) الأنعام ١٢٨ .

(٢) الفخر الرازى ١٣ /٢٠١ .

الإنس ويكون التقدير :

« يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس » فقالوا – أى الجن – ربنا إنا قد أعنّاهم ومتّعناهم فيما طلبوا إلينا ، وما أكرهناهم على شىء ، فقال يا معشر الإنس قد استعنتم بالجن وقد حذرتكم منهم وأنهم لكم عدو « قال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا » . . . إلخ .

فما جدوى هذا الحذف هنا مع حذف لفظ القول قبل خطاب الله تعالى ؟

إن إضمار لفظ القول للحضور قد صار أمرًا متفقًا عليه فيما أعتقد ، أما هذا الحذف فهو من قبيل التكثيف للمحاورة للقفز بها فوق الأحداث وتحريك الحدث إلى غايته ، فضلا عن أنه يحرك الذهن بالإثارة للقفز مع هذه الأحداث وإدراك ما يحذف بالقياس العقلى ، فيظل السامع متحفزًا متنبهًا لا تفوته فائتة ولا تخفى عليه خافية . أو يكون حريصًا على هذا على الأقل !

ونظير ذلك فى تقدير محذوف أيضًا ، قوله تعالى : ﴿ **فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون . وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين . هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون . احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون** . . ﴾[1] فهذه الواو العجيبة التى سبقت كلام الناس فى يوم الموقف العظيم ﴿ **وقالوا يا ويلنا** ﴾ ، ما بالها ، إنها ليست عاطفة فيما يظهر من الكلام كسابقتها ، فهى إما عاطفة على محذوف ، وإما دالة على حذف ، فما هذا المحذوف وما علة حذفه ؟

إننا إذا قسنا هذا المشهد على غيره من المشاهد ، وجدنا أن أكثر المشاهد

---

(١) الصافات ١٩ – ٢٢ .

تفتتح بخطاب الله تعالى أو بالخطاب الإلهى مباشرة أو بالإنابة ، وهو الذى يُنبَه به الناس المبعوثون إلى ما صاروا إليه ، نحو قوله تعالى ﴿ **وعرضوا على ربك صفًا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة** ﴾ ، فالذى ينبغى تقديره هنا هو قول إلهى موجه إلى هؤلاء ينبههم إلى مبعثهم الذى كانوا ينكرونه أو يسألهم سؤالًا فى هذا المعنى يكون جوابه : « يا ويلنا هذا يوم الدين » فيقال لهم : هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون . والحذف هنا يرمى إلى بدء المشهد بتصوير مدى جزع هؤلاء المنكرين للبعث عند مفاجأتهم به ، وهو لا شك أمر يدعو كل منكر أو متردد إلى مراجعة نفسه فى اعتقاده الخاطىء ، خوفًا من أن يأتى عليه يوم يقف فيه هذا الموقف .

ومن أكثر الأساليب البلاغية ورودًا فى هذا المجال أسلوب الاستفهام للتقرير والتوبيخ ، نحو قوله : ﴿ **أكفرتم بعد إيمانكم** ﴾ وقوله : ﴿ **ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون** ﴾ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾ وقوله : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وإن اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلًا كثيرًا أفلم تكونوا تعقلون** ﴾ وقوله :﴿ **أليس هذا بالحق** ﴾ وقوله : ﴿ **أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال** ﴾ وقوله : ﴿ **أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قومًا مجرمين** ﴾ وهذا الاستفهام وما يحمله من إجبار للمسئول على الإقرار بما كان ينكره من قبل ، مع ما فيه من تبكيت وتقريع وتوبيخ ، لو وضع السامع نفسه فى موضع المسئول،وخصائص العرض التى يتسم بها المشهد تساعد على ذلك – فإنه لاشك يدرك أنه لا طاقة له بتحمل هذا النوع من المساءلة فى أمر هو فى إنكاره – إذا أنكره – من الجاهلين .

ومن الخصائص البارزة لهذه المحاورات الغيبية أن الحوار يحرك الحدث ويدل على الفعل الواقع فى ساحة العرض ، وهى من دقائق حرفة صناعة الحوار

التى تمكنه من الاستغناء عن الوصف المساعد الذى يبتر الحدث ويقطع تسلسله فى المواقف الحرجة ، ومثاله قوله تعالى فى الأمر الذى يتوجه به لملائكة النار : ﴿ **ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد** ﴾ وقوله :﴿ **وقفوهم إنهم مسئولون** ﴾ وقوله لأهلها : ﴿ **إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون** ﴾ وقوله : ﴿ **خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم . ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ وقوله : ﴿ **ذوقوا مس سقر** ﴾ وقوله : ﴿ **خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون** ﴾ وقولهم : ﴿ **يا ولينا قد كنا فى غفلة من هذا** ﴾ وقوله لأهل الجنة : ﴿ **هذا ما توعدون ليوم الحساب** ﴾ ، وقوله : ﴿ **هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار** ﴾ وقوله : ﴿ **ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا** ﴾ وورود مثل هذه الأقوال فى المحاورات يضاف إلى خصيصه الإضمار وحذف لفظ القول فيعزز مكانة الحوار الراقى الذى بلغ من الحرفة حدًا لا يدانيه فيها شىء من أفانين البشر . ويؤكد على إعجاز هذا الكتاب المبين .

الفصل الرابع

بناء المشهد القصصى
بين مراتب
حذف لفظ القول وتكراره

تبين لنا فيما سبق أن استعمالات لفظ القول فى مشاهد القرآن ومحاوراته على درجات تتراوح بين الحذف والبناء للمجهول والذكر والتكرار ، وهو أيضا درجات فى التأثير فى مجريات القصة ، بالإضافة إلى المؤثرات الأسلوبية الأخرى .

وللحذف أيضا مراتب ، أدناها أن يوضع فى السياق لفظ يؤدى معنى القول ، كنادى وشهد ودعا وسأل ، وهذه الألفاظ قد يرد معها لفظ القول صريحا ، أو لا يرد ، وقد ذكرنا فى موضع آخر من هذه الدراسة ، أن ما ورد فيه القول مع النداء وغيره دليل على الحذف فيما لم يرد .

وقد يستعمل فى هذه الأساليب أن المفسرة كما فى قوله تعالى ﴿ **وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا** ﴾ وقوله ﴿ **فناداها من تحتها أن لا تحزنى** ﴾ وقوله ﴿ **وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم** ﴾ ومثلها جميع الآيات التى جاءت فيها «أن» موصولة بفعل الأمر فهى تحتمل أن تكون «أن» فيها تفسيرية ، كما تحتمل أن تكون مصدرية ، وكونها تفسيرية أقرب ، لأن الأمر فى ذاته يصدر عن آمر بطريق القول ولا سيما إذا تقدم «أن» ما فيه معنى القول من الألفاظ التى ذكرناها أو ما يشبهها ، ولأنها مع احتمال المصدرية ينبغى تقدير حرف الجر معها محذوفًا[1] ، وما لا يحتاج إلى تقدير أولى مما يحتاج إلى تقدير ، وإذا تساوى الطرفان فى الحاجة إلى التقدير؛ هذه يقدر معها القول ، وتلك يقدر معها حرف الجر ، كانت المفاضلة بحسب المعنى ، وتحتمل (أن) أن تكون مفسرة ومخففة من الثقيلة فى مواضع كثيرة ، وأن تكون مصدرية ومفسرة ومخففة من الثقيلة فى بعض المواضع ، وقد

(١) دراسات لأسلوب القرآن الكريم جـ١ ص٣٤٨ .

شغلت هذه الاحتمالات النحويين كثيرًا وأدلى كل من الزمخشرى وأبى حيان وابن هشام بدلوه معهم وأفاض فى البيان(١) ، ولست أرى موجبا للاختلاف فى التى يليها فعل أمر ، واشتراط معنى القول قبلها ، حيث إن فعل الأمر فى ذاته يصدر من قائل يتوجه به إلى مخاطب ، أى أن الأمر يشترط له طرفان: آمر (متكلم) ومأمور (مخاطب) بخلاف سائرالأفعال ، ووجه الفرق بينهما واضح ، فكل أسلوب فيه أمر هو إنشائىً طلبى ، بعكس المضارع فهما خبريان ، وقد احس الرضى بهذا المعنى عندما قرر أنها يتعين أن تكون تفسيرية إذا كان بعدها دعاء(٢) ، ونحن نميل إلى جعل هذا الحكم عاما لكل طلب وهذا ما يعيننا عليه استعراض كثير من المواضع التى وردت فيها أن مع فعل الأمر فى القرآن الكريم ، فقوله تعالى: ﴿ **وألنَّا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد** ﴾ اختلفوا فيه ما بين قابل لمعنى التفسير فيها ورادّ عليه بأن «ألنَّا» ليس فيه معنى القول ، فلا يصح أن تكون تفسيرية(٣) ، ونسى الجميع أن السياق يدل على أن الأمر فى حد ذاته قول ، أن قبله وبعده ما يؤكد ذلك ، حيث ورد النداء قبله مقطوعًا عن القول ، ولا يكون إلا بمناد أى قائل ، وهو قوله تعالى: ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوِّبى معه والطيرَ وألنَّا له الحديد أن اعمل سابغات وقَدِّر فى السرد واعملوا صالحًا إنى بما تعملون بصير**(٤) ففى هذا المشهد العابر من القصة يضع الله تعالى خلقه جميعا بين يديه فى صعيد واحد (أى ساحة عرض إلهية من النوع الذى يستعصى على تصوراتنا القاصرة ولا يعظم على الله) ويخاطب الجبال قائلا لها ومشيرًا إلى دواد: يا جبال أوبى معه ، ثم يومىء إلى الطير بمثل ذلك ،

---

(١) نفسه ص٣٤٣ - ٣٨٩ .

(٢) شرح الكافية ٢ : ٢١٧ - ودراسات لأسلوب القرآن ١ /٣٤٦ .

(٣) دراسات لأسلوب القرآن ١ /٣٥١ ، ٣٨٩ .

(٤) سورة سبأ ١٠ - ١١ .

ويخبر عن الحديد ، ثم يتوجه إلى دواد بالأمر التعليمى: ﴿ **اعمل سابغات وقدر فى السرد** ﴾ ، ثم إلى دواد وسليمان ومن شاء من ذريتهما: ﴿ **واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير** ﴾ فهذا التصور للموقف يُخَرِّجُ الأسلوب بكل ما فيه من مشكلات معنوية ونحوية ، ويضعنا أمام نوع من التصوير الفنى الجميل درج القرآن الكريم على تقديمه فى كثير من قصصه ومشاهده ، على حدٍّ ما قرره الزمخشرى فى الآيات التالية:

١ - ﴿ **وَإِذَآ أُنزِلَت سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِاللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَئْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنهُم** ﴾ . (التوبة٨٦) فى الكشاف ٢/٣٠٠: «هى أن المفسرة» .

٢ - ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحلِ أَنِ اتَّخِذى مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا** ﴾ (النحل ٦٨) فى الكشاف ٢/٦١٨ .«هى أنْ المفسرة» .

٣ - ﴿ **وَءَاتَيْنَا مُوسَى الكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَٰءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا** ﴾ . (الإسراء ٢) فى الكشاف ٢: ٦٤٨ (بالتاء على: أى لا تتخذوا كقولك كتبت إليه أنْ افعل) .

٤ - ﴿ **فَخَرَجَ عَلَىٰ قَومِه مِنَ المِحرَابِ فَأَوحَىٰ إِليهِم أَن سَبِّحُواْ بُكرَةً وَعشِيًّا** ﴾ (مريم ١١) فى الكشاف ٣/٧: أن هى المفسرة .

٥ - ﴿ **إِذ أَوحَينَآ إِلَىٰ أُمِكَ مَا يُوحَىٰ . أَنِ اقذِفيهِ فِى التَّابُوتِ** ﴾ .(طه: ٣٨-٣٩) فى الكشاف ٣/٦٢: أن هى المفسرة

٦ - ﴿ **وَإِذْ بَوَّأنَا لِإبراهِيمَ مَكَانَ البَيتِ أَن لَّا تُشرِك بِى شَيْئًا** ﴾ .(الحج ٢٦) فى الكشاف ٣/١٥٢: أنْ هى المفسرة .

٧ - ﴿ **فَأَرسَلنَا فِيهِم رَسُولًا مِنهُم أَنِ اعبُدُواْ اللَّهَ** ﴾ . (المؤمنون ٣٢) فى الكشاف ٣/١٨٥: أنْ مفسرة لأرسلنا .

٨ - ﴿ **فَأْتِيَا فِرعَونَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَـٰلَمِينَ . أَن أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسراءِيلَ** ﴾ (الشعراء ١٦-١٧) فى الكشاف ٣٠٥/٣: بمعنى أى أَرْسِلْ .

٩ - ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيمَـٰنَ وَإِنَّهُ بِسمِ اللَّهِ الرَّحمَـٰنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ** ﴾ (النمل ٣٠-٣١) فى الكشاف ٣٦٤/٣: أَنْ مفسرة .

١٠ - ﴿ **وَلَقَد ءَاتَينَا لُقمَـٰنَ الحِكمَةَ أَنِ اشكُر لِلَّهِ** ﴾ . (لقمان ١٢) فى الكشاف ٤٩٣/٣: أَنْ هى المفسرة .

١١ - ﴿ **ووَصَّينَا الإِنسَـٰنَ بِوَالِدَيهِ حَمَلَتهُ أُمُّهُ وَهنًا عَلَىٰ وَهنٍ وَفِصَـٰلُهُ فِى عَامَينِ أَنِ اشكُر لِى وَلِوَالِدَيكَ إِلَىَّ المَصِيرُ** ﴾ (لقمان ١٤) فى الكشاف ٤٩٤/٣: أَنْ اشكر تفسير لوصينا .

١٢ - ﴿ **وَانطَلَقَ المَلَأُ مِنهُم أَنِ امشُواْ وَاصبِرُواْ عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ** ﴾ . (ص٦) فى الكشاف ٩٣/٤: قائلين بعضهم لبعض: امشوا .

١٣ - ﴿ **فَانطَلَقُواْ وَهُم يَتَخَـٰفَتُونَ . أَن لَّا يَدخُلَنَّهَا اليَومَ عَلَيكُم مِّسكِينٌ** ﴾ . (القلم ٢٣-٢٤) فى الكشاف ٥٩٠/٤: أن مفسرة[1] .

ويضاف إلى ما ذكرنا لطيفة أخرى ، نحسب أنها من أدق ما تختص به أن المفسرة هذه ، وإن كانت مع غلبتها عليها لا تظهر فى كل أحوالها ومواضعها ، وهى فيما نرى علة العدول عن صريح القول إلى التفسير بها ، وهى أن ما تأتى معه من الأقوال عادة ما يصف شيئا من الحركة أو الإشارة أو العمل بجانب الفعل الذى يؤمر به المقول له ذلك ، وهى أظهر ما تكون فى مثل قوله ﴿ **يتخافتون أن لا يدخلنها** ﴾ فهذا التخافت عادة ما يكون معه إشارات بالأيدى ، وكذلك قوله ﴿ **وانطلق الملأ منهم أن امشوا** ﴾ ،

(١) انظر : دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣٨٤/١ - ٣٨٥ .

ففيه أمارات الغمز واللمز ، مما يكون عادة بين الساخرين والهازئين فى مثل هذه المواقف ، وكذلك ما يكون التعبير فيه بغير الكلام المنطوق فيؤتى بأن المفسرة للدلالة على أن هذا المقول المذكور بعدها ما هو إلا تفسير لمعنى ما أشير به أو أوحى به أو فهمه من توجه الطلب إليه من هذه الإشارات ، وهو أوضح ما يكون فى قوله ﴿ **فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** ﴾ وقوله ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى** ﴾ وكل هذا لا يظهر ما يحمله من معنى هذه الأشارات والايماءات إذا عبر فيه بالقول ، ولكن يظهر جليا مع أن المفسرة ، وهذه سمة يمكن أن تضاف إلى شروطها التى ارتآها فيها النحاة للتفريق بينها وبين غيرها (المخففة من الثقيلة والمصدرية) .

والمرتبة التالية إذا خلا الأسلوب منها كقوله﴿ **ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا** ﴾ وقوله ﴿ **وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فردًا** ﴾ ، ويمكن الاستدلال على أن لفظ القول قد حذف هنا بنظائره التى لم يحذف منها كقوله تعالى ﴿ **ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى** ﴾ وقوله ﴿ **ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر** ﴾ ، وهذا الباب واسع ولا يسعنا فى هذا المقام الضيق تعقبه واستنباط أحواله المختلفة من الذكر والحذف بالاستقراء التام والتصنيف الدقيق ، كما لا يرضينا تركه بالجملة ، ولكنا نضعه هنا بين مراتب الحذف مع غيره ليتبين ما له من أثر فى المعنى والسياق ، وتظهر الغاية من كل منزلة من منازله .

وتلى ذلك مرتبة حذف القول مع دلالة ظاهرة فى السياق على هذا الحذف ، وهذا يغلب فى المحاورات المطولة ، كقوله ﴿ **ثم نُكِسُوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾[1] . فالسياق قبله يدل دلالة

---

(١) سورة الأنبياء ٦٤ — ٦٥ .

واضحة على أن هذا استئناف من كلامهم حيث قالوا «فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون» ومن البيِّن ان التقدير فيه «ثم نُكِسُوا على رءوسهم فقالوا» قياسًا على الذى قبله «فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا» وسبب الحذف فيه تناولناه آنفا [1] كما مر كثير من النماذج من هذه المنزلة من منازل الحذف .

وتلى هذه المرتبة مرتبة الحذف المتكرر للفظ القول فى المحاورة الواحدة ، حتى لتبدو وكأن الراوى قد أولى شخوصه ظهره وتركهم يتكلمون من تلقاء أنفسهم أمامنا ، ويتحرك الحوار بهم وحدهم والحدث من ورائه كقوله تعالى **﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون . ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملآن جهنم من الجنة والناس اجمعين فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾** [2] . حيث يصف المشهد موقف الكفرة والظالمين من الناس بين يدى ربهم يوم القيامة ثم تبدأ المحاورة باعتذارهم إلى ربهم: «ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون» فيجىءالرد عليهم من الله تعالى: **﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملان جهنم من الجنة والناس اجمعين ﴾** معلقا على موقفهم الذليل ، ثم يُرْدِفُه بإعلان قضائه فيهم «فذقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون» . وكذلك قوله: **﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا اخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾** [3] . فهو مثل السابق تماما . أما قوله تعالى **﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب**

---

(١) انظر الفصل الثالث من الباب الثانى من هذه الدراسة .

(٢) سورة السجدة ١٢ – ١٤ .

(٣) فاطر ٣٧ .

العذاب إنا مؤمنون . أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون . إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون ﴾[1] .

فعلى الرغم من الأقوال المختلفة فى تفسيره ووقت حدوثه[2] ، فمن الثابت انه قد حذف منه لفظ (يقولون) قبل قولهم أولًا ، والغالب تقدير قول قبل خطاب الله لهم فيما بعده ولا سيما قوله لهم: إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون ، وبهذا يكون الخبر قد عرض فى السياق وكأنه مشهد من مشاهد العذاب وإن كان عذابا دنيويا كما قال المفسرون ، وهذا المشهد تنطلق أطرافه بالسؤال والخطاب دون أن يتدخل السياق بلفظ القول الذى يردنا من ساحة العرض الحى إلى الرواية المنقولة قصًا أو القصة المروية ، وهو بهذا يكون على حد ما وصفنا ، ومثله قوله تعالى ﴿ **واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ [3] . فقولهم والرد عليهم انطلقا فى المشهد الحى الحاضر وكأننا نسمعهما من قائليهما مباشرة دون تدخل بالرواية فى أثناء القول .

ومن أكثر هذا النوع من المشاهد مهابة ما جاء فى قوله تعالى: ﴿ **يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيءلمن الملك اليوم لله الواحد القهار**[4] الذى اختلف المفسرون فى قائل الشق الثانى منه[5] ، أيضا ، ومهما يكن الوجه المختار فيه فهو بلاشك مشهد مهيب يصف الفرق الشاسع بين صفات الله تعالى فى عليائه وجبروته فى يوم العرض ، وصفات عباده فى ذلتهم

---

(١) الدخان ١١ - ١٢ .

(٢) انظر الزمخشرى ٤ /٢٧٢ .

(٣) الأنبياء ٩٧ - ٩٨ .

(٤) غافر ١٦ - ١٧ .

(٥) الرازى ٢٧ /٤٧ .

وخضوعهم بين يديه فى هذا اليوم ، وقد ساعد على إبراز هذا الفرق ، تجاور الأقوال وتتابعها وتدفقها كطلقات ثاقبة التصويب نحو هدفها فى عقول السامعين وقلوبهم لتخترقها وتستقر فيها دون أن تطيش أو تخيب عن إصابة هدفها قيد أنملة ، وهذه الأقوال كما سبق أن بينا قد حذف من حواليها السرد والوصف ولفظ القول وبقيت وحدها على ساحة العرض المهيب معبرة عن المشهد بجملته .

والمرتبة الأخيرة من هذا الضرب من العرض هى ما يجيىء فيه صوت غير متوقع وجوده فى ساحة العرض أو فى المحاورة عموما فيحولها إلى مشهد مختلف عما كان يظن السامع فى البداية ، ويغلب أن يكون هذا الصوت من وراء الغيب آتيا بمفاجأة تحول مجرى الأحداث فى القصة وتفعمها بالإثارة ، ومن المعلوم أن تدخل العناصر الغيبية فى مجرى القصة يعد من الأمور التى لها مذاق خاص فى الفن القصصى ، ولها تقدير خاص من نقاد هذا الفن[1] وهو الفن الذى يعتمد على الخيال البشرى المحض ، فكيف بفن هو القصص الحق الذى يقدم للناس هذه العناصر الغيبية من باب الحقيقة واليقين ، فهكذا هو فى القرآن الكريم حيث يقول﴿ **وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارًا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى** ﴾[2] . فوالله لو كنت مكانه لظننت انه يطلب إلىَّ خلع قلبى من مكانه ، أو لانخلع قلبى قبل نعلى: فأى موقف هذا ، تلك هى المفاجأة القصصية . فى القصص الحق .

أما زكريا عليه السلام فقد خلا فى محرابه يناجى ربه بعد أن أدركه .

---

(١) دراسات فى القصة والمسرحية . محمود تيمور .

(٢) سورة طه ١٠ – ١٣ .

الضعف والوهن وأمراض الشيخوخة والكلالة ، ويتضرع إليه أن يمن عليه «بولىٍّ» يرثه ويرث من آل يعقوب ، وأن يكون وليا رضيًّا ، وهذا أقصى [illegible] إليه من الكبر ووهن العظام ، بالإضافة إلى أن أمرأته كانت أوان إخصابها عاقرًا ، والآن أضيف إلى ذلك اليأس المبين الذى صارت إليه ، وزكريا يستحضر كل هذه الحقائق ، ولكن مع حقيقة كبرى نبهته إليها ربيبته مريم التى هى أخت زوجته أو بنت أختها[1] عندما قالت له: «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب» وهو القول الذى دعاه إلى أن يخلو فى محرابه يدعو ربه بهذا النداء الخفى ، وكأنى به والهدوء يشمله من حوله والسكينة تلفه ولا يكاد يسمع صوت نفسه فى مناجاته لربه وإذا صوت السماء الغيبى يأتيه على حين غرة ومن حيث لا يحتسب ﴿ **يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا** ﴾[2] لتنقلب حياة الرجل رأساً على عقب بعدها ، ويتصل حبله بما انقطع من أمور الدين والدنيا ، وتستمر على نحو جديد مجريات القصة سواء معه أو مع ابنه يحيى أو مع مريم وابنها المسيح عيسى بن مريم فى حلقات متتابعة ، تظهر كل واحدة منها مدى العنت والجهد الذى لقيه أنبياء الله تعالى من بنى اسرائيل الذين توالت عليهم المعجزات تترى ، وهم لا يفتأون يكذبون منها أخرها بمثل ما يكذبون به أولها ، حتى إنهم لم يرعوا حرمة الأنبياء الذين حملوها وآذوهم وقتلوهم ، كما فعلوا بيحيى وهموا بفعله مع عيسى عليهما السلام .

ولقد استعرضنا من قبل نظائر لهذا النوع من الأقوال الغيبية ولكن هذين

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٢ /٥٣ ، وفى قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار ص٤٣٨ أنها بنت أختها ، واقتصر الفخر الرازى ٢١ /١٨٥ على أنها أختها .

(٢) سورة مريم : ٧ .

النموذجين يظهر فيهما عنصر المفاجأة ملازمًا لوسيلة العرض فى السياق وهى الشروع فى الخطاب مباشرة دون إيراد ذكر للقائل أو لفظ القول قبله ، إمعانا فى بيان عنصر المفاجأة من خلال السياق نفسه بالإضافه إلى ظهورها من مجريات القصة نفسها .

***

والحذف لفظ القول فى السياق القرآنى دلالات أخرى غير ما ذكرنا ، وإن كانت السمة الغالبة عليهاجميعا أن تكون لبيان أمر يتعلق بطبيعة المشهد أو طريقة أداء العرض وتقديمه على الوجه الأمثل من الموافقة للصورة المطلوب إيصالها إلى إدراك المتلقى ، كما ينبغى أن تكون فى الوجود الخارجى أو كما كانت فعلًا . ولقد سبقت الإشارة إلى نماذج من هذا القبيل منها قوله تعالى:﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ فى مقام الإسرار بعد الجهر من القائل الواحد ، وقوله تعالى ﴿ **ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾ فى مقام تغير الحالة النفسية والنبرة الدالة عليها من القائل الواحد ، وثمة موضع لهذا الحذف هو أعجبها ، وأبعدها عن المدارك ، ما لم تتجرد من قصورها وانحباسها فى حدود الزمان والمكان الضيقة التى تتحكم فى مدارك البشر ، ولا يستطيعون التخلص منها حتى فى تعاملهم مع خالق هذه الأطر الضيقة من زمان ومكان ، حتى إنهم لم يدركوا الفرق بين اليوم الأرضى واليوم الذى مقداره ألف سنة ، واليوم الذى مقداره خمسون ألف سنة ، أو ما هو أكبر من هذا إلا بعد أن أعانتهم الأجهزة الحديثة على معرفة معنى «الزمان» النسبى المقيد بدورة الأرض حول نفسها ، والفرق بينه وبين الزمان بحساب أى جرم سماوى آخر . وإننا ما زلنا فى طور الطفولة بالنسبة لمعرفة الحقائق الكونية العظمى ، فما علينا إلا أن نذعن ونؤمن ونصدق ، هذا ما يحتاجه منا المشهد الآتى لندرك أبعاده ، ونعرف السر فى حذف لفظ القول فيه وهو مشهد من قصة موسى عليه السلام التى وردت

بتمامها فى سورة طه ، يصف مرحلة ما بين هلاك فرعون ونجاة موسى عليه السلام بقومه من بنى إسرائيل ، وعودتهم إلى السلوك المعوج الذى اعتادوه ، من جديد ، باتخاذهم العجل بعد أن تركهم موسى مستعجلا لقاء ربه للموعد المضروب بجانب الطور الأيمن ، فيقول الله تعالى: ﴿ **ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى . فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم . وأضل فرعون قومه وما هدى . يا بنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى . كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى . وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى . وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى** ﴾[1] .

إن ما يلاحظ فى هذا المشهد للوهلة الأولى هو تلك السمة التى غلبت على كثير من المشاهد فى القصص القرآنى ، وهى مجىء خطاب من رب العزة فجأة مجردًا من الإرهاص بأنه منه أو أنه قول ، أى حذف لفظ (القول) قبله ، ولكننا إذا دققنا فى المشهد تبين لنا أن صدره يصف بنى إسرائيل وهم بالشاطىء الشرقى للخليج الذى غادروا فيه فرعون وقومه صرعى لتوهم ، والله تعالى يتوجه بالخطاب إلى الناجين ، ويبلغهم بموعدهم بجانب الطور الأيمن ، وبما أنزل عليهم من النعم مذكرًا ومحذرًا ، وبانقضاء هذه المقالة نفاجأ بموسى وحده بين يدى رب العزة بالمكان المعهود ، والله يخاطبه سائلا: ما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ ولا ننسى هذه (الواو) قبل السؤال أن نلاحظها أيضا كما لاحظناها فى مواضع سبق التعرض لها فى سورة هود وسورة غافر وغيرهما .

---

(١) سورة طه ٧٧ - ٨٤ .

فهل يتأتى أن نكتفى بتقدير المحذوف بعد الواو أنه يكون (وقلنا له أى شىءأعجلك) كما قدره أبو السعود فى تفسيره [1] ، ونتوقف عند هذا الحد ؟ وهل يصح هذا التقدير ؟

إننا إذا وافقنا أبا السعود على الاكتفاء بذلك كان هذا الكلام معطوفا على قوله ﴿ **ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى** ﴾الذى تجرى أحداثه فى مصر . قبل الخروج ويكون الكلام المباشر بجانب الطور معطوفا على الوحى بالأمر بالخروج من مصر ، ولا يصح هذا فى المعنى

ولكن الأوفق إذا كنا سنتجاوز الزمان والمكان إلى هذا الحد ، أن يكون العطف على قوله تعالى ﴿ **يا بنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم** ﴾ و ﴿ **ويا موسى ما أعجلك عن قومك** ﴾ ليكون المشهد كما صوره علم الله الواسع الذى لا يحده زمان أو مكان ، مشهدًا كونيا جامعًا ساحته سيناء كلها ويضم- على بعد المسافة موسى وهو بجانب الطور الأيمن ، وبنى اسرائيل حيث تركهم ، والله تعالى يطل على الجميع من عليائه ، ويتجلى صوته مخاطبا إياهم بالواسطة التى عبر عنها المشهد بهذا الخطاب الذى يبدو مباشرًا ، ويتجاوز أيضا حدود الزمان فلا يظهر ثمة فرق بين الوقت الذى خاطبهم فيه والوقت الذى خاطب فيه موسى ، حتى تعاقبا ، فجاء كلامه له بعقيب كلامهم ، وعليه عُطِفَ ، فجاءت الصورة البديعة والمفارقة العجيبة على الوجه الذى يزيد عجب موسى وعجبنا معه ، إذ يتصور أنه ترك قومه ليلحقوا به عما قليل وتقدمهم وهو يحسب أنهم «على أَثَرِهِ» ولكن علمه بهم انقطع مذ تركهم ، فكان منهم ما كان من حديث العجل ، وهو لا يدرى عنه ولا عنهم شيئا ، وفى ذات الوقت نحن نرى على الساحة بنى إسرائيل ونرى موسى ونسمع تكليم الله لهم ثم له ، ونعلم بالفتنة التى وقعت من هذا الحديث

---

(١) تفسير أبى السعود ٣ /٣١٨ .

ويدور شريط الأخبار لينقل إلى الساحة ما دار فى البعد ، كل ذلك لنعلم وليعلم موسى أن العجلة لم تكن خيرًا ، وأن علم البشر ليس شيئا فى علم الله .

إننا بعقولنا القاصرة لا نكاد نتصور ساحة هذا المشهد لفرط اتساعها مكانا ، ولجمعها أكثر من زمان فى آن ، ومع هذا فإنى أتجاسر على تجاوز هذا التصور إلى تصور أبعد منه ، لهذه الساحة ، حيث اتصور أن الخطاب الموجه لبنى اسرائيل لم يكن لمعاصرى موسى وأخيه هارون من المفتونين بفتنة السامرى وحدهم ، وإنما ضمت الساحة كل بنى اسرائيل على مر الزمان وتوجَّه الخطاب الإلهى المُذَكِّرُ المُحَذِّرُ إليهم جميعا ، كما وجه إليهم مرات كثيرة فى سورة البقرة ، ولا سيما مَنْ عاصروا النبى ﷺ منهم وسمعوا القرآن غضًّا بصوته ، وسمعوه وهو يقول لهم﴿ **يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بأياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون** ﴾[1] ، فكذلك توجه الله تعالى بهذا الخطاب الإلهى إليهم فكأنما جمعهم فى هذا الصعيد الواحد مع أسلافهم المعاندين الجاحدين؛ ليذكرهم بما ذكروا به وما آلوا إليه ويحذرهم مما حذروا منه ، ومما صاروا إليه ، وما أشبه هذا بما سبق عرضه من قبل حيث جمع الله تعالى فى مشهد واحد كل ما دار بين نوح وقومه فى ألف سنة إلا قليلا ، وكأنه دار فى ساعة من النهار[2] ، وما أشبهه بما جرى فى القصة نفسها والسورة نفسها (سورة طه) حيث استعملت الطريقة نفسها فى مرحلة متقدمة من القصة ، إذ جمع السياق فى محاورة واحدة أو ما بدا وكأنه محاورة واحدة ثلاثة مشاهد

---

(١) سورة البقرة ٤٠ – ٤١ .

(٢) راجع ما تقدم فى الفصل الثانى من هذا الباب من تحليل لقصة نوح فى سورة هود عليهما السلام .

من أبعاد زمانية ومكانية متباعدة جدًا ، حيث دار أولها فى طور سيناء ، وثانيها فى مكان لقاء موسى وهارون فى مصر ، والثالث فى قصر فرعون ، وقد تم فى هذه المحاورة عن طريق الحذف الانتقالى تحقيق التداخل والامتزاج بين المشاهد الثلاثة قفزًا فوق رءوس الأحداث تكثيفًا لها وحضورًا فى العرض على النحو الذى وصفناه فى موضعه من هذه الدراسة[1] .

وقد يجرى ما يقع فيه التكثيف مجرى التمثيل فتسقط تماما اعتبارات الزمان والمكان والاشخاص ويبقى ظل الموضوع الذى يجرى إسقاطه على الحاله الحاضرة ولو عالجته موضوعياأو منطقيا بدون اعتبار هذا التمثيل وهذا الإسقاط لفسد المعنى ، ولضللت فى التأويل وذهبت بك الوساوس مذاهبها ، كما سبق أن بينًا فى قوله تعالى﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ، فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون** ﴾[2] فبدون مراعاة أن القصة تمثيل ، ضرب بها المثل لبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين فى جهلهم[3] ، يقع الخلط والالتباس ، وهذا ما وقع فيه جلة المفسرين لهذه الآية ، وبعضهم صدَّق فيها ما حمل على ابن عباس رضى الله عنه من الأكاذيب فى تفسيرها [4] ، والأصل أن القصة من هذا الضرب من التمثيل الذى أشرنا إليه بأنها قد جرى فيها التكثيف بإسقاط اعتبار الزمان والمكان

---

(١) وراجع أيضا ما بسطناه فى الفصل الخاص بالحذف الانتقالى فى الحوار المتداخل من بيان لمجريات قصة موسى فى سورة طه .

(٢) الأعراف ١٨٩ - ١٩٠ .

(٣) الرازى ١٥ / ٩١ وهو رأى القفال .

(٤) نفسه ١٥ /٩٠ .

والأشخاص ، فأوحت فى صدرها بتحديد زمان وأشخاص ، وذهب الذهن إلى آدم وحواء ، وإذا بقية القصة تشير إلى حادثة عامة وقعت فى كثير من الأمم من ذرية آدم . ولم تقع قط من آدم نفسه على وجه التحديد ، فالله تعالى هنا يمثل بآدم وحواء فى بيان النعمة التى تفضل بها على خلقه ، ثم يشير فى بقيتها إلى الجحود والنكران الذى تلقى به الخلقُ هذه النعمة ، وبهذا التأويل التمثيلى المعتمد على خاصة التكثيف يزول اللبس الذى أوقع الأسلاف فى الخلط وركوب الصعاب[1] .

وهذا كله مُناظِرٌ ومقياس لما جرى عليه الخطاب الإلهى لبنى إسرائيل وموسى معا فى صعيد واحد برغم اختلاف زمانه ومكانه ، وبهذا يظهر أن هذه الوسيلة من وسائل التكثيف المعروفة فى الزمان والمكان والحدث قد جرى القرآن الكريم عليها فى كثير من قصصه ، وإن كان أكثر المفسرين قد مروا عليها مرَّ الكرامِ ، لم يذكروا فيها شيئًا ، ومعهم عذرهم ! .

ومما يلاحظ على هذا الخطاب أن جزءيه قد تجاورا لم يفصل بينهما إلا الواو ، ولا يكاد السامع يشعر بالتفات المتكلم من خطابه لبنى إسرائيل إلى مخاطبة موسى إلا من الضمير فى (أعجلك) والنداء (يا موسى) ، ومن هذه الواو قبلهما ، وهذه الطريقة بعد تقدير المحذوف فيها من السرد مع لفظ القول ، تشبه ما أشرنا إليه فى مواطن متعددة من هذه الدراسة وتضاف إليه- من طرق توزيع الخطاب من قِبَلِ المتكلم به بين عدد من المخاطبين ، أو للدلالة على حدوث أمر فى ساحة العرض لا يراد قطع المحاورة بالتنبيه عليه أو وصفه بالسرد ، أو للدلالة على تحول المتكلم من الجهر إلى الإسرار أو العكس ، وغيرها مما تعد إجادة تركيبها مقياسًا بالغ الحساسية لبراعة الكاتب ودقته فى

---

(١) انظر : الرازى ١٥/٩٠ - ٩٦ .

اختيار ما يعبر عن مراده من العبارات التى يضعها على لسان شخوصه ، أو يصفها به ، وهى من دقائق المحاورات القصصية والمسرحية .

وقد استعمل القرآن الكريم فى محاوراته أساليب أدت هذه المفاهيم على نحو فريد ، حيث أبرز المعنى المطلوب أداؤه من خلال المحاورة أو الخطاب مع أقل إشارة ممكنة فى السرد أو بدون إشارة على الاطلاق اكتفاء بتوجه الخطاب فى حد ذاته . وقد تحقق هذا بإحدى وسيلتين: حذف لفظ القول بمراتبه المختلفة ، وتكراره .

وقد سبق أن بينا فائدة الحذف فى بيان تحول المتكلم بحديثه من مخاطب إلى آخر ، وكيف أن الخطاب قد أعطى هذه الدلالة من ذات نفسه دون الحاجة إلى اعتراض الحديث بالتنبيه على التفات المتكلم من هذا المخاطب وتوجهه بحديثه إلى ذاك . أو للدلالة على انتقاله من حديث النفس حال الإسرار ، إلى الجهر ، أو من الجهر إلى الإسرار ، أو للدلالة على التحول النفسى فى ذات المتكلم كالانتقال من حال ثورة وغضب إلى هدوء أو العكس ، وكثيرًا ما يرد الحذف أو التكرار للدلالة على انقضاء زمن بين جزئى القول ، وأكثر هذه الأحوال مر بنا متفرقا فى ثنايا هذه الدراسة ، ونريد هنا أن نجمع أطراف هذه الظاهرة ليتبين مدى دقتها واطرادها ، واختصاص كل ظاهرة منها بأحوال ومواقف معينة ، الأمر الذى سيتبين بجلاء من النماذج الآتية:-

١ - ﴿ قَالَ ٱخرُج مِنهَا مَذءُومًا مَّدحُورًا لَّمَنْ تَبِعكَ مِنهُم لأَملأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُم أَجمَعِينَ . وَيَٰـَٔادَمُ ٱسكُن أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلجَنَّةَ فَكُلَا مِن حَيثُ شِئتُمَا وَلَا تَقرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف ١٨-١٩] .

٢ -﴿ قَالُواْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِنَآ مُنقَلِبُونَ . وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَن ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِنَا لَمَّا جَآءَتنَا رَبَّنَآ أَفرِغ عَلَينَا صَبرًا وَتَوَفَّنَا مُسلِمِينَ ﴾

[الأعراف ١٢٥-١٢٦]

٣ - ﴿ وَجَآءَ مِن أَقصَا ٱلمَدِينَة رَجُلٌ يَسعَىٰ قَالَ يَٰقَوم ٱتَّبِعُواْ ٱلمُرسَلِينَ .
ٱتَّبِعُواْ مَن لَّايَسئَلُكُم أَجرًا وَهُم مُّهتَدُونَ . وَمَالِيَ لَا أَعبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيهِ
تُرجَعُونَ . ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً إِن يُرِدنِ ٱلرَّحمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغنِ عَنِى
شَفَٰعَتُهُم شَيئًا وَلَا يُنقِذُونِ . إِنِى إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ . إِنِى ءَامَنتُ بِرَبِكُم
فَٱسمَعُونِ . قِيلَ ٱدخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيتَ قَومِى يَعلَمُونَ ﴾

[يس ٢٠-٢٥]

٤ - ﴿ يَٰبَنِى إِسرَاءِيل قَد أَنجَينَٰكُم مِن عَدُوِكُم وَوَاعَدنَٰكُم جَانِبَ ٱلطُّورِ
ٱلأَيمَنَ وَنَزَّلنَا عَلَيكُمُ ٱلمَنَّ وَٱلسَّلوَىٰ . كُلُواْ مِنَ طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا
تَطغَواْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيكُم غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيهِ غَضَبِى فَقَد هَوَىٰ . وَإِنِى
لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهتَدَىٰ . وَمَآ أَعجَلَكَ عَن قَومِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه ٨٠-٨٣] .

٥ - ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُواْ
لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ
لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا
وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ .

٦ - ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِئُكُم بِتَأوِيلِهِ
فَأَرسِلُونِ . يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأكُلُهُنَّ سَبعٌ
عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَٰتٍ خُضرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِى أَرجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُم
يَعلَمُونَ ﴾ [يوسف ٤٥-٤٦] .

٧ - ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيدِكُنَّ إِنَّ كَيدَكُنَّ عَظِيمٌ
يُوسُفُ أَعرِض عَن هَٰذَا وَٱستَغفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلخَاطِئِينَ ﴾

[يوسف: ٢٧- ٢٩]

٨ - انظر المقتطفات رقم ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١٣ من سورة هود وسورة غافر فيما سبق فى الفصل الثانى من هذا الباب .

٩ - ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ . رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّٰلِحِينَ . فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات ٩٩-١٠٠] .

١٠ - ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ . وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الأنبياء ٥٦-٥٧]

١١ - ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا . قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء ٦١-٦٢] .

١٢ - ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ . قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ . فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ . قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ .

١٣ - ﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ . قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ . قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل ٢٩-٣٢]

١٤ - ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ . ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ . قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ

يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾ [النمل ٣٦-٣٨] .

١٥ - ﴿ قال الذى عنده علم من الكتب أنا ءاتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رءاه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى ءأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ .
[النمل ٤٠-٤١]

١٦ - ﴿ قال يقوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا ﴾ [نوح ٢-٥] .

١٧ - ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ [الأعراف ٢٤-٢٥] .

١٨ - ﴿ فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بئالهتنا إنه لمن الظلمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا ءأنت فعلت هذا بئالهتنا يإبراهيم ﴾ [الأنبياء ٥٨-٦٢] .

١٩ - ﴿ وجوزنا ببنى إسراءيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يموسى اجعل لنا إلها كما لهم ءالهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وبطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العلمين ﴾ [الأعراف ١٣٨-١٤٠] .

٢٠ - ﴿ قال اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون

رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغفِر لَنَا وَٱرحَمنَا وَأَنتَ خَيرُ ٱلرَّاحِمِينَ . فَٱتَّخَذتُمُوهُم سِخرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوكُم ذِكرِى وَكُنتُم مِنهُم تَضحَكُونَ . إِنِّى جَزَيتُهُمُ ٱليَومَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُم هُمُ ٱلفَآئِزُونَ . قَـٰلَ كَم لَبِثتُم فِى ٱلأَرضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾ [المؤمنون ١٠٨-١١٢] .

بيان ببعض سمات هذه المواضع وخصائصها الفنية

الرقم	الشاهد	المرحلة الفنية	التغير	الغايـــة	ملاحظات وعلاقات
١	ويا آدم حذف قول	تصعيد	تحول من مخاطب إلى آخر	تحقيق الحضور فى العرض بحذف السرد	انظر ١١، ١٧
٢	ربنا حذف قول	تصعيد لذروة	تحول من مخاطب إلى آخر	تحقيق الحضور وتأكيد شهود الله لمواقف عباده	انظر ٥،٩
٣	إنى آمنت حذف قول	ذروة	تحول من مخاطب إلى آخر	تحقيق الحضور	
٤	وما أعجلك حذف قول	تصعيد	انتقال وتحول	تقوية روح العرض مع الدلالة على الانتقال	تحقيق القفزة فوق رءوس الأحداث
٥	ربنا حذف قول	تصعيد	تحول من مخاطب إلى آخر	حضور الذات العلية	شبيه برقم ٢، ٩
٦	يوسف حذف قول	انقلاب	انتقال وتحول	تقوية روح العرض مع الدلالة على الانتقال	تحقيق القفزة فوق رءوس الأحداث
٧	يوسف حذف استغفرى قول	تصعيد	تحول من مخاطب إلى آخر أكثر من مرة	تحقيق الحضور فى العرض	ليس فيه تأخير ولا انتقال
٨	ويا قوم (مرات كثيرة) حذف قول	تصعيد مكثف	تكثيف لعناصر الزمان والمكان والموضوع	اختصار الزمن	
٩	رب حذف قول	تصعيد	تأخير وتكثيف	التأكيد على حضور الذات العلية	شبيه برقم ٥ ، ٢
١٠	وتالله حذف قول	تصعيد	تحول من جهر إلى إسرار	تحقيق الحضور فى العرض بحذف السرد	

ملاحظات وعلاقات	الغايـــة	التغير	المرحلة الفنية	الشاهد	الرقم
وازن ١٠ ، ١٢	بيان فعل المتكلم أو لعله بعض ما حذف من السرد (إسرار بعض قوله)	تحول من جهر إلى إسرار	تصعيد	قال أرأيتك تكرار قول	١١
	لبيان أن الأول حديث جانبى تحولوا منه إلى مخاطبته	تحول من إسرار إلى جهر	تصعيد للذروة	قالوا ياموسى تكرار قول	١٢
	الدلالة على المحذوف من قول الحاشية.	تحول من تلاوة إلى خطاب	تصعيد	مسلمين قالت تكرار قول	١٣
بيان ما حذف من السرد وانظر ١٨	بيان أن القول الثانى تم بعد انصراف المخاطب الأول بزمن وكأنه مشهد جديد	تحول بالخطاب إلى آخر بعد انصراف الأول	تصعيد	قال يأيها تكرار قول	١٤
انظر ٧	للدلالة على أن حديثه الأول كان حديث نفس	تحول من تكلم إلى خطاب	تصعيد	قال نكروا تكرار قول	١٥
بخلاف ٢، ٩،٥، لأنه ليس دعاء	غلبة السرد والانتقال من الرواية إلى الاسترجاع	تحول من مخاطب إلى آخر	تصعيد	قال رب تكرار قول	١٦
انظر ١١،١	بيان طبيعة الانتقال والفارق الزمانى والمكانى أو جواباً لسؤال محذوف .	انتقال وتحول	انفراج	قال فيها تكرار قول	١٧
انظر ١٤	الدلالة على التغير الذى حدث بدخول شخص فى الساحة	تغير وتحول	تصعيد للذروة	قالوا أأنت تكرار قول	١٨
	دليل على محذوف قول من اللجوجين المعاندين	تكثيف	تصعيد	قال أغير تكرار قول	١٩
	دليل على محذوف قول من أهل النار	تكثيف	نهاية	قال كم تكرار قول	٢٠

إننا نجد أنفسنا هنا بإزاء ظاهرتين متعارضتين ، كما تبدوان للوهلة الأولى ، بل تناطح كل منهما الأخرى ، فكل موقفين متشابهين من المجموعتين: الأولى من رقم ١ إلى رقم ١٠ ، والثانية من رقم ١١ إلى رقم ٢٠ . حيث نجد المتكلم ينتقل بخطابه مرة من الإسرار إلى الجهر أو العكس فيتصل حديثه ولا يقطعه لفظ القول أو غيره بين خطابيه ، وأخرى نجد لفظ القول يتكرر بين قوليه المتتابعين ! ! وكذلك الذى ينقل خطابه من مخاطب إلى آخر يتصل خطابه مرة ، ويتكرر فيه لفظ القول أخرى ، والذى يدل حديثه على تغير الزمان أو المكان أو الأشخاص أو حتى الحالة النفسية نجده يتصل كلامه مرة ، ويقطعه لفظ القول مكررًا فى الأخرى ، فأى شىءهذا ، وما تعليله ؟ إن كانت له علة !

هناك مقولتان شاّعتا فى الصفحات السابقة من هذه الدراسة ، وألحتا علينا إلحاحًا كبيرا :

أولاهما: أن الحذف فى المحاورة يحقق حضورًا فى العرض .

وثانيتهما: أن القول يعد سردًا وحذفه يقوى روح العرض فى القصة ، وإثباته يقوى روح الرواية فيها . وقد تفرع على هاتين المقولتين بعض المسائل التى سنجدنا فى حاجة إلى استحضارها وتذكرها فى أثناء عرضنا لهذه الآيات التى حملت الظاهرتين المتناقضتين السالف بيانهما .

غير أن هذه المقولات قد تتوارى خلف غايات لها خصوصية ذات شأن فى مواطن معينة من القصص المعروضة فى القرآن الكريم ، وسنجد أنفسنا فى حاجة إلى تدبر القصة برمتها فى بعض المواطن من أجل الوصول إلى جلية الأمر فيما استعملته من أساليب عرض القصة فيما يتعلق بالحوار والسرد ولا سيما فيما يتعلق بلفظ القول فى حذفه وتكراره . ونحن ندرك مدى الصعوبة

والحرج الذى وضعنا أنفسنا فيه بمواجهة هذه الظواهر والمواضع ببعضها ، وندرك ايضا أنها اختبار قاس لما قررناه من قواعد وآراء تتعلق بفن القصة فى هذه الدراسة ، ولكن من كانت الحقيقة مبتغاه لا يألو جهدًا فى سبيل الوصول إليها ، ولا يخشى فى الله لومة لائم ما دام خالص النية لوجه الله تعالى فيما يقدم عليه .

ولقد كان ما بحثناه من قبل من المحاورات فيما يقع من الحذف بين أقوال المتحاورين ، أما هنا فالحذف أو التكرار والذكر نجده فى القول أو الخطاب الصادر من متكلم لا يقطعه كلام غيره أو سرد ، وما هو إلا لفظ القول يقع بين جزءى القول ، أو يرد فى ثنايا الكلام ما يدل على أن ثمة موضعا كان حقه لفظ القول ، لكنه حذف لما فى الكلام من دلالة كافية تغنى عنه ، والمواضع التى فيها الحذف ليس من بينها إلا موضع واحد من عالم الغيب ، وسائرها من عالم الشهادة ، وهذا الموضع تحول فيه المتكلم (وهو الله تعالى) من خطابه إلى إبليس؛ إلى مخاطبة آدم بطريقة تدل على حرص السياق على روح العرض وبقاء المشهد دون تدخل من الراوى فيه حيث قال (ويا آدم) ولم يقل (وقلنا لآدم)[1] ، فلم يفصل بين الخطابين إلا بالواو الفارقة ليدل بها على ما حذف ويفصل بين الخطابين فى حين أنه فى الموضعين الغيبيين الآخرين (رقم ١١ ،١٧) نجده يصرح بلفظ القول ، وقد عرفنا من قبل العلة فى تكرر لفظ القول فى كلام إبليس وهى انتقاله من الجهر إلى الإسرار[2] ،أما قوله تعالى ﴿ **قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ فتكرار لفظ القول فيه ضرورة يكمن وراءها معنى دقيق أراد الله

---

(١) الكشاف ٢ /٩٤ : (ويا آدم) وقلنا يا آدم – البيضاوى : ٢٠١ : أى . وقلنا يا آدم .
(٢) راجع الفصل الثالث من الباب الثانى .

تعالى أن ينقله إلينا ، وهو أن كلامه الأول كان أمرًا لهم بالهبوط وهم بعد فى الجنة أما آخره فكان بعد هبوطهم ، ولولا لفظ القول ما تبين هذا الفرق الزمانى والمكانى الفاصل بين القولين . وفى سورة البقرة نجد القصة ذاتها تتحرك قريبا من ذلك ولكن السياق يذكر ما حذف هنا من الموضع الأول ، فيقول ﴿ **وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾حيث تختلف المعالجة هناك إذ إن السرد قد دخل بين كلام الله لأبليس وكلامه لآدم ، أما هنا فقد اتصلا على النحو الموصوف ، وهذا مما بيناه فى الباب الأول من أن القصة تذكر فى موضع ويغلب عليها روح الرواية والراوى ، وفى موضع آخر يغلب عليها روح العرض وهو ما حدث فى الموضع الأول المقتطف من سورة الأعراف ، ولكن يبقى معضلة التعارض بين روح العرض التى ندعى أنها تغلب على القصة فى سورة الأعراف وبين تكرار لفظ القول فى الموضع السابع عشر وهو مقتطف من السورة نفسها والقصة ذاتها .

والجواب على هذا هو أننا لو رجعنا إلى الموضع نفسه من القصة فى سورة البقرة لوجدنا السرد يغلب عليه ، حيث يقول الله تعالى ﴿ **وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ وفيه يسرد تفصيلات الأهباط والتوبة ويكرر الأمر بالهبوط مشفوعا بلفظ القول مرتين ويتبع ذلك ببيان واجبات الانسان على الأرض وما يناله من جزاء على فعله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، وكل ذلك مختصر هنا ومضمر أكثره ، وترك الحوار يتحرك ويحرك الحدث ، وما لفظة القول إلا بديل عما حذف من السرد ودليل عليه ، كما هى دليل على اختلاف مكان ما تلاها من القول وزمانه عما قبله(١) .

---

(١) ليس فيما بين يدى من كتب التفسير شىءتأولوا به هذا الأمر أو عللوا له .

وهناك تعليل آخر أنه ربما كان ما جاء من القول والمقول تاليًا جوابا على سؤال محذوف توجه به آدم لربه مستفسرًا عن بعض ما جاء فى كلامه الأول ، وتقديره: إلى متى هذا الحين يا رب ؟ أو ماذا نعمل فيها: فجاء الجواب:﴿ **فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ .

وهكذا نجد أن القول المكرر قد يكون دليلا على مضمر أو بديلا عن هذا المحذوف ، وهذه مقولة قد يصدقها ويؤكد عليها بعض ما هو آت من المواضع ، ومن ذلك الموضع المذكور آنفا (رقم ١١) الذى تكرر فيه لفظ القول فى كلام إبليس ، الذى قدرنا فيه محذوفا : ثم أسرها فى نفسه و لم يبدها قال أرءيتك هذا الذى كرمت على ...[١] . وهو موضع تحول فيه الكلام من الجهر إلى الإسرار ، ومثله الموضع التالى له(رقم ١٢) الذى تحول فيه الكلام من الإسرار إلى الجهر فى المحاورة التى دارت بين موسى والسحرة وقد أفضنا فيها سابقا وأدخلناها فى موازنة مع سابقتها ، وبعض المواقف الأخرى منها الموضع (رقم ١٠) هنا ، الذى يصف ابراهيم عليه السلام وكيف أسر فى نفسه النية على الكيد لأصنام قومه التى يعبدونها ، وقد وفيناها حقها من الدرس والتعليل من قبل[٢] .

غير أن محاورة موسى وفرعون التى اقتطفنا منها آنفا ما دار بينه وبين السحرة ، قد ولدت لنا موقفا جديدًا ، وقع بين السحرة وفرعون ، وهو موقفهم الإيمانى المشهود فى مواجهة هذا الطاغية حيث نراهم يتوجهون إلى فرعون بكلمات جريئة لا يعتورها خوف من التهديد أو تردد ، ثم ينقلبون متوجهين إلى ربهم بدعاء كله ضراعة ورجاء ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين** ﴾ ، وفيه تحولوا بالخطاب من فرعون إلى الله تعالى مباشرة دون أن

---

(١) انظر الفصل الثالث من الباب الثانى .

(٢) انظر الفصل الثانى من الباب الثانى .

ينص السياق عليه ، أو يذكر لفظ القول . ومثله كل خطاب تحول فيه المتكلم من خطاب البشر إلى مخاطبة الله داعيا إياه ، وهى المواضع الثلاثة التى أرقامها (٢-٥-٩) التى يتكرر فيها ما وصفناه آنفا من التحول من تكليم البشر ومجادلتهم ومخاصمتهم إلى الدعاء ، دون أن يفصل بين هذا وذاك بأى فاصل من سرد أو قول يبين به هذا التحول أو ينبه عليه ، وكأن الله تعالى يريد أن يؤكد على حقيقة أنه معنا أينما نكون وأنه حاضر فى أى مشهد وأية محاورة ، فيتحول المتكلم من مخاطبة البشر إلى مخاطبته ، كما يتحول من مخاطب إلى آخر من سامعيه وشهود محاورته ، وهذا فيما نحسب يوافق ما اصطلحنا عليه بشأن العلاقة بين الحذف ، والحضور فى العرض المشهود ، ويوافق أيضا ما يعتقده المسلم من أن الله معه فى كل حين وفى كل مكان وأنه يسمع له ، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد .

ويبدو أن هذه الخصيصة مقصورة على الدعاء حيث إن نوحًا قد تحول من تكليم الناس إلى تكليم الله تعالى وهو يرفع إليه شكواه من عصيان قومه له ورفضهم اتباعه ، فلم يجىء السياق على النحو السابق وإنما ادخل لفظ القول مكررًا بين كلامه لقومه وكلامه لله تعالى ليكون فاصلا بين هذا وذاك . (وذلك فى الموضع المذكور آنفا تحت رقم ١٦) ، وليس هذا بالطبع هو الفارق الوحيد بين مواضع الحذف الآنفة وموضع التكرار الذى بين يدينا ، وإنما يختص أسلوب سورة نوح بخصائص فنية معينة سوغت هذا التحول من تكليم الناس إلى تكليم ربه ، منها أن أسلوب السرد يغلب عليها والقص ، حيث وردت الأحداث جميعا مروية على لسان نوح الذى خلى بينه وبين هذه الرواية ليقص علينا الأحداث من أول السورة ، فلم يجىء فيها من الكلام منسوبا إلى الله تعالى إلا أربع كلمات بعد الآية الأولى «إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال» هذه واحدة ، والثانية [قال] فى الآية الخامسة ، و[قال نوح] فى الآية الحادية والعشرين ،

والأخيرة [وقال نوح] بعد الآية الخامسة والعشرين التى نرجح أنها أيضا كالآية الأولى من المنسوب إلى الله تعالى ، وباقى السورة من كلام نوح ، وهذه الكلمات الأربع ، فيها لفظ القول يجيء مسندًا إلى نوح حتى ولو كان ما قبله من كلام نوح وهو ما وقع على وجه التحقيق فى المواضع الثلاثة الأولى .

وهنا تبرز خصيصة أخرى فى هذه الرواية على لسان نوح ، أنه قد استعمل أسلوب الاسترجاع أو الاستعادة حيث انقطع عن سرد الحدث فى مرحلة معينة منه وشرع فى عمل تال وهو تكليم الله تعالى ثم فى ثنايا هذا العمل بدأ يسترجع وقائع مما سبق من الأحداث ولم يكن ذكرها من قبل ، فذكرها مفصلة بكل دقائقها حتى انتهى منها ، فعاد يتوجه إلى ربه مرة أخرى بالشكوى والنداء وسرد بعض أفاعيلهم وخطاياهم التى استوجبوا بها عقاب الله الأليم ، وهنا يتدخل كلام الله تعالى مخبرًا نوحًا أو مخبرًا السامعين بما وقع لهم من جراء فعلهم ﴿ **مما خطيئاتهم اغرقوا فأدخلوا نارًا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا** ﴾ ، ويرجع بنا القول بعد ذلك إلى تتمة مقالة نوحٍ التى دعا فيها ربه أن يستأصل شأفة هؤلاء الكافرين المعاندين وكأنه يذكّر السامعين بذلك ، وقد انقسمت هذه الدعوة إلى قسمين أولهما الدعاء على الكافرين وقد تصدره لفظ القول ، وثانيهما الدعاء بالمغفرة له ولوالديه وللمؤمنين ولم يتصدره لفظ القول ، ولا ندعى انه قد حذف ، وإنما ترتيب السياق جعل هذا الكلام معطوفا على ما قبله فلم يحوجه إلى لفظ القول أصلا فصار من جهة الشكل كصور الدعاء السابق ذكرها ، وهذا من توفيقات القرآن بالطبع !

أما ألفاظ القول الآنفة فقد تبين من هذا العرض أن لكل منها داعيته ، حيث إن النقلة من الرواية المباشرة إلى الاسترجاع اتت بلفظ القول فى الآية

الخامسة ، والنقلة من الاسترجاع إلى الشكوى بالرواية بالأسلوب المباشر أتت بلفظ القول فى الآية الحادية والعشرين ، والفصل بخبر الإغراق والحرق أتى بالأخيرة فى الآية السادسة والعشرين

وعموما فالسرد القصصى لا بأس بلفظ القول فيه لأنه يعتمد أسلوب القص والرواية ، وهذان لا غنى لهما عن لفظ القول بعكس العرض للمشاهد الحاضرة ، التى يشبه فيها العرض ، صناعة فن المسرح فإن القول يختفى فيها كما يختفى السرد وهو ما أوضحناه فى مشاهد كثيرة مرت بنا سابقا من القصص القرآنى ، فوجود هذا النوع مع ذاك هو التنويع فى القصة الذى أشرنا إليه آنفا .

وقد تعرضنا فى هذه الدراسة لكثير من الأحوال التى يحذف فيها لفظ القول تحقيقا لغاية الحضور فى العرض ، عند الانتقال من مخاطب إلى آخر كما حدث فى قوله ﴿ **إنى إذا لفى ضلال مبين . إنى آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ . وأكثر منها تأكيدًا على حرص السياق على عدم التدخل فى الحوار قوله على لسان العزيز– يخاطب امرأته ويوسف وينتقل بينهما بالخطاب غير مرة بطريقة خاطفة: ﴿ **إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف اعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾ وهاتان الحالتان نجد الخطاب فيهما حال حضور جميع أطرافه دون ان يطرأ على ساحة العرض ادنى تغير ، بل إنه يتم بسرعة خاطفة كالمباغتة المقصودة تقريرًا لأمر لا يُنتظر إنكاره أو يُتوقع من أحد أطرافه الأخرى المخالفة فيه ، فهو يصدر كالأمر فى الحالين . هنا يصير حذف لفظ القول ضروريا لتحقيق هذه الغايات كلها فى العرض ولو جيء به لعطل عمل ما ذكرنا ، بعكس مواضع التحول من مخاطب إلى آخر فيما تكرر فيه لفظ القول فإننا نلاحظ ان ما جاء بعد القول الثانى قد وقع بعد حدوث تغير ما فى ساحة العرض وعلى وجه الخصوص

فى الأشخاص مرة بخروج شخص ، وأخرى بدخول شخص ، فأماالأولى ففى قوله تعالى ﴿ **فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين** ﴾ فقد أوضحنا فى موضع سابق أن الكلام قبل القول الثانى موجه إلى رسول ملكة سبأ ، ويتضمن أمرًا له بالرجوع ، أى بالخروج من ساحة العرض ، وأن الكلام بعد القول الثانى لا يصح أن يقال فى وجوده ، لأنه تدبير سليمان ضد مليكته ، فما كان ليسمعه وإلا بطل التدبير من أصله ، بل إنه قد قيل بعد أن علم الملك بوصول الرسول عندها وعزمها على المسير إليه مستسلمة بل خروجها عن دار ملكها أيضا ، فالإتيان بالقول هنا كان لهذا ، ولا حذف كسابقه لاتَّصَلَ الكلامان وفسد المعنى كما صورناه . وقد عبر سيد قطب عن هذا بقوله (إنه يترك فجوة نعلم مما بعدها أنها قادمة) [1] .

وها هنا ينبغى تقدير محذوف سرد يدل على ما بينا من المعانى والأحداث الواقعة بين طرفى القول[2] .

وأما الثانية ففى موضع اشبعناه درسًا من قبل وما زال بكرا[3] ، وهو قوله تعالى ﴿ **فجعلهم جذاذا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم** ﴾ ففى الآيات أربعة أقوال متتالية– وما أكثرها– مسندة إلى ضمير واحد– فيما يظهر– وهو جماعة الغائبين . فكيف يتفق هذا مع

---

(١) فى ظلال القرآن : ٥ /٢٦٤١ .

(٢) وفينا هذه المسألة حقها فى الفصل الثالث من الباب الثانى .

(٣) انظر هذه الدراسة : صدر الفصل الثالث من الباب الثانى .

طبيعة المشهد الذى قلنا فيما سبق ، وكررنا قبل قليل إنه مفعم بروح العرض ، ومزدحم بعناصر الحضور ، ثم أكدنا قبل وبعد على أن القول من السرد ، وأنه يتعارض وروح الحضور والعرض ، ويُقوِّى على العكس من ذلك روح القص والرواية ويعضدها ؟ ! !

إن حل هذه المعضلة يكمن فى أن القائلين لهذه المقولات المتتابعة ليسوا جماعةواحدة وإنما هى جماعات أقلها اثنتان تتعاوران القول وتتبادلانه على هذا النحو .

فالذى سأل: ﴿ **من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ؟** ﴾ جماعة من الناس ، تختلف عن الجماعة التى اجابتهم بعد- ﴿ **سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم** ﴾ ! والذين طلبوا إحضار هذا الفتى ليسوا هم الذين أخبروا به كما يظهر من السياق ، وإنما الذين قالوا: ﴿ **فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون** ﴾ ! إما أنهم الجماعة الأولى التى سألت ، وإما جماعة ثالثة تدخلت فى الحديث .

وأكثر من ذلك أن الذين ذهبوا لتنفيذ الأمر قد يكونون من بين هذه الجماعات ، وقد يكونون من الحرس أو من الشرطة الموكول إليهم مثل هذه الأمور- أى لهم سلطة الضبط والإحضار . وبالنظر إلى هذا فربما تكون الجماعة التى قامت باستجوابه أيضا من الموكول إليهم أمر الاستجواب كمباحث أمن الدولة ، أو أمن الأصنام ، ورموز النظام فى ذلك الحين ، ومن هذا يتبين أن المجىءبلفظ القول على هذا النحو كان من أجل ما يسند إليه من ضمير ، وهو فى الوقت ذاته دليل ، ونائب عن كثير من المحذوفات التى جرى التنبيه على بعضها من قبل .

أما الشاهد فى الآيات فى هذا الموضع فأمر آخر يتعلق بالموضع الأخير الذى تكرر فيه لفظ (قالوا) وما كان يمكن حذفه أبدًا لأنه فصل بين جزءى

القول– على فرض اتحاد القائل– اللذين فصل بينهما فى الحقيقة تغيُّر وقع فى ساحة العرض ، إذ يستدل من صدر القول على أن إبراهيم غائب عن الساحة وأن الأمر بالانطلاق للمجىء به سيأخذ وقتًا وحركة للتنفيذ حتى يتم إحضاره ومثوله بين يدى مستجوبيه الذين قالوا له ما بعد ذلك من أجزاء القول وعلى رأسها قولهم: ﴿ **أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم** ﴾ .

ولو حذف القول هنا كما بينا فى المواطن الأخرى لاتصل الكلام ولفسد المعنى كما صورناه .

وها هنا أيضا ينبغى تقدير محذوف سرد يدل على ما بيَّنا من المعانى والأحداث الواقعة بين جزءى القول

وكأنما المشهد فى هذه والتى قبلها قد سلم للعرض وأمن من مزاحمة القول فأطلق العنان فيه للفظ القول كما رأينا ، مع طغيان عناصر الحضور الأخرى على المشهد لدلالته على ما يقع من تغير على الساحة ، مستغنيا به عن سرد وقائع هذا التغيير ، وبدلالة القول نفسه على هذا التغيير ، وذلك على العكس من مشاهد أخرى اختصت بالتباعد بين أطرافها فى الزمان أو المكان أو فيهما معا ، فافتقرت بهذا إلى بعض عناصر العرض والحضور فى المشهد فحذف لفظ القول بين طرفى الخطاب الذى قيل صدره فى مكان ، وعجزه فى مكان آخر ، ليُقوِّى ذلك من روح الحضور والعرض فى هذه المشاهد حتى لتبدو وكأنها تقع فى وقت واحد ومكان واحد ، كما فى قوله تعالى على لسان ساق الملك وقد تذكر يوسف ﴿ **أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق أفتنا** ﴾ . وقوله لبنى اسرائيل وموسى ﴿ **يا بنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن . . .** ﴾ إلى قوله ﴿ **وما أعجلك عن قومك ياموسى** ﴾ . فمن البيِّن أن جزءًا من القول قد توجه به المتكلم إلى مخاطب فى مكان ، ثم انتقل إلى مكان آخر ليخاطب آخر بعَجُزِ القول ،

وقد حُذف لفظ القول و لم يُفصل بأى شىءمن السرد بين جزئى القول يبيِّن ما وقع ، وإنما اكتُفِى بدلالة سياق المحاورة على ذلك . وقد وفينا كلا من الموضعين حقه فيما سبق .

كما أننا قد عرضنا لكثير من المواضع فى سورة هود تم تكثيف المحاورات فيها ، وضُمَّت المقولات إلى بعضها دون أن يفصل بينها بقول ، أوبسرد فى الغالب ، وبينا أن ذلك كان من اختصار الآماد الزمنية الطويلة التى تصل إلى سنين ، وقد تصل إلى مئات السنين (كما فى قصة نوح) ، وليس ثمة ما يدعو إلى الإعادة فمن شاء فلينظره فى موضعه[1] .

ومن المواضع الطريفة التى تكرر فيها لفظ القول ما جاء على لسان ملكة سبأ إذ جاءها كتاب سليمان عليه السلام ، وأخذت تتلوه على رجال بلاطها«قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علىَّ وأتونى مسلمين . قالت ياأيها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون» ، وموضع الطرافة هنا أن تكرار لفظ القول مع إمكان حذفه واتصال الكلام واتساقه ، دليل على أمر من أمور البلاطات التى درج عليها أهلها وبرعوا فيها ، وهو ما يسمى بفن تزيين السلطان ، والتخييل عليه بأنه ملك الملوك ، وأعظمهم ، ولا منازع لسلطانه ، ولاراد لمشيئته إلخ هذه التهاويل التى طالما اسقطت عروشا ، وأدالت دولًا ، وقوضت ممالك ، لما تسببه من غرور السلطان وتعاظمه وانتفاخه وانتفاشه وهو فى الحقيقة دون ما يصورون له ويزينون .

فالذى حدث أنه بمجرد سماع الحاشية ، وهيئة المستشارين (المنتفعين) هذه الكلمات الحادة فى الرسالة ، لم يسكتوا وإنما هبوا جميعا ثائرين ، ساخطين ،

---

(١) فى الباب الثانى بفصوله الثلاثة .

متسائلين ، مستنكرين: ومن يكون سليمان هذا ؟ وكيف أتى كتابه ؟ ، وأين رسوله ؟ وأين تقع مملكته ؟ ، وهل هو من القوة بحيث يجترىءعلى ملكتنا ومملكتنا بهذا الأسلوب ؟ لنؤدبنه ! لنفعلن به ولنفعلن ! ! ، كل هذا والملكة صامتة فى انتظار انتهاء هذه الزوبعة التى تعلم جيدًا ما وراءها ، وهى ملكة حكيمة مجربة خبيرة بشئونه ملكها ، وأهل مملكتها ، حتى إذا ما أدركوا ما وراء صمتها من ترقب أن تجد فرصة سانحة لإكمال حديثها؛ «قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ، ما كنت قاطعة أمرًا حتى تشهدون» ولكن القوم استمروا على جهالتهم وعمايتهم ، وجهلهم ببواطن الأمور ، فلم تجد بدًا من تبصيرهم ببعض هذه الحقائق ، فقالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون» .

هكذا نرى أن لفظ القول لم يتكرر إلا فى الظاهر فقط وأن وراءه محذوفا من المشهد لم يدل عليه شيءمن السياق إلا بقاء لفظ القول ، الذى لو حذف لفاتنا إدراك ما دار فى بلاط الملكة مما ذكرنا ، واستنتاجه .

ويبدو أن قصة سليمان مع بلقيس عامرة بهذا النوع من الخطاب ، فهذا موضع ثالث تجود به علينا من كلام سليمان عليه السلام ، وقد استقر عرش بلقيس بين يديه فى أقل من لمح البصر يتوجه إلى ربه بالشكر ثم يتحول إلى جنوده آمرًا إياهم بتنكير العرش ، فى قوله تعالى ﴿ **فلما رآه مستقرًا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون** ﴾ ففصل بين تذكير سليمان بفضل الله وشكره إياه على جزيل نعمائه ، وأمره لاتباعه بلفظ القول ، وكان يمكن أن يمضى الخطاب على نمط قوله تعالى على لسان العزيز ﴿ **إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾

فيحذف منه لفظ القول عند التحول من مخاطب إلى آخر ، حيث إن ظاهر السياق لا يدل على أن ثمة تغييرا وقع فى المشهد ، فما علة ذلك ؟ !

لقد أحدث حصول العرش عند سليمان مفاجأة شديدة هزته بعنف من أجل أن هذا الأمر فى ذاته معجزة تفوق كل توقع وكل قدرة لدى البشر ، ومن أجل أن هذه المعجزة قد تحققت له هو بالذات ، فشعر سليمان بفضل الله الكبير عليه واسكتته المفاجأة برهة من الزمن ، فبعد أن أدى سليمان لربه الشكر الواجب على هذه النعمة بقوله الأول ﴿ **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ! ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى حميد** ﴾فظل صامتاً برهة من الزمن يتفكر فى نفسه فى هذا الفضل وهذه المعجزة ثم ثاب إلى رشده ونظر حوله ، وعاد إلى ما كان فيه من التدبير لاستقبال هذه الملكة فقال لمن حوله «نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون»

وقد كان قوله الأول أشبه ما يكون بحديث النفس إن صمتا وإن جهرًا ، أما هذا فهو أمر موجه لأتباعه باتخاذ هذا التدبير . فهذا من قبيل التحول من الإسرار أو من حديث النفس إلى الجهر ولكن بعد مضى مدة من الزمن ، وقد دل لفظ القول على هذا التأخر والانتظار كما دل أيضا على التحول ، بعكس قول العزيز فى خطابه لامرأته وليوسف فإنه كان على الفور بلا ادنى تأخير؛ يلتفت منها إليه ويتحول منه إليها مباشرة وبلهجة الآمر وسرعته فى الخطاب وبطريقة من لاينتظر مراجعة فى القول ولا يسمح بها . والفارق فى هذا جلى بين الخطابين .

وشبيه بهذا الموقف فى خفاء دلالة تكرار القول فيه قول موسى لقومه عندما طلبوا منه أن يجعل لهم آلها ﴿ **قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبرما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم**

على العالمين ﴾ . ولكننا إذا استحضرنا ما نعلمه عن لجاج بنى إسرائيل وجدالهم أنبياءهم ، وخلافهم عليهم وعلى ربهم ، وتبديلهم دينهم ، وعدم استقرارهم على عقيدة التوحيد واطمئنان قلوبهم بالإيمان ، عرفنا أنه ما قال لهم: ﴿ **أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين** ﴾ إلا أن يكونوا قد ردوا مقالته الأولى بمثل السخف الذى ردوا به عليه عندما طلب منهم أن يذبحوا بقرة ، كأن يكونوا قد قالوا له: ليس مُتَبَّرًا ما هم فيه كما تدعى ، وإنا لنراهم بخير ، ونراهم يغدون ويروحون على آلهتهم بالقرابين ، ويحتفلون بهم فى الأعياد فلم لا نكون مثلهم» فرد عليهم موسى قائلا: ﴿ **أغير الله أبغيكم إلٰهاوهو فضلكم على العالمين** ﴾وقد حذفت مقالتهم هذاستقباحا لها ، ودل عليها القول الذى بقى فى مقالة موسى ، وهذا كثير فى القرآن الكريم ، وقد سبق عرض قول موسى عليه السلام ردًا على من أدعوا انه يأتى السحر: ﴿ **أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون** ﴾ وبيَّنَّا أن من علة حذف مقول القول فيه ما يحمله هذا القول من أفتراء على الحق بما يستقبح ويستبشع ذكره على لسان نبى من أنبياء الله . فهذا عندنا كذاك ، ويبقى أنه قد دل على المحذوف بالقول الثانى الذى بقى بعد الحذف لئلا يتصل الكلام وينسى ما قالوه ، ودل عليه أيضا بمضمون رد موسى عليهم ، ولنا عودة قريبة إلى هذا الضرب من الحذف .

وهناك فئة أخرى أشرنا إلى كثرة جدالهم وخصومتهم ولجاجهم ومراجعتهم ، هم أهل النار ، الذين صورهم القرآن فى كثير من المواضع على هذه الصورة من كثرة الجدال ، ووصفهم قائلا: ﴿ **إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾ . وهؤلاء ورد فى آخر سورة المؤمنون ما يؤكد هذه الأوصاف فى حقهم ، إذ قالوا: ﴿ **ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال اخسأوا فيها ولا تكلمون ، إنه كان فريق من عبادى يقولون ، ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير**

الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون . إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون . قال كم لبثم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادِّين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو انكم كنتم تعلمون ﴾ . ففى هذا الموقف نرى السياق يضرب عند ذكر بعض أقوالهم ويصل كلام الله تعالى لهم ببعضه ، لا يفصل بينه إلا لفظ القول (قال)[1] ، وليس ثمة تعليل لتكرر لفظ القول فى هذا الموضع إلا تقدير محذوف من كلامهم ولغوهم ، جاء بعده وبسببه هذا السؤال من الله عز وجل ليفحمهم ويبطل مطالبتهم بأن يردوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ليعملوا صالحًا .

---

(١) ذكر الزمخشرى أنه والذى بعده فى مصاحف أهل الكوفة (قال) وفى مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام (قل) وأنه على الأول عائد على الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة وعلى الثانى ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار (الكشاف ٣ /٢٠٥) وقرأ حمزة ، والكسائى (قل كم لبثتم) ، و(قل إن لبثتم) بغير ألف فى الموضعين ، وقرأ ابن كثير الأول بغير ألف والثانى بألف . وقرأهما الباقون (قال) بالألف . (كتاب التذكرة فى القراءات ٢ /٥٦٢) وعليه رسمت فى المصاحف هكذا (قٰل) لتوافق القراءات ، بخلاف رسم (قال) فى سائر المواضع . والتوجيه الذى ذكره الزمخشرى لـ (قل) غير مقنع حيث لم نر (قل) بصيغة الأمر على كثرته قد وجه لغير رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا فى أربعة مواضع فى كل منها دلالة واضحة على المأمور به ، أنه غيره ، وليس هنا ما يدل على التوجه به لغير الرسول ، كما أنه لا يستقيم فى المعنى توجيهه للرسول ، فأين هو من ذلك الموقف ، ولا نعطى أنفسنا الحق فى رد قراءة ، ولكنها على الأقل تبدو ضعيفة جدًا فى مواجهة القراءة الأخرى التى عليها غالبية القراء .

كما أنَّ ثمة تناقضًا بين كلام الزمخشرى والقراء فحمزة والكسائى كوفيان وقرءا (قل) فكيف تكون فى مصاحف الكوفة (قال) ، وسائر القراء قرأوا (قال) فكيف تكون فى مصاحفهم (قل) ؟ فلعل كلام الزمخشرى معكوس .

ولقد حرصنا فى درس هذه المواقف العشرين على اقتفاء أثر أى شيءيمكن ان يكون قد ذكره المفسرون بشأنها فلم نجد من بينهم من تنبه لها أو تكلم فيها ، اللهم إلا سيد قطب الذى نبه على بعضها وعلل له أجود تعليل ، وفاته بعض آخر ، كما حرصت على البحث عن اى فروق فنية أو موضوعيه بين مواقف الحذف والذكر فلم اجد غير ما ذكرت ، وكان من بين ما بحثت عنه طبيعة المواقف بالنسبة للموضوع الذى وقعتْ فيه فلم أجد فروقا ذات شأن ، وبالنسبة لطبيعة المرحلة من تركيب القصة فنيا ، وجدنا أنها تختلط وتشترك فى كثير من الصفات بل إن السواد الأعظم منها جاء فى مرحلة التصعيد وبعضها من مرحلة الذروة ، والانفراج أو النهاية ، وبعض هذه المشاهد غيبى وبعضها دنيوى بلا تفريق أو اثر فى الصياغة بعكس مواقف أخرى مرت بنا فيما سبق ، (انظر بيان ذلك بالجداول السابقة) ولهذا توصلنا بعد هذه التحليلات إلى أن كل هذه المواقف هى حالات لها خصوصية معينة فى المواقف التى سيقت فيها وصيغت لأجلها بالإضافة إلى دلالتها على التحول (من مخاطب إلى آخر أو من إسرار إلى جهر ، والعكس) أو دلالتها على الحضور فى العرض المشهود ، كل ذلك بالنسبة لمواقف الحذف ، أما التكرار فقد حققت بعض ذلك لا من خلال ظاهرة التكرار فى حد ذاتها ، وإنما بدلالة لفظ القول على ما حذف من السياق قبله ، حيث تحققت قفزات زمنية ومكانية وتحول فى بعض المواقف ، ومع هذا فما زلت أظن أن هذه المواضع فى حاجة إلى درس متأن راشد من عدة من الباحثين بهدف الوصول إلى كلمة فاصلة فيها ، كما أظن أنا لسنا أول من قال ، ولن نكون آخر من يقول ، وما هى إلا خطوة على الدرب الطويل .

***

ويرجع بنا الحديث إلى أمر يتصل بالقول والقائل والمقول ، وهو ما يطالعنا به القرآن الكريم من حذف لبعض المقولات ، التى قد يستدل عليها بالسياق ،

كالذى مر قبل قليل ، أو يستدل عليها بدلالة ظاهرة من اللفظ ، كما سيأتى .
ولهذا الضرب من الحذف علل عديدة ، أظهر ما فيها هو حاجة الموضوع إلى تغليب روح القصة على روح العرض ، وقد أشرنا من قبل إلى ان كلا الأسلوبين متبع فى القرآن الكريم ، وقد يتناول موضوعا واحدًا بالطريقتين فى موقفين مختلفين كما حدث فى قصة نوح التى عرضت فى سورة هود ، وحكيت فى سورة نوح من قبل راويين اولهما رب العزة وثانيهما نوح عليه السلام حيث جعل انتقال الرواية بينهما القصة وكأنها مقسمة إلى فصول ، وكذلك الأمر فى سورة الجن ، وكلتاهما غلبت فيها روح القصة والسرد ، فخلت من الحوار ووسائل العرض أو كادت ، على الرغم من أن القصة مهما تقهقرت روح العرض فيها وتوارت ، وسطعت روح الرواية وظهر صوت المؤلف أو الراوى الذى يقيمه مقامه ، فإنها لا تستغنى عن المحاورة فى بعض مواقفها أو حكاية قول من أقوال بعض شخوصها ، وصنعة المؤلف المبدع تتجلى فى مقدار ما يسمح به وما يحجبه من هذه المحاورات وتلك الأقوال .

ومعلوم أن ثلاثية القول والقائل والمقول تتحرك مَدًّا وجزرا فى القرآن الكريم ، لحساب ثنائية العرض والرواية على نحو يطرد بانتظام تبين بجلاء فيما توفرنا على دراسته فى هذا الباب من قصص القرآن ومشاهده ، فكما ان روح العرض قد تلغى لفظ القول لتجعل المقولات تتدافع من تلقاء نفسها فى المحاورة على ساحة العرض المشهود ، وأن لفظ القول قد يتكرر للدلالة على تغيرات وقعت على ساحة العرض وغير ذلك ، وأنه قد يلغى أو يتكرر حال القص والرواية على نحو معلوم ، كذلك قد تلغى المقولة ، ويبقى بعض القول او لفظ دال على القول ، أو لفظ القول ذاته ، من أجل تقوية السرد وتغليبه كغاية اصلية ، ولتحقيق غايات أخرى قد تتفرع على ذلك ، وأعظم الأساليب ما أدى غايات متعددة من خلال وسيلة واحدة ، وهذا من مزايا القرآن التى تفرد بها فى إبداعه الأدبى واعجازه الأسلوبى .

ومن نماذج الحذف عند إرادة السرد قوله تعالى عن يونس عليه السلام﴿ **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم** ﴾[1] ومثله قوله ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾[2] وفى الآيتين كلتيهما إشارة إلى قوله تعالى عنه فى مقام آخر ﴿ **فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾[3] . وهذا المقام الذى ذكرت فيه مقالة يونس لا يختلف عن سابقيه إلا فى أمر واحد ، وهو أن المقام الذى سيقت فيه خصص لإبراز ما منَّ الله تعالى به على عباده المخلصين من الرسل والأنبياء بإجابة دعائهم وتضرعهم ، فلزم فيه الإتيان بمقالة يونس ، كغيرها من مقالات الأنبياء التى تضرعوا بها إلى ربهم ، فاجابها لهم . وإن كانت قصة يونس لم تحظ بمقام عرض من القصص القرآنى كغيرها من قصص الأنبياء بحيث يقال إن هذا مقام عرض وغيره مقام سرد ، وإنما سيقت هذه المقالة فى هذا المقام للخصوصية المذكورة . والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما** ﴾[4] ورد فى مقام سرد وإن لم يكن قصة ولا مشهدًا ، ولكنه حافل بالدلالات المفيدة فى تقرير ما نحن بصدده ، إذ الغاية واضحة من حذف المقول المشار إليه وإقامة المصدر (بهتانا) مقامه ، ليكون بمثابة القول فى الانتصاب على تقدير (قولًا بهتانا) أو (بهتوا بهتانا) أو(مباهتين) على الحالية[5] ، وهى بلا شك الإضراب عن تكرار ذكر هذه الفرية على مريم البتول لبشاعتها ، وإقامة

---

(١) القلم : ٤٨ .

(٢) الصافات : ١٤٤ .

(٣) الأنبياء : ٨٧ .

(٤) النساء : ١٥٦ .

(٥) إملاء ما من به الرحمن للعكبرى ١ /٢٠١

الوصف بالبهتان مقامها يؤدى إلى مضاعفة الإحساس ببشاعة ما قالوه ، هذا حق ، ولا سيما أن الله تعالى نهى قبلها بآيات قليلة عن الجهر بالسوء من القول[1] وهوفى هذا شبيه بالعلة فى حذف مفعول (اضرب) فى قوله تعالى﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث** ﴾[2] . حيث اضرب عن ذكر امرأة أيوب فى مقام مهانة إجلالًا لها عن ذلك لتفانيها معه فى مرضه . وما دام مقول القول قد استوى فى تعليل الحذف فيه مع المفعول فى غيره من الأفعال فإن التوقف عند ذلك ليس كافيًا ولا سيما أن القرآن حكى فى هذا الموقف وفى غيره فى هذه السورة وفى غيرها كثيرًا من اقوالهم . على بشاعتها ، ولم يضمرها ، وفيها ما نسب إلى الله تعالى السوء كما أنه حكى فى موقف آخر ما واجهوا به مريم من البهتان ، فى مشهد دخولها عليهم بوليدها المعجزة ،إذ﴿ **قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا**[3] ، فلا بد إذًا من البحث عن علة أخرى تضاف إلى العلة السابقة لإضمار مقالتهم حيث إن التعليل للإضمار بحجب ما لا يحمد ذكره ووصفه وعرضه أمر يستوى فيه مشاهد العرض ومشاهد السردوهو من المسلمات الفنية من قديم ولكل طريقته؛ فالإضمار فى مشاهد السرد يجوز الاستعاضة عنه بوصف يطلقه الراوى ملمحا إلى المحذوف أو معرضا به ، كما حدث هنا . أما فى العرض فله أساليب كثيرة تبينت فيما عرضنا من مشاهد خلال هذه الدراسة .

ومن البين أن المقام هنا ليس مشهدًا حاضرًا ، وليس أيضا حكاية ، فالمشهد الحاضر لابد فيه من تبادل الحوار بين الحضور من أطرافه ، والحكاية

---

(١) النساء : ١٤٨ .

(٢) سورة ص : ٤٤ .

(٣) مريم : ٢٧ - ٢٨ .

لابد لها من روح الحكاية ذات الأطراف من الفاعلين لحوادثها ، وذات الأطراف الفنية أيضا من بداية وأحداث مترابطة وعقدة وذروة وانفراج ، وليس ههنا شيءمن ذلك ، ولهذا نجد أكثر المحكيِّ فيها من أقوال بنى اسرائيل هو من قبيل إقامة القول مقام الوصف ، كحكاية قولهم﴿ **قلوبنا غلف** ﴾[1] أو قول تعبيرى كقولهم ﴿ **إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله** ﴾[2] . الذى لا يعقل أن يكونوا قد قالوه بنصه على وجه الحقيقة أو يعنون به ظاهره ، إذ كيف يصفونه بأنه رسول الله وهم يكفرون به ، وقد أفاض المفسرون فى توجيه ذلك بما لا مزيد عليه[3] وما هو إلا ادعاء كاذب بقتله وتهكم عليه بقولهم رسول الله ، وإن فيه من التعبير عن حالهم ما يجعل المحقق كأنه ينظر إليهم فى موقفهم البيِّن فى افترائه المخزى ، وحالهم المثير للاشمئزاز .

أما هذا الوصف القائم بين هذا وذاك فى قوله تعالى ﴿ **وقولهم على مريم بهتانا عظيما** ﴾ فقد افتقد العلة فى الذكر حكاية للقول وصفا أو تعبيراً ، فرجع السياق به إلى أصل مقتضى الحال فى السرد ، وهو- كما بينا آنفا- العدول عما فيه روح الحوار بالتقليل من الأقوال ما أمكن ، فكان حذف المقول من مقتضيات هذا الموقف وإن ذكر فيه لفظ القول . وهذا من الأمور الدقيقة التى يعد تبينها أشبه بالسير فى حقل الغام لا يدرى فيه كيف الوصولُ إلى بر الأمان .

ومن هذا القبيل ايضا قوله: ﴿ **واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب** ﴾[4] فقد تواترت الأخبار فى هذا الذى يُنادَى به يوم القيامة[5] ،

---

(١) النساء : ١٥٥. وقد عرضنا فى صدر هذا الباب لهذا النوع من الأقوال .
(٢) النساء : ١٥٧ .
(٣) الرازي ١١/١٠٠ - ١٠٢ ، القرطبي ٦/٩- ١١ ، الطبرى ٩/٣٦٧: ٣٧٦ .
(٤) سورة ق : ٤٨ .
(٥) الرازي ٢٨/١٨٧ - ١٨٩ .

مؤكدة على مقول هذا النداء ، وانه محذوف فى هذا المقام ، وهذا الحذف يأتى فى مقام متأخر من السورة التى حفلت بمشاهد من أكثر مشاهد الغيب حضورًا ، وفيه موقف هو نظير هذا ، وهو قوله ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾[1] ، والذى يتدارس السورة يتبين له أن المشهد قد انقضى وان أخريات السورة هى حديث موجه إلى النبى ﷺ يوصيه ببعض الوصايا بناءً على ما تقدم فى السورة ، فتحول المقام من مقام عرض إلى مقام سرد ، مما يستحب فيه تجنب المقولات ، وعليه حذف ما ينادى به المنادى ، ولا يتعارض ذلك مع ما سيق عند المفسرين من علل لذلك الحذف .

ومن هذا القبيل موقفان فى سورة يونس سبق أن عرضنا لأحدهما وافضنا فيه فى الباب الثانى ، وهو قوله تعالى على لسان موسى ﴿ **اتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا** ﴾[2] ، والآخر هو قوله تعالى للرسول ﷺ ﴿ **ولا يحزنك قولهم . إن العزة لله جميعا** ﴾[3] الذى يقف القراء فيه وقفا لازما على قولهم تاكيدًا على القطع التام لبيان أن قوله تعالى ﴿ **إن العزة لله جميعا** ﴾ليس هو مقول هذا القول[4] وأن المقول محذوف ، وهذا المحذوف يمكن استنتاجه بمراجعة السورة من أولها لنجد أنهم قالوا له ما جاء فى قوله تعالى ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾[5] وهذا نظير ما قاله قوم موسى له فى السورة نفسها ، ﴿ **فلما**

---

(١) سورة ق : ٣٠ .

(٢) سورة يونس : ٧٧ .

(٣) يونس : ٦٥ .

(٤) كتاب القطع والاستئناف ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٥) يونس : ٢ .

جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾(1) وبهذا يحق لنا أن نذهب إلى ان ثمة محاذاة بين قصة موسى عليه السلام وقصة الرسول ﷺ مع قومهما ، من جهة الموضوع ، اما من ناحية الصياغة الفنية فإن القرآن يستعمل فى الحالتين وسيلة الحذف فى الحالتين المتناظرتين ، وفى موضعين متساويين من كل حالة ، بل إن المحذوف يكاد يكون واحدًا فى اللفظ والمعنى ، وهو قول الكافرين بالرسول فى الأولى ﴿ **إن هذا لساحر مبين** ﴾ ، وقول الكافرين بموسى فى الثانية ﴿ **إن هذا لسحر مبين** ﴾ وكنا قد أشرنا آنفا إلى أن علة الحذف فى كلام موسى عليه السلام تتلخص فى توقفه وعجزه عن النطق بمقالتهم ، لأمور فى طبيعة موسى عليه السلام برع السياق فى التعبير عنها بهذا الحذف ، كما برع فى إحياء الموقف بتجسيد موسى بكل انفعالاته وأحاسيسه ومشاعره ، ونبرات صوته وجرس كلامه ، ووقع كلام معارضيه عليه ، وكل ذلك من خلال هذا الحذف والاستفهام الإنكارى التالى له .

أما الموقف الآخر الذى حذف فيه من خطاب رب العزة للنبى ﷺ حكايته لمقالة الكافرين ، فإننا لا نجد العلة السابقة تصدق عليه فى شىءمن جهة المتكلم- جل الله تعالى- أو من جهة المضمون؛ أعنى بشاعة الوصف ، أو من جهة الموقف؛ أعنى من الوجهة الفنية ، فخطاب الله تعالى للنبى ﷺ ليس فى مشهد أو قصة وإنما هو فى مقام إنشاء ، إن اجتهدنا فى تقريبه من موضوعنا وصفناه بأنه سرد غير قصصى ، فلا ينطبق عليه شىءمن مقتضيات المواقف القصصية سردًا أو حوارًا .

ولكن لابد لكل حذف فى الأسلوب من علة ، ولئن بدا مما سبق من

(1) يونس : ٧٦ .

كلامنا أن الكلام عن هذا الموضع ليس فى موضوعنا ، فهذا من وجهة نظر جزئية ، أما إذا اتسعت نظرتنا لتشمل النص القرآنى للسورة كلها ، فإننا واجدون فيها مثل ما وجدنا من قبل فى سورة هود من التناظر الأسلوبى والفنى بين مطلع السورة ، وبداية حديثها عن نوح عليه السلام[1] من جهة حذف لفظ القول فيهما ، وما نتج عنه من مزايا للمشهد القصصى والموقف ، حيث توصلنا إلى أن هذا التناظر الفنى مقصود لتنبيه السامع إلى وجه الشبه بين قصة نوح وأخيه محمد عليهما السلام ، وأن مصير من يكذب محمدًا هو مصير من كذبوا نوحًا قبله ، ونحن ههنا واجدون ظاهرة اخرى من ظواهر هذا التناظر الأسلوبى والفنى التى نأمل ان يتنبه لها ويتعقبها الدارسون ، وأحسب ان وراءها سرًا عظيمًا من أسرار إعجاز هذا الكتاب ، ولولا أن نشق على أنفسنا وقرائنا ونتكلف الاستطراد إلى ما يخرجنا عن موضوعنا لقمنا به ، وإنما يكفى أن نقدم هاتين الظاهرتين كنموذجين لظاهرة يمكن أن يستنبط منها أسباب جديدة لوظيفة القصة فى القرآن الكريم .

لقد قدم السياق هنا فى سورة يونس– كما فعل هناك فى سورة هود– موقفين متشابهين من قصة موسى التامة الحلقات ، وقصة محمد مع قومه التى لم تنته بعد ، واستعمل فى كل منهما الحذف ، لكلمات بعينها ، حيث قال قوم موسى له إنك لساحر وقال قوم محمد له كذلك ، فكانت عاقبة المكذبين بموسى أن دمرهم الله بالإغراق ، وكانت عاقبتهم النار . فإذا حاذى السامع بين الموقفين أيقن أن عاقبة من يكذب محمدًا هى عاقبة من كذب موسى ، فكأن ذكر قصة موسى تحذير له من مغبة المخالفة ، ويجىء دور الحذف الفنى فى قصة موسى لتحقيق ما ذكرنا آنفا ويجىء الحذف المناظر فى خطاب الله تعالى للنبى ﷺ ليعين السامع على المحاذاة ويرشده إلى تبين ما يراد من سوق

---

(١) راجع الفصل الثانى من هذا الباب .

القصة وهو أن يستنتج أنه ما دام ما تقدم من هذا الأمر كذاك ، فكذلك عاقبته كتلك .

فالقرآن الكريم إذًا يعمد إلى هذه الأساليب الفنية لتحقيق غايات تتعلق بمضامينه من جهة ، وتبرز إعجازه البيانى من جهة أخرى لتقدم دليل صدق هذه الرسالة العامة الخالدة بما يتجلى لكل جيل من البشر من وجوه هذا الإعجاز ليقيم عليهم الحجة ويلزمهم بها .

الفصل الأخير

قيمة الحذف
وعمل الإضمار
فى البناء الفنى للقصة

ويبقى تساؤل ! !

ماذا يعود به علينا هذا النوع من الدراسات ، وما نفع هذه الدراسة على وجه الخصوص للقرآن الكريم ، وعلومه ، وللأدب وعلومه ، وللبلاغة وعلومها ، وهل يعد ما قلناه كافيا فى بابه ، هل توصلنا إلى ما كنا نود التوصل إليه ، وإن لم نكن فماذا الذى قصرنا دونه ؟ ! ! تلك تساؤلات ظلت تلح علىّ طوال مدة إعداد هذه الدراسة وقبل ذلك طوال مدة التفكير فيها قبل البدء . . ايام كنت أعرض الفكرة على الزملاء من البلاغيين ، علّ أحدهم ينهض بها ، فلا أجد عندهم استجابة ، أو اجد استجابة ولكن على نحو من التقليد لا يقدم جديدًا ولا يشفى غليلا ، وحتى الآن بعد الانتهاء من هذه الدراسة . وبعد أن وضعت يدىَّ بجمعهما ، ويدى قارئ فيما أحسب على اشياء ما كنت أحسب يوما ما أن لها وجودًا مطردا منظما كهذا الذى وجدته ، أقول حتى الأن وبرغم كل ذلك أحسبنى ما زلت فى دوامة جارفة فى لجة مظلمة لا أدرى إن كنت وصلت شاطئا آمنا ، أو أننى ما زلت بعيدًا ، ومن أسباب ذلك أن أكثر المادة التى جمعتها لهذه الدراسة ما زالت تحت يدى لم تمس ، ولم تدخل فى إطارها ، ومع ذلك أعود فأؤكد أننى أعى تماما أننى قد اجتهدت ووضعت كل إمكانياتى فى خدمة هذه الفكرة ، وبقى أن أحاول أن ابين للقارىء الفائدة التى تعود على الدرس القرآنى ، وعلى المفاهيم الأدبية من إدراك قصصه وهذا الوجه الجديد من إعجازه على هذا النحو .

إننا فى كل ما درسنا من مسائل الفن والأدب فى القرآن الكريم نضع نصب أعيننا حقيقة أن القرآن الكريم كتاب دين لا فن ، لم نغفل عن ذلك لحظة ، ولا ينبغى أن نغفله ، ولكن ذلك لم يمنعنا من تمثل حقيقتين أخريين لا نغفل

عنهما ، ونحسب أنه لا ينبغى لمسلم أن يغفل عنهما ايضا ، وهما:

أولًا: إن معجزة القرآن الكريم تمثلت فى بيانه وبلاغته ، وهما أمران يتعلقان بالفن تعلقا غير منكور ،ولا يُجهل أمره ، أو يُتجاهل .

ثانيا: ان طريقة الأداء بجميع وسائلها لا تنفصل عن الغاية التى يُساق القرآن لتحقيقها ، فهى التى تؤدى إلى تلك الغاية وتعين على التبليغ من خلال شتى أنواع المؤثرات التى تعمل على العقل والحس والشعور لدى المتلقى .

وقد كان هذان الأمران الدافع الذى يحضنا دائما على مواصلة البحث والدرس فى طرائق القرآن فى التعبير ، ليس فقط من أجل علاقتها بالغايات الدينية ، وإنما أيضا من حيث هى وسائل فنية ينبغى النظر إليها على أنها المثل الأعلى للفن ، وتمثلها واستنباط روابط معينة وقواعد ثابتة منها لتكون منارة يهتدى بها الأدباء والبلغاء والشعراء فيما بعد ، ويهتدى بها كذلك النقاد فى عملهم عند تناول أجناس الأدب المختلفة بالنقد والتحليل .

ولهذا فإننا نقرر أن الاستفادة بأساليب القرآن الكريم فى الأداء ولا سيما فى قصصه ،لا تنفصل عن الاستفادة من التوجيه الذى يحمله القرآن الكريم ويقدمه من خلال هذا القصص وغيره[1] ، وقد رأينا فى دراسة الحذف كيف ان طريقة الأداء قد أفلحت فى حجب ما يستقبح ذكره ووارته ، وإنها قد افلحت فى وصل المشاهد عند رءوس الأحداث ، فضاعفت جرعة الإثارة والتأثير لدى المتلقى ، وكرست وحدة المكان فجعلت الحضور فى العرض حقيقة محسوسة تعمل على حواس المتلقى ، ومشاعره ، وكرست وحدة الزمان فكثفت الأحداث لتعين المتلقى على إدراكها من خلال تصور

---

(١) ونحن نخالف فى هذا ما ذهب إليه محمد قطب فى : منهج الفن الإسلامى / ٢٢٩ ، من قصر الاستفادة على التوجيه دون طريقة الأداء .

متكامل ، وكل هذه أمور تتصل بغايات القرآن ومقاصده ، وتحققت من خلال طريقة الأداء التى هى فى الأصل لب معجزة القرآن .

وإن السياق القرآنى كما رأينا ليحفل بما لا حصر له من وجوه الحذف حتى إننى لأتصور أنه لو لم يحذف منه ما حذف على هذا النحو المعجز ، لكان الذى يريد أن يقتنى نسخة من القرآن ينبغى عليه أن يكون من الأثرياء ليقدر على تكلفة نسخ القرآن أو طباعته ، ويحمل نسخته على سيارة نقل بضائع ضخمة ثم يعد لها بيتا خاصًا بها يسعها ، إذ إنها ستكون مكونة من عدة عشرات أو مئات من المجلدات ، وتحتوى على عشرات الألوف من الصفحات ، ولكن شاء الله تعالى أن يجعل كل محتوى هذه المجلدات الضخمة ذات الصفحات الكثيرة موجزة فى هذا الكتاب المتوسط الحجم الذى يتمكن من حفظه عن ظهر قلب ملايين من المسلمين فى كل زمان .

ولقد اتسم هذا الكتاب ببلاغة عجيبة جعلها الله تعالى هى رأس إعجازه ، وجعل لقصصه وجها من الإعجاز الخاص ظل بكرًا لم يكشف عنه إلا فى العصر الحديث ، بعد أن عرف البشر معنى «القصص الفنى» وما بنى على هذا الفن الحديث من فنون صناعية ولدتها الحضارة الحديثه ومخترعاتها وثورة أجهزة الإعلام ، هنالك أدرك بعض الدارسين والمتخصصين أن كثيرًا من قواعد هذه الفنون ووسائلها ، قد سبق إليها القرآن الكريم ، دون أن يكون مزودًا بشىءمن هذه الوسائل ، إلا الكلمة التى من خلالها صنع كل وجوه الفن فى الحبكة القصصية ، وعلى نحو ما زال كتاب هذه الفنون عيالا عليه وسيظلون آمادًا بعيدة كذلك .

ولنتصور كاتباً معاصرًا يحاكى قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ ، ثم يأخذ كاتب «سيناريو» القصة ليضع لها السيناريو تمهيدًا لانتاجها فى «فيلم سينمائى» ونحن الأن مع المخرج الذى كلف بتولى مهمة إخراج القصة وبين يديه القصة ، والسيناريو ، والقرآن الكريم .

قصة فيها عشرات الآلاف من الكلمات ، من وصف لأشخاص ونفوسهم ، وبلاد ، وحكام ، وملوك وسوقة ، وطبيعة ، وطرق وقوافل ، ومقابلات ومحاورات ، وصراعات وتعقيدات ، وحلول ، أفراح وأتراح . كل ذلك بتفصيل لا يترك لعقل المخرج فرصة ليبدع شيئا من عنده .

و«السيناريو» ، سار على نهج القصة فحمل صفحاته من المناظر والملابس والتحركات ما لا طاقة لعمل فنى يستغرق ساعتين على الأكثر بتحمله ! فيجيىء صاحبنا إلى النص القرآنى للقصة فيجد أحداثا مثيرة وأعاجيب وغرائب تشد إليها أى مطالع أو سامع ، وتؤثر فى نفسه إلى أعماقها ، على الرغم من أنها لا تعدو صفحتين من الحجم المتوسط اى اقل بكثير من حجم قصة قصيرة أو اقصوصة ، فما بالك برواية !

إننا نحسب أن صاحبنا لن يقتنع أبدًا بما كتبه له المؤلف ولا بما كتبه كاتب «السيناريو» ، إذا هو تعمق مضامين النص القرآنى والنسق الذى أخرجت فيه الفاظه وأساليبه والتنويع فى استعمالاته لموافقة المضامين ، وفى ترك الفضول ، والقفز بين الذرى لإبقاء المُطالِع أو السامع فى حالة تنبه وحذره وتحفزه ، والاستعانة بعناصر المفاجأة ، والعناصر الغيبية ، وحبك العقدة وسبك الأحداث بحيث يؤدى تشابكها وتصاعدها إلى عقدة منطقية . غير مفتعلة وحل مقنع على وجه الضرورة أو حتى على وجه الاحتمال القوى ، كل ذلك بالتدبر الواعى الذى يرقى إلى مستوى إدراك النص القرآنى بالنفس والعقل معا كفيل بأن يجمع كل هؤلاء على مائدة الدرس الأدبى فى حالة من الاستسلام الراضى أو الصاغر ليتعلموا من جديد كيف يكون القصص الفنى ، وكيف يكتب «السيناريو» ، وأيضا كيف يكون الإخراج السينمائى لقصة من القصص .

فهذه القصة التى تشبه البرقية القصصية إذا ما قيست نسبيا إلى حجم القصص القصيرة وموضوعاتها ، أضافت زمنا رابعًا إلى الأزمان الثلاثة التى سبقت الإشارة إليها وهى : الزمن الحقيقيو والزمن النسبى وزمن العرض ، ولا أدرى ماذا اسمى هذا الزمن الرابع ولكنى اصفه بأنه هو الطريقة التى استعملها السياق القرآنى للتعبير عن القدرة الخارقة لسليمان ومن سخرهم الله من جنوده ، كالذى عنده علم من الكتاب ، والهدهد ، وغيرهم ممن لم يصرح بهم فى السياق ، على قطع المسافات فى أقصر الأوقات ، فليكن اسمه مؤقتا زمن الخوارق .

كما تضمنت هذه القصة من الأحداث والحوادث ما يوصف فى مجلدات فكانت كافية شافية بما وصفت وذكرت ، وأيضا بما اضمرت وتركت ، وهذه الأحداث الطويلة نجح السياق فى التعبير عنها كلها ، بأسلوب فنى لا خبرى ، أى من خلال حبكة قصصية ذات مراحل وعقدة وذروة وحل ، وبالتصوير بأنواعه المختلفة ، وإذا كنا قد عرضنا لبعض ذلك فيما سبق بالتفصيل فإننا هنا نجمع خيوط ذلك فى هذه القصة كنموذج لبيان أثر ظاهرة الحذف فى القصص القرآنى ، ولكننا لا نكتفى بهذا وإنما نضيف بعض الرؤى الفنية إلى ما استخرجناه سابقا من سماتها ليتبين من المجموع ، كيف ضمت هذه القصة «البرقية» حشدًا هائلًا من عوامل البناء الفنى للقصة بلغ حدًا يفوق الإعجاز .

١ - بدأت القصة بالتعريف بسليمان: وهو مرحلة مهمة من مراحل القصة تظهر لنا فيها شخصية البطل ، وصفاته وأخلاقه وأعماله ، ومكانته بين من حوله .

فعرفنا ما آتى الله سليمان من حكمة وملك وسلطان على مخلوقات الله تعالى من إنس وجن وطير وحيوان . وكان هذا الجزء الأول من التعريف ،

أما الجزء الثانى فكان قصة عرضية . هى قصة النملة التى ترمى إلى إبراز صفة عجيبة فى سليمان ، ونعمة أنعم الله بها عليه وخصه بها من دون غيره من البشر ، وهى قدرته على تكليم سائر الكائنات وسماعها وفهم لغاتها ، مهما تناهت هذه الكائنات فى الصغر ، بالإضافة إلى بيان مدى قوته وجبروته إلى ضعف هذه الكائنات وضآلتها ، وهو مع ذلك يرحمها ويرفق بها .

٢ – وتبدأ أحداث القصة بسرد خبر الهدهد الذى يدل على مدى إحاطة سليمان بما سخر الله تعالى له من الجند ويقظته ، حيث أدرك غياب هذا الهدهد ، وهذا من بدهيات الأمر .

كما أنه قال إنه مكث «غير بعيد» وجاء من سبا بنبأ ، أى أنه قد رحل من الشام إلى اليمن ورجع فى زمن قصير جدًا ، مما يدل على أنه ليس هدهدًا عاديا وإنما هو مما سخر الله له من خوارق الكائنات .

وهذه الإشارة إلى طى الزمان والتغلب على المسافات هى إشارة ظاهرة لا تبلغ الحد الذى بلغته الإشارات المطوية المضمرة التالية فى إعجازها الفنى القصصى ، ولا تعد شيئا يذكر عند النظر إلى ما عبر به القرآن عن وسائل الانتقال الربانية التى تطوى الزمان والمكان وما عبر به عن وسائل البشر فى الانتقال ، كما سنرى بعد قليل .

٣ – فى صدر القصة ترِد إشارة عابرة إلى عرش الملكة فى كلام الهدهد ، وسنجد أن هذا العرش فيما بعد كان له دور مهم فى إحداث التغير فى نفس الملكة ، كما أن نقله على نحو إعجازى فى طرفة عين بواسطة أحد جنود سليمان ، يظهر مدى ما أمد الله سليمان به من جنده وأيده به ، وهذه الخوارق من الأمور المستحبة فى القصص الفنى ، المدعوم بالخيال ، فكيف بها إذا ما سيقت من باب الحقائق ، وفى القصص الحق .

وهذا التقديم بذكر العرش فى صدر القصة ، من الأمور المهمة ، حيث

إن القصة الفنية لا ينبغى أن يظهر فيها شيءفى آخرها ويكون مؤثرًا؛ دون أن يكون قد أشير إليه فى بدايتها وإلا صار أمرًا يحدث على غير توقع على نحو مخالف لما ينبغى أن يحدث على سبيل الضرورة أو الاحتمال ، فيكون بيِّن الافتعال . بعكس المفاجآة القصصية فهذه شيءآخر .

٤ – إدخال العناصر غير البشرية والخوارق ، ووصف الأعاجيب من هذه العناصر والخوارق ووصف البديع من صنعة سليمان وجنوده وما أمده الله به ، والمناظر الخلابة والتصوير الفتان ، وكل ذلك من خصائص القصة الفنية الجيدة كما بينا غير مرة .

٥ – المحاورات الدقيقة المتلاحقة فى القصة حملت كثيرًا من الأحداث التى دارت خارج ساحة العرض ، ونهضت بعب ء تحريك أحداث القصة والسير بها إلى ذروتها وحتى النهاية .

٦ – تكرار لفظ القول للقائل الواحد ثلاث مرات فى القصة: مرتين فى كلام سليمان ومرة فى كلامها على النحو المفصل فيما سبق مع ما يدل عليه فى كل مرة من الحذف ، بالإضافة إلى دلالة أخرى على مرور وقت على الكلام السابق ، وحدوث تغير فى المخاطبين ، أو تحول من تلاوة إلى خطاب ، أو تحول من تكلم إلى خطاب ، مع دلالات أخرى ستتبين بعد .

٧ – لم يُفصل بين المحاورات التى استغرقت معظم القصة إلا بقليل من السرد فى أضيق حدود الضرورة ، وقد حذف كثير منه ، استُغنى بالحوار عنه أو فُهم من السياق أو الإشارة العابرة فى السرد ويمكن الرجوع إلى المواطن التى تعرضنا فيها للقصة لتبين ذلك[1] .

٨ – اختلف المفسرون فى قوله تعالى ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا**

---

(١) فى الباب الثانى بفصوله الثلاثة ، والفصل السابق من هذا الباب .

مسلمين ، وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ من قائله ؟ . فمنهم من قال إن صدره من كلام الملكة تتمة لقولها «كأنه هو» ويكون عجزه من السرد فى السياق يصف حالها قبل ذلك أو بعده حتى دخولها الصرح ، ومنهم من قال إنه من كلام سليمان وقومه ومنهم من سكت عن الخوض فيه ، وفيه تأويلات وتفريعات أخرى لا تعنينا[1] ولم يقل أحد كلمة فاصلة مقنعة فى هذا الامر .

٩ – فى وصف التحركات التى ينتظر لها أن تستغرق زمنا لبعد المسافة بين مبدأ الحركة ومنتهاها ، انقسم الوصف قسمين :

أحدهما: يصف تحركات جند سليمان واتباعه .

والآخر: يصف تحركات الملكة واتباعها .

ونجد أن الأول الذى يصف الحركة من جانب نبى الله سليمان يحرص على بيان أن الحركة قد استغرقت زمنا أقل أو انعدم فيها الزمن . كما ذكرنا فى قوله ﴿ **فمكث غير بعيد** ﴾ ، كذلك فى قوله﴿ **آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلما رآه مستقرًا عنده** ﴾ ، أيضا فى دلالة الحذف على ذلك كما فى قوله﴿ **أذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال اتمدونن**

---

(١) انظر الزمخشرى ٣٦٩/٣ ، والرازى ١٩٩/٢٤– ٢٠٠ والبيضاوى ٥٤ ، وأبا السعود ١٣٢/٤ ، وفى ظلال القرآن ٢٦٤٢/٥ ينسب سيد قطب الكلام إليها ، ولكنه فى التصوير الفنى فى القرآن ص ١٧٣ يضرب عن الآية صفحا وعبد المتعال الصعيدى فى (النظم الفنى فى القرآن ص٢٢٥) يقول إنه من قولها تعلن به إيمانها ، وهذا لا يستقيم طبعا لتناقضه مع صريح كلامها بعده عندما دخلت الصرح وكشف عن ساقيها .

بمال ﴾ وهذا القول فيه حذف كثير ، حيث أن الضمير فى جاء لا يعود على الهدهد ، وإنما يعود على رسول الملكة كما هو بَيِّنٌ من السياق ، وعليه فقد حُذِفَ كل ما يدل على عودة الهدهد بالخبر إلى سليمان وهو ما أدى إلى معرفته بمقدم رسل الملكة بالهدية «وهذا من اكثر المواضع حذفا للسرد ودلالة على السرعة التى تصل بها الأخبار إلى سليمان . وعلى دلالته على عكسه لغيره كما سنعرف بعد .

وأيضا فى قوله﴿ **ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون . قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين ﴾** فبين القولين– كما بينا– زمن وحوادث حذفت من السياق ، الذى يفهم منه بالضرورة أن هناك من طيَّر إليه خبر قدوم الرسل على الملكة بالهدية المردودة ، ثم صدور قرارها بالرحيل إلى سليمان للتسليم بما أمر ، وربما برحيلها وقرب وصولها أيضا إلى الشام ، وكل ذلك محذوف ، معلوم ، من السياق .

أما الآخر الذى يصف تحركات الملكة واتباعها– أى البشر العاديين– ، فعلى العكس من الأول كان الوصف يحرص على بيان أن هذه الحركة بطيئة جدًا بالقياس إلى الأولى ، وأن الحركة من النوع الأول كانت تبدأ بعد بدء حركة البشر العاديين وتنتهى قبلها ، وهذا يدل دلالة واضحة على حرص السياق على بيان هذا الفرق ، فقرار إرسال الهدية من جانب الملكة وصل إلى سليمان خبره ، قبل أن يصل الرسل وهذا دل عليه السياق فى ثنايا دلالته على الأول الذى بيناه قبل قليل ، وأكثر من ذلك أن قرارها بالرحيل إلى سليمان وشروعها فى الرحلة ، قد وصل سليمان خبره ، واتخذ ما يلزم من التدابير ، كبناء الصرح ، وإحضار العرش ، فتم كل ذلك قبل وصولها ، وتبين من السياق أيضا فى ثنايا عرض ما يدل على أنها قد شرعت فى رحلتها للتسليم لسليمان قبل قوله ﴿ **يا ايها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى**

مسلمين ﴾ وأنها استغرقت ما بينه وبين قوله تعالى ﴿ **فلما جاءت قيل أهكذا عرشك** ﴾ . بل إن التعبير الذى يتم به فهم معنى تجاوز الزمن فى شأن سليمان ، هو نفسه الذى يتم به فهم تأخر البشر حيث يقول تعالى﴿ **فلما جاء سليمان** ﴾ وقوله ﴿ **فلما جاءت** ﴾ ، وهذه دقائق عجيبة لو توقفنا عندها ما انقضى المقام . ولكننا نتوقف هنا عند دقيقة من دقائق الأسلوب لننطلق منها إلى تصورنا لطبيعة هذه القصة الذى نحسب ان فيه حلا لبعض معضلاتها ، وتكريسًا لكل بلاغتها وإعجازها وإيجازها وما طوى وأضمر من أحداثها .

فظاهر السياق فيما ذكرنا من المواضع السابقة يوحى بتشابه الألفاظ فيما عبَّر عن الانتقال والرحلة فى شأن البشر العاديين ، وما عبر به عنه فى شأن جند سليمان ، حيث قال أولا ﴿ **فلما جاء سليمان** ﴾ وقال آخرًا ﴿ **فلما جاءت** ﴾وهما فى وصف حركة البشر العاديين . وبينهما قال فى وصف سليمان ﴿ **فلما رآه مستقرًا** ﴾ وقد وصفنا هذا سابقا بأنه دلالة على انعدام الزمن فكيف يتفق أن يكون كذلك هنا وهو فى الموضعين الآخرين دال على تأخر البشر وبطء حركتهم ؟ والجواب عن ذلك أمران:

أولهما:يتعلق بأن ما ورد من وصف حركة الملكة ، ورسولها ، جاء فى مقابل الحذف الموصوف آنفا فى حركة جند سليمان ، فبيَّن التقابُلُ الفرقَ بين الحركتين كما ذكرنا .

الثانى:أن قوله ﴿ **فلما رآه مستقرًا** ﴾ مسلط على سليمان ليبين أن إدراكه ورؤيته قد جاءا متأخرين على وصول العرش وحصوله بين يديه فى طرفة عين ، وهذا جاء فى ثنايا الحديث الواصف لما بعد وصوله وحصوله ، للمبالغة فى الدلالة . على الفراغ من الأمر وتأكد حصوله ، وهو أبلغ مما إذا قلنا (فإذا هو مستقر عنده) لأنه عندئذ يشغل السياق بأمر هو تحصيل حاصل ،

ليس ثمة ما يدعو إلى وصفه بجملة مستقلة ، ثم يستأنف بعدها الحديث التالى ، ولكنه أدخلها فى جملة الكلام التالى وسلط أضواء الحديث على ما سيفعله بعد الوصول والاستقرار والرؤية[1] ، وهذا بلا شك من دقائق التعبير القرآنى الفريد .

وهنا يثور سؤال: كيف عرف سليمان أنها قد أرسلت إليه رسلا ؟ ، والجواب حتما: هو أن الهدهد هو الذى أخبره بذلك ، ولا سيما أنه أمره أن ﴿ **ينظر ماذا يرجعون** ﴾ وهنا مربط الفرس ! فالنظر فى النص يدلنا على أن السياق لم يذكر أن الهدهد قد عاد إلى سليمان بجواب أو خبر مما أمره به ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك فى جملة ما حذف من الكلام ، ولكن النظر المدقق يدلنا على ان الهدهد قد عاد وقص على سليمان ما رأى وسمع بعد أن ألقى الكتاب ، بل إن ذلك مثبت فى النص بحذافيره ، كيف هذا ، وقد ذكرنا من قبل أنه من جملة ما حذف ؟

والجواب ان هذا النظر المدقق يدلنا على أن المشهد القائم فى بلاط سليمان لم ينقطع من أول القصة ، التى تبدأ بتفقد الهدهد ، إلى أن دخلت الملكة الصرح وربما إلى نهاية القصة ، وإن اختلفت الأوقات وإختلف الاشخاص باختلاف الأوقات والأحداث ، وأن ما دار من الأحداث خارج ساحة العرض قد رُوِىَ روايةً داخل ساحة العرض ، وأن ما حذف هو الوصف الدال على ذلك تكريسًا للعرض وتكثيفا لأحداثه ، لتحقيق الحضور المشهود المنشود فى أروع الأعمال الأدبية التى تعد للعرض وأهم ذلك ثلاثة أمور :

---

(١) فى مسرحية سليمان الحكيم جعل توفيق الحكيم جنيا هو الذي يقوم بإحضار العرش ، وشغل من النص أكثر من صفحتين فى وصف عملية الإحضار ، واضطر إلى الوصف بجانب الحوار ، وأظلم خشبة المسرح ثم أضاءها ، ليتسنى إدخال العرش إلى مكان العرض وشتان بين هذا وذاك – السرد القصصى فى القرآن ٧٧-٧٨ ، ومسرحية سليمان الحكيم ص٦٦-٦٧ .

الأول: هو أن ما حدث فى بلاط الملكة ليس مشهدًا مستقلًا– كما وصف سيد قطب[1] وتبعه فيه من تبعه– وإنما هو من رواية الهدهد العائد إلى سليمان ، يرويه بين يديه كما فعل اول مرة ، عندما عاد من غيبته التى بدأت بها القصة ، فى قوله تعالى ﴿ **فمكث غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به . . .** ﴾ ، وهنا نرى سليمان يأمر الهدهد بالذهاب بكتابه والعودة إليه بالخبر فيعبر السياق عن ذلك فى قوله تعالى ﴿ **اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . . .** ﴾ فهنا جرى حذف رحلة الهدهد والعودة كما ذكرنا ، ولكن لم يجر حذف ما ذكر الهدهد بين يدى سليمان لأن من جملة ما حذف ما تقديره ﴿ **فرجع فقال لسليمان إنها قالت يأيها الملأ . . .** ﴾ وكل ما بعد ذلك هو من قول الهدهد وروايته داخل ساحة العرض بين يدى سليمان ، ولم يحدث قط أن العرض قد انتقل إلى اليمن ، ولا تَعَارُضَ بين هذا وما ذكرنا من أمر الحذف فى السابق .

الثانى: أن مما يؤكد هذا المعنى أن سليمان كان يتفقد جنده ، بأن تعرض عليه وهو على عرشه ولا يتّكبد عناء الطواف بينها ، لما وهبه الله من الحس والمقدرة التى ليست لغيره من البشر ، فمشهد تفقده للهدهد ومحاورته معه ليست بعيدة عن مكان العرض كما قد يظن الظانُّ .

وكذلك مما يؤكد هذا المعنى أن السياق قد ألغى من الوصف كل ما دار خارج ساحة العرض (بلاط الملك) بعد خروج رسول الملكة ، وجعل المحاورة هى التى تدل عليه ، فلم نعلم بأن رسولها قد عاد إليها فى رحلته الطويلة من الشام إلى اليمن ، وأنه أبلغها رسالة سليمان ، وأنها عزمت على المسير إليه وتجهزت وأرتحلت وقاربت الوصول إلى الشام بعد رحلة طويلة ،

---

(١) ذهب سيد قطب (الظلال ٢٦٣٧/٥) إلى أن القصة مكونة من ستة مشاهد .

إلا من كلام سليمان مع أهل بلاطه ، ونحن نعلم أن تحميل الحوار بالوصف وبما جرى من الأحداث خارج ساحة العرض من أهم معالم الحرفة الجيدة فى الكتابة المسرحية .

الثالث: انه وقد ثبت لدينا ان كل الأحداث قد دارت فى ساحة العرض من أول تفقد الهدهد ومجيئه بخبر الملكة ، بما فيها خبر ما دار فى بلاطها عندما ألقى الكتاب إليها ، وأن قوله ﴿ **فانظر ماذا يرجعون** ﴾ كان آخر كلام سليمان ، وأن قوله بعده ﴿ **قالت يأأيها الملأ** ﴾ هو من رواية الهدهد إلى قوله ﴿ **فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ وأن المشهد لم يُقطع بسرد بعد ذلك إلى قوله ﴿ **فلما جاءت قيل أهكذا عرشك** ﴾ فلم لا يكون هذا أيضا من رواية بعض أهل البلاط ، يرويه بين يدى سليمان ، وكان قد وُكِلَ إليه أمر استقبالها وعرض العرش عليها ، وهو امر حدث خارج الصرح الذى فيه عرش سليمان ، أى ساحة العرض السابقة وقد اجرى فيها تعديل ما ، أو هكذا كانت أولا ، والذى جرى فيه آخر أحداث القصة بعده مباشرة ، كما هو واضح من السياق ، وهذا الرجل الذى كلف باستقبالها ، أخذ يروى لسليمان ما (قيل لها) وقالت ، ويعلق عليه ، ولعله هو الذى عنده علم من الكتاب ، لأنها عندما قالت (كأنه هو) قال معلقا: ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين** ﴾ أما هى فقد﴿ **صدها ما كانت تعبد من دون الله** ﴾ لأنها ﴿ **كانت من قوم كافرين** ﴾ ، أى أنه بتوضيح اكثر- قد عقد مقارنة بين علمه وعلمها إذ تعرفت على عرشها ، برغم تنكيره ، مع ما يحمله كلامها من علامات الدهشة والاستغراب ، وإنكار أن يكون سليمان قد وصل إلى مكان عرشها مع تأمينها إياه قبل خروجها ، فقالت بحذر شديد ﴿ **كأنه هو** ﴾ فكان تعبيرًا دقيقا أفلتت به من الإقرار بأمر معجز فى طبائع الأشياء ، ومعتاد الأمور فى نظرها ، ومن الإنكار الذى يكذبه واقع الأمر ، فأعجب جوابُها هذا الرواى- الذى قدمنا أنه يغلب أن يكون الذى عنده علم من

الكتاب- فعلق عليه قائلا ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ، وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين** ﴾ ، كل ذلك يُروَى بين يدى سليمان[1] ، الذى يأمر بعد سماعه له بإدخالها الصرح ، حيث يتم لقاؤه بها لتواجه الاختبار الأخير فى مواجهاتها بالمعجزات التى أيد الله تعالى سليمان بها ، حيث إنها لما رأت الصرح العجيب حسبته ماء ومخاضة تفصل بينها وبين الملك ، ولا يتسنى لها أن تتراجع ، بل لا ينبغى ، فقررت أن تخوض ما ظنته ماء ، فكشفت عن ساقيها ، فكان هذا الفيصل بين علمها وعلم سليمان ، إذ أصبح علمها جهلا بالقياس عليه عمليا ، بمجرد أن كشفت عن ساقيها ، إذ إنه عمل معيب من الأشراف والملوك ، وقد أتت به عفوًا من أثر الدهش والعجب والموقف المفاجئ، ولو تروت ما فعلت ، وأصبح ذلك دليلا ماديًا ملموسًا لا تستطيع بعده أن تكابر أو تتراجع فى الإقرار أو تدعى علما أو تقدم عذرًا[2] ، فما إن قيل لها أو قال لها ﴿ **إنه صرح ممرَّد من قوارير** ﴾ حتى قالت: ﴿ **رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ ، لأنه لا يمكن أن تقول بعد تكشف الحقيقة : لقد

---

(١) ولو كان هذا من كلام سليمان كما ذكر بعض المفسرين لثار سؤال : لماذا أخبر عنه السياق فى هذا بالبناء للمجهول فى قوله (قيل أهكذا عرشك) وقوله : (قيل لها ادخلى الصرح) ثم عاد فأخبر عنه بالمعلوم فى قوله : (قال إنه صرح ممرد) فعلى هذا يكون الذى قال أولا غير سليمان ، ويكون سليمان غير حاضر مادار من المحادثة قبل دخولها الصرح ، عند عرض العرش عليها . وما قدمناه هو ما نحسبه الحل لتلك المعضلة التى أوقفت المفسرين عند البحث عن قائل هذا التعليق على كلام الملكة .

(٢) هذا التأويل أيضا من الحقائق القرآنية التى تدحض افتراءات أصحاب الإسرائيليات ، والأدعياء ، وأهل الديانات الأخرى الذين تعمدوا تشويه سيرة نبى الله سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ولُعنوا بما قالوا ، من أنه تعمد ذلك من أجل أن يرى رجليها وأن الجن أخبروه بأن رجليها بهما شعر كأرجل العنزة وغير ذلك من الأكاذيب .

كنت أعلم أنه صرح ممرد من قوارير ، وتمالك نفسها وتربط على جأشها كعادة الكبراء المدربين على ذلك ، لأن الدليل المادى- كَشْفُ الساقين- سيكذبها ، ويقال لها: فلم كشفت عن ساقيك إذًا ! ؟ ولهذا لم يطل مطالها ، ولم تسعفها واعيتها بمثل ما حدث فى مواجهة العرش ، وكان الإقرار والإسلام .

وليس الاختلاف حول مسألة حدود المشاهد فى القصص القرآنى أمرًا خطيرًا ، وإنما هو ظاهرة صحية ، وليست مسألة حدس أو تخمين أو ميل من القارىءأو الدارس ، وإنما السر فيها يرجع إلى الطاقة التأويلية العملاقة التى يتمتع بها القرآن الكريم ، والتى تتيحها لنا أساليبه المنظومة على نحو معجز يوحى لبعض مطالعيه بتصور ، ولغيرهم بتصور آخر لهذه المشاهد ، وهكذا ، وهذا ضرب من إعجازه شبيه بالاختلاف حول الإعجاز نفسه الذى عده بعض العلماء نوعًا من الإعجاز أو شهادة للقرآن بأنه معجز من كل الوجوه ، وقالوا فيه «إن عدم تيقن سر الإعجاز من الإعجاز»[1] كذلك نحن نقيس عليه قائلين إن عدم تيقن حدود المشاهد القرآنية من الإعجاز .

وليس هذا بمانعنا من أن نذهب إلى أنه قد تبين لنا وجود معالم محددة ومسائل مطردة ، وطرائق مختارة بدقة من قبل الله تعالى للصورة التى يضع عليها المشهد الفعال فى السورة ، الذى يستوعب أخطر أحداثها ، وهو يقع فى مكان محدد ، ولو راجعنا معا مشاهد سابقة من قصة إبراهيم فى سورة الأنبياء ، ومن قصة موسى فى سورة طه وسورة الشعراء ، وقصة يوسف فى سورة يوسف لتبين لنا مصداق ذلك ، ولكن أغرب صورة من صور توافق بناء المشهد ، واتفاق مجرياته مع مشهد آخر ، هو ذلك المشهد من سورة يوسف الذى يقع فى قصر الملك من أول قوله ﴿ **وقال الملك إنى**

---

(١) صور من إعجاز القرآن ، حسن الظواهري ص ١٣٦ .

اري سبع بقرات سمان . . . ﴾ حتى نهايته عند قوله ﴿ **قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾ مع المشهد الذى استغرق قصة سليمان مع ملكة سبأ ههنا ، وهذا التوافق الغريب بينهما لم يتوقف عند كون كل من المشهدين يقع فى قصر الملك ، ولا عند حدوث حوادث غريبة فى بلاط هذا الملك ، وحوادث أخرى تقع بعيدًا عنه وينقل خبرها إليه ، ولا عند استعمال وسيلة الحذف والتكرار التى يستعان بها على استحضار المجريات على أرض العرض المختارة وهى بلاط الملك ، بل وصل الأمر إلى أن المفسرين قد اختلفوا الاختلاف نفسه حول بعض الأقوال وشكوّا فيها وتأولوها على نحو يكاد يكون تكرارًا لما قالوه فى الأول ، وإن فصل القول فى خلافهم حول المشهدين كان عندنا فى هذا التصور الذى توصلنا إليه لوحدة مكان الأحداث (ساحة العرض) ، ولو رجعنا إلى ما ذكرناه فى الفصل الثانى من الباب الثانى حول المشهد المذكور من قصة يوسف لوجدنا أن المفسرين قد ظنوا أن قول امرأة العزيز بين يدى الملك﴿ **ذلك ليعلم أنى لم اخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم** ﴾ أنه من قول يوسف ، تماما مثلما فعلوا بالقول المردف بقول الملكة حين رأت العرش هنا ، وهو قوله ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين** ﴾ . حيث نسبوا هذا القول إلى سليمان . وفى كل من المشهدين كان من نُسِبَ القولُ إليه غائبا عن المشهد أو ساحة العرض المختارة ، وقد تمكنا من التوصل إلى القائل الحقيقى لكل من القولين بترتيب الأحداث الواقعة فى ساحة العرض وتوجيه الضمائر وأرجاعها ، وبيان من كان حاضرًا أو غائبا ليصح أن يقول قولًا ، أو يتوجه متكلم إليه بالخطاب ، فتبينت الحقيقة .

***

وبهذا نرى أن هذا القصص القرآنى ليس مجرد أحاديث أسطورية ، أو أخبار أمم خالية ، أو مجرد عظات وعبر وإنما هى أجناس فنية أدبية عملت فيها حرفة سماوية على غير مثال سابق ، بل كانت سابقة لأوانها وستبقى سابقة فى كل حين ، ولو أتسع المقام لأتينا من هذه المشاهد المحددة ومن غيرها بوجوه وأنماط من هذه الحرفة ، وتلك الفنون تثير العجب . ولكننا نكتفى بدراسة هذه النماذج التى نعرضها ، وللقارىء أن يقيس عليها غيرها لتبين مدى اطراد هذا الأسلوب فى القصص القرآنى ، ومن ذلك انتقال السياق من القصر إلى السجن فى سورة يوسف ، وانتقال السياق من القصر إلى مملكة سبأ فى سورة النمل ، وتردد الرُسُل بين القصر والسجن فى سورة يوسف وتردد الرسل بين قصر سليمان ومملكة سبأ فى سورة النمل ، وبدءُ كل من المشهدين ببداية مثيرة للدهش والتساؤل فى كل منهما: هنا حادثة الهدهد ، وهناك حادثة الرؤيا ، وكلتاهما كانت سببا فى تسلسل الحوادث بعدها ، وفى ختام المشهد تظهر حقيقة تسلم على أثرها امرأة العزيز هناك ، وهنا يختم المشهد بظهور حقيقة تسلم على إثرها الملكة ، إن ثمة رباطا قويًا بين البناء الأسلوبى للقصة والبناء الفنى لها ، والبناء الموضوعى أيضا ، فهى كلها تلتحم فى نسيج قوى يقدم لنا قصة متينة البناء ملتحمة الأجزاء ، عديمة الفضول ، ولا ينقصها شىءبرغم قلة حجمها بالقياس على قصص البشر التى تتفاضل فى الطول ، وهذه تفضلها بالقصر ، وأنها لا تستخف بعقل السامع فتمله بكثرة الحشو والتفصيلات ولا تستهين بوقته فتهدره فيما لا ينفع وهو قليل المتعة ، وقليله هذا موجه إلى الغرائز لا إلى الأرواح ، وقد رأينا فيما تعرضت له هذه الدراسة نماذج من الفن العالى الذى عملت فيه بلاغة الحرفة القصصية عملها على أدق وجه وأحسنه ، إذ إن القصة القرآنية ينتظمها الحدث الأصلى لها من مبدأها إلى منتهاها ، وجميع ما يعرض من أحداث وأشخاص فى مجراها ترى لهم عملًا يدفع الحدث قدما إلى غايته ، ومشاهد القصة جميعا تجرى

حيث ينبغى لها أن تكون ، ومشاهد الحركة خلالها إما أن تسرد بأرفع أسلوب من الوصف وأوجزه وأكثره دلالة ، وبلسان من ينبغى أن ينقلها بلا افتعال أو قسر أو حشو ، بحيث يعطى انطباعا للحدث بتمامه ، وفى الوقت ذاته لا يؤدى إلى قطع مجرى الحدث الأصلى وصرف انتباه المتابع ، وإما أن تدخل فى الحوار القافز فوق رءوس الأحداث أو المتداخل بحيث يعلم من يتابعه ما دار فيما وراء خلفية العرض أو فى أثنائه فى مكان بعيد ، وقد نهضت الحرفة العالية بأداء كل ذلك من خلال الحذف الذى لم يكن الإيجاز غايته ، بقدر ما كانت الحرفة القصصية ، لتقسيم المشاهد واتصالها على نحو فريد .

كل ذلك كان ماثلا أمامنا فى النص القرآنى المعجز منذ أنزل الله تعالى هذا الكتاب ، ونحن عنه غافلون ، تلك الغفلة التى أدت بالمحدثين من أدبائنا إلى الانبهار بفنون الأدب القصصى والمسرحى التى رأوها عند الغربيين ، فاستوفدوها وكأنها اعجوبة الأعاجيب ، غافلين عن عيوبها وشرورها غفلتهم عن مزايا أدبنا القرآنى ، ومعجزاته الخالدة . ولو قدر لحركة الإحياء فى القرن الماضى أن تستمر على أصالتها ، وتنهلها من معين تراثنا الذى لا ينضب ، دون أن تغرق فى لجة الانبهار بحضارة الغرب وأدبه؛ لكانت حصيلة تلك الحركة الأصيلة الآن فنا أدبيا راقيا لا نظير له .

كما أنه لو كان ما وصل إلى معاصرينا من حصيلة تلك الحركة الإحيائية فنًا أصيلا كالذى وصفنا لقدر لنا أن تكون فنون الأدب التمثيلى التى تستمد مادتها من هذه الآداب ، فنونا على قدر رفيع المستوى ليس فى الحرفة القصصية فحسب وإنما فى غاياتها الفنية والاجتماعية ، فليست الحرفة شيئا منفصلا عن غايات الأدب ، وإنما هى وسيلة صناعية كرست لخدمة تلك الغايات .

لقد وفدت الفنون الغربية من منابعها حاملة كثيرًا من المباحات فى هذه

المنابع ، مما لا يقبله المجتمع الاسلامى ، وقد فصلت الحرفة القصصية فيها على قدر هذه المباحات ، ولبثت زمنا طويلا تعانى من رفض المجتمع الاسلامى لها حتى رق دينها ، ولانت مقاومتها ، وقبلت مرغمة تلك المستوفدات ، ثم انهارت أمام انبهار الأجيال الحديثة من المسلمين بكل ما هو وافد وغريب .

أما الحرفة القصصية التى تجلت فى القرآن الكريم ، فكان يمكن أن تولِّد فنونا من القصص والأدب التمثيلى أكثَر إمتاعا لكن للأرواح ، وأكثر إفادة ولكن للعقول ، وفى مراعاة لأداب المجتمع الإسلامى ، لما تمتاز به هذه الحرفة من قدرة على طى ما يُكره عرضه أو الحديثُ عنه من المحرجات والقبائح والفظائع ، وتكثيف العمل الفنى بحيث لا يقتل أوقات الناس ويهدر طاقات الأمة ، ولقد كان اسلافنا يستمتعون بجمال الفن والأدب ، وكانت تلك الغاية تتحقق من خلال جرعة تستغرق من الوقت الثمين معشار ما يستغرقه الفن التمثيلى المعاصر؛ ومن متعة حلال ، تفيد الناس كما تمتعهم ، وتهديهم إلى الحق والخير والعدل ، ولا تعرض نماذج بشرية شائهة أو غير واقعية ، أو نماذج خارقة للعادة ، ولا تفتعل الحبكة والمواقف الأدبية ، التى تؤدى نوعًا من الصراعات التى تفسد العقيدة وتشوه النفس والمجتمع .

إن كثيرًا مما يعرض من فنون القصص المعاصر تجرى فيه أمور تعرض رغبة فى عرضها فقَط ، وليس لِتَعَلُّقِ حبكةِ العملِ الفنى ومجرياته بها ، ولهذا نرانا وقد جربنا عشرات المرات أن نقرأ قصة أو مسرحية أو نشاهد عملًا فنيا تمثيليًا ، فنأخذ منه فقط بطرف من أوله ، وطرف من آخره ونعمل على استنتاج باقى الأحداث ووصلها ، أو نترك مشاهدة أوله ونستنتج ما كان فيه ، بل إننا نتنبأ بما يكون فى آخره ، ونعرض كل ذلك على من شاهده بتمامه فلا يكاد يفارق ما استنتجناه أو ما تنبأنا به حقيقة العمل كما يدلنا عليه من تابعوه متابعة دقيقة بتمامه ، وهذا يدلنا على مدى ما تُحَمَّلُ به هذه الأعمال

مما لا علاقة له ببنائها الفنى أو بحبكتها ، وهو مسوق فيها لأدنى ملابسة ، لعلل وأسباب أخرى غير الفن وغير الأخلاق . ولا غرابة بعد ذلك فيما تطالعنا به وسائل الإعلام من اجتهاد مقص الرقيب الفنى فى التهام كثير من مشاهد هذه الفنون ، ثم تبقى بعد كل هذا الحذف صالحة للعرض دون مساس بمجريات القصة الأصلية .

إن الأدب التمثيلى بوضعه الراهن فى المجتمعات العربية والإسلامية يتحايل على قيم هذه المجتمعات ويعمل على إهدار طاقاتها ، واستنزاف أوقاتها وعقول ناشئتها وشبابها وتشويه نفوسهم ، ويقضى على مستقبل الأمة ، لأنه صُب فى إطار تنبنى الحبكة القصصية فيه على أنواع من الصراعات تخلو منها المجتمعات الإسلامية ، متقدمة كانت ام متخلفة ، ويبيح عرض تلك الصراعات ، والمواقف الشائنة التى لا تلائم طبيعة أمة مفطورة على التخلق بأخلاق القرآن .

أما الأدب الإسلامى القرآنى كما رأيناه فإنه لا يتعرض لصراعات ولا تنبنى فيه عقدة العمل الفنى على الصراع وإنما على تعارض مواقف ، وانتصار الخير فى تعارض المواقف محقق وقريب ، أما الصراع فإنه يعتمد على القوة للوصول إلى نتيجة الصراع ، وربما تمتع الشر بقوة ليست للخير فى مثل هذا النوع من الصراعات فينتصر الشر ، وأحيانا يكون الصراع بين شرين والغلبة للأقوى ويقف الخير مكتوف اليدين يُنقل زمام قيده من شر إلى شر ، وينبغى علينا أن نشير إلى أن هذا النوع من الصراعات قد غلب على أدبنا التمثيلى فى العقدين الماضيين ، وأغلب الظن أنه مُوجَّهٌ ومتعمد لبث اليأس فى النفوس وقتل الأمل فى الخلاص وحمل الأمة على الاستسلام لواقعها المرير ، والتمكين لقوى الشر والطغيان من الإفساد فى الأرض دون ان يردعها حسيب أو رقيب .

أما تعارض المواقف فى الأدب الإسلامى فقد يقع فى ثناياه ما لا يستحب عرضه ، أو يسىءإلى تكثيف العمل وتركيزه ، ولكن تتدخل الحرفة العالية بعمل الحذف لطى تلك الأحداث وإضمارها مع تبليغ المتلقى بوقوعها بأدق أسلوب وأرفعه مع جرعة عالية من الإثارة تحقق الاستغراق والمتعة الحلال .

تلك هى غاية الغايات فى الأدب والفن ولن تتحقق بحذافيرها وجميع اطرافها إلا بميلاد أدب قصصى ينطلق من قاعدة قرآنية أصيلة ، بشر بها قبلنا اناس ، وحاولها أخرون ، ولكن الرؤية لم تكن واضحة ، والقاعدة لم تكن استخرجت بعد ، وإننى أناشد البلاغيين العرب أنه يشمروا عن سواعدهم لاتمام صرح البلاغة العربية الذى اسسه ووضع قواعده أسلافنا العظماء ليتم بناء علم الجمال فى العربية ليرعى بعينه الساهرة كل أجناس الأدب وفنونه ، وسائر الفنون ، وهو صرح إن تم- عما قريب إن شاء الله- ستحسدنا عليه الأمم ، وتترسم خطانا ، وأحسب أننا عندئذ سنسترد كثيرًا من شخصيتنا الضائعة ومكانتنا بين الأمم .

***

وبعد . . . فإنها لمغالطة ان ندعى أن هذه الدراسة قد انتهت فإن الكثير من التساؤلات وعلامات التعجب ما زالت ترتسم على الوجوه ، وتصدح بها الألسنة حول القصص القرآنى ، وفيما اختزل منه على وجه الخصوص ، وإننا لنأمل أن تفتح أبواب الدرس من حولنا فى كثير من المسائل التى ثار حولها الجدل وكثرت الأقاويل وأثيرت الشبهات فيها وزوحمت أجوبتها الافتراضية بالإسرائيليات ، ونأمل أن تتمكن هذه النظرة الجديدة الوليدة من حل بعض معضلاتها ، ووضع التفسير اللائق بجلال القرآن ورسل الله تعالى وأنبيائه لهذه القصص ، وتنقية كتب التفسير والتاريخ مما أثير حول الأنبياء كيوسف فى مسألة الهمّ ، ودواد وسليمان فى مسألة الفتنة فى قوله تعالى **﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ﴾** إلى قوله: **﴿ وظن داود**

أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ، فغفرنا له ذلك ﴾وقوله تعالى ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا ثم أناب ﴾ ومما قيل فى تفسير قوله تعالى عن مريم ﴿ فتمثل لها بشرًا سويًا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ﴾ ، وغير ذلك .

وكذلك نأمل أن يمكن للدرس الواعى فى ضوء ما قدمنا أن يفسر لنا ما اختزل من القصص القرآنى ، وقد مر بنا كثير من أمثلته ، وإننا لعلى يقين من أن هذا النوع من الدرس سوف يضيف إضافات جديرة بالاجتهاد فى سبيلها إلى علوم القرآن ، بل ويضيف إلى علم البشر بآيات ربهم الكثير ويفيدهم فيما هم فى حاجة إليه فى قابل حياتهم وما بقى لهم على ظهر الأرض فى الحياة الدنيا ، مثل بيان حقيقة يأجوج ومأجوج ، وسيل العرم ، وسفينة نوح وارم ذات العماد ، وأحاديث عالم الغيب ولا سيما الجن والملائكة ، ويوم القيامة . وهى كلها مما عرض فى قصص القرآن ، وما زال متلفعا بالغموض والأسرار ، ولهذا فليس من اليسير فى مثل هذا النوع من الدراسات أن يقول المرء: ختامًا أو يقول: انتهينا ؟ فإن ما بقى من كلامنا فى هذا الأمر فيما نظن- أكثر مما قلنا ، ولا نحسب أننا قد اطلنا ، وإن مجال البحث فى إعجاز القرآن ما زال فسيحا ، وبعض مجالاته ما زالت بكرًا .

والقصص القرآنى ما زال وعاء لعشرات الدراسات ، فى الفن ، وفى التاريخ ، وفى العظة والعبرة والتعليم وغيرها .

والبلاغة القرآنية ما زالت تمدنا بكل جديد ، ولن ينفد ما بقى على ظهر البسيطة ذو نسم .

والإضمار والطى والحذف فى القرآن ما زالت كثرتها الغالبة تفتقد الدارس ذا الحس البلاغى المتجدد الفريد الذى لا يقول: حذف وإيجاز وكفى ، وإنما علينا أن ننقب عن الموهبة الفريدة ، ونسلحها بالمعارف المختلفة والعلوم

الواسعة ، ونثقف إحساسها ، وندعوها بعد ذلك إلى السياحة والسباحة فى أقطار هذا الكتاب من أجل أن تكشف لنا عما اختبأ بين جوانبه مما بقى مطويا من أسراره ، بعد كل ما قاله من قبلنا وقال من عاصرنا وقلنا أو نزمع أن نقول ، ولعل كلمة تقال فى شأن هذا الكتاب تهدى الأمة وتكشف الغمة ، وتميط عنا لثام الجهالة ، وترفع أكوام الغفلة ، وتجدد الدين .

فاللهم فهمنا كتابك وفقهنا فيه وذكرنا منه ما نسينا وعلمنا ما جهلنا واجعله لنا إماما وشفيعا ، وهاديا ونصيرًا يا رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله ومن والاه واتبع هداه إلى يوم الدين . آمين

أبو الحسن محمد كاظم بن حسن الظواهرى
غفر الله له
أصيل يوم عاشوراء المبارك
الخميس سنة١٤١٢

❋❋❋

مراجع الدراسة

نود إلى نشير إلى أن ثمة حشدًا من الدراسات فى علوم القرآن وفى البلاغة ، وفى القصة القرآنية ، وفى التاريخ والسير ، وفى الأدب؛ قد طالعناه ورجونا أن نجد فيه شيئا يتعلق موضوعنا؛ فما ظفرنا منه بشىء ، ولم نورد هنا إلا ما أفدنا منه بوجه من الوجوه ، أو ناقشناه فى بعض آرائه .

١ - الاتقان فى علوم القرآن .
السيوطى . . . الحلبى . . ط ٤ سنة ١٣٩٨هـ .
٢ - أسرار البلاغة .
عبد االقاهر الجرجانى - المنار - سنة ١٣٢٠هـ .
٣ - أسرار التكرار فى القرآن .
الكرمانى- ت عبد القادر أحمد عطا- الاعتصام - ط٣ سنة ١٣٩٨هـ .
٤ - إعجاز القرآن .
الباقلانى- ت: السيد صقر- دار المعارف ط٣ سنة ١٩٧١م .
٥ - أنوار التنزيل واسرار التأويل (تفسير البيضاوى)
البيضاوى- الجيل- لبنان- مصورة . د . ت .
٦ - البداية والنهاية (وقصص الأنبياء) .
ابن كثير- دار الكتب العلمية- لبنان- سنة ١٤٠٥ .
٧ - البرهان فى علوم القرآن .
بدر الدين الزركشى - ت: محمد أبو الفضل إبراهيم - الحلبى سنة ١٣٧٧ .
٨ - تاريخ الأمم والملوك .
ابن جرير الطبرى - دار المعارف - ط ٤ سنة ١٩٧٩م .

٩ - كتاب التذكرة فى القراءات .
ابن غلبون - ت عبد الفتاح بحيرى إبراهيم - الزهراء سنة ١٤١٠ .
١٠ - التصوير الفنى فى القرآن .
سيد قطب - الشروق - طـ٥ سنة ١٣٩٩ .
١١ - التعبير الفنى فى القرآن .
بكرى شيخ أمين - الشروق - طـ٣ سنة ١٣٩٩ .
١٢ - تفسير البحر المحيط .
أبو حيان الأندلسى - دار الفكر - طـ٢ سنة ١٤٠٣ .
١٣ - تفسير أبو السعود
أبو السعود محمد العمادى - المطبعة المصرية سنة ١٣٤٧ .
١٤ - تفسير الطبرى .
محمد بن جرير الطبرى - ت: محمود شاكر - طـ٢ دار المعارف سنة ١٩٦٩م ، وط الحلبى طـ٣ سنة ١٩٦٨م بدون تحقيق .
١٥ - تفسير الفخر الرازى .
فخر الدين الرازى - دار الفكر - طـ٣ سنة ١٤٠٥ .
١٦ - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى) .
محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى - دار الكتب سنة ١٣٥٨ .
١٧ - الحذف والإضمار فى أسلوب القرآن الكريم والأساليب العربية .
عبد الفتاح بحيرى إبراهيم - المحمدية سنة ١٩٧٥م .
١٨ - خلاصة التحقيق فى علوم البلاغة .
محمد الشافعى الظواهرى الكبير - مخطوط بمكتبتى .
١٩ - دراسات فى القصة والمسرح .
محمود تيمور - مكتبة الأداب - د . ت .
٢٠ - دراسات قرآنية .

محمد قطب - الشروق - طـ٣ سنة ١٤٠٢ .
٢١ - دلالات التراكيب .
محمد حسنين أبو موسى - جامعة قاريونس - بنغازى سنة ١٣٩٩ .
٢٢ - دلائل الاعجاز .
عبد القاهر الجرجانى - المنار - طـ٢ سنة ١٣١٣ .
٢٣ - روح المعانى (تفسير الألوسى) .
شهاب الدين السيد محمود الألوسى - المنيرية - د . ت .
٢٤ - السرد القصصى فى القرآن الكريم .
ثروت أباظة - دار النهضة مصر - د . ت .
٢٥ - سليمان الحكيم .
توفيق الحكيم - مكتبة الأداب - طـ٢ سنة ١٩٤٨م
٢٦ - صور من إعجاز القرآن .
حسن الظواهرى - مجلة كليةالشريعة - بغداد العدد الرابع ١٣٨٨ .
٢٧ - علوم البلاغة .
أحمد مصطفى المراغى - دار القلم سنة ١٩٨٠م
٢٨ - الفن القصصى فى القرآن الكريم .
محمد أحمد خلف الله - الأنجلو - طـ٤ سنة ١٩٧٢م .
٢٩ - الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة .
الشوكانى - مطبعة السنة المحمدية سنة١٣٨٠ .
٣٠ - فى ظلال القرآن .
سيد قطب - الشروق - طـ١٣ سنة ١٤٠٧ .
٣١ - قصص الأنبياء .
عبد الوهاب النجار- دار التراث سنة ١٩٨٥م .
٣٢ - القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه .

عبد الكريم الخطيب – مطبعة السنة المحمدية – سنة ١٣٨٤ .
٣٣ – قضايا النص المسرحى المعاصر بمصر .
كاظم الظواهرى – رسالة عالمية – كلية اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٤٠٢ .
٣٤ – قضية الفن الأول بين الشعر العربى والمسرح .
كاظم الظواهرى – مجلة اللغة العربية بالمنوفية– ٨– ١٤٠٨ .
٣٥ – كتاب القطع والاستئناف .
أبو جعفر النحاس . ت: أحمد خطاب العمر– العانيـ بغداد سنة ١٣٩٨ .
٣٦– الكشاف عن غوامض التنزيل (تفسير الزمخشرى)
الزمخشريـ دار الكتاب العربيـ بيروت – مصورة من طبعة مصر سنة ١٣٦٦ .
٣٧ – المثل السائر .
ضياء الدين بن الأثير . ت: أحمد الحوفى ، بدوى طبانة– نهضة مصر سنة ١٩٧٣م .
٣٨– مشاهد القيامة فى القرآن .
سيد قطب – دار المعارف – طـ٧ سنة ١٩٨١م .
٣٩ – معانى القرآن .
الفراء – الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٨٠م .
٤٠ – من أسرار الحذف فى بعض آيات القرآن الكريم .
فتحى أحمد إسماعيل حسن – مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة – ٨ – ١٤١٠ .
٤١ – منهج الفن الإسلامى .
محمد قطب – الشروق – بيروت – د . ت .

٤٢ – النظم الفنى فى القرآن .
عبد المتعال الصعيدى – الآداب – د . ت .
٤٣ – النقد الآدبى الحديث .
محمد غنيمى هلال – دار النهضة مصر سنة ١٩٧٩م .

***

الفهرس

★ ★ ★

رقم الايداع ٨٧٧٤

فى ١٢ / ١١ / ١٩٩١